التطور الاجتماعي

تأليف

ف . جوردون تشايلد

ترجمة

لطفي فطيم

راجعه

كمال الملاخ

الناشر

مؤسسة سجل العرب

باشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده

٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة

١٩٨٤

التطور الاجتماعي

تأليف
ف. جوردون تشايلد

ترجمة
لطفي فطيم

راجعه
كمال الملاخ

هذه ترجمة كتاب :

SOCIAL EVOLUTION

تأليف :

Prof. V. GORDON CHILDE

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

محتويات الكتاب

مقدمة

عندما نلت شرف الدعوة لإلقاء سلسلة « محاضرات جوزياه ماسون » فى علم الأنثروبولوجيا . شعرت بالحيرة ، لأنى لست إلا أحد الأثريين المتخصصين فى عصر ما قبل التاريخ .

ولكن الحقيقة أن علماء الدراسات الأثرية (الأركيولوجيا) قد أدركوا الآن أن دراساتهم تتناول البقايا المادية للمجتمعات ، وأن هذه المجتمعات رغم أميتها قد خلفت أدلة ملموسة لا تمثلها من أدواتها المادية فحسب ، ولكن من نظامها الاجتماعية وخرافاتها وأنواع سلوكها أيضاً مهما كانت هذه الأشياء غير كاملة أو غير واضحة .

لهذا السبب فكرت أنه ربما كان من المفيد فحص نظرية التطور التى وصل إليها كل من هربرت سبنسر ولويس مورجان من دراساتهما المقارنة للمجتمعات الموجودة حالياً ، وذلك فى ضوء العلم الذى يدرس المجتمعات فى تتابعها الزمنى . وها أنا أقدم نتائج دراستى التمهيدية المؤقتة فى المحاضرات المنشورة فى هذا الكتاب . فإذا بدت تلك النتائج سلبية فى مجموعها وغير متفقة مع أى نظرية من النظريات التى تقول بأن التطور يسير فى خط واحد فإن بعض النتائج الإيجابية التى لم أتوقعها قد اتضحت وهى التى أرجو أن يجدها القارىء مشوقة ومثيرة .

جوردن تشايلد

أغسطس ١٩٥٠

الفصل الأول

النظرية التطورية فى الأنثوجرافيا

(علم دراسة الشعوب)

يجانب الصواب دارسو علم الإنسان — الأنثروبولوجيا بأوسع معانيها — عندما يعتبرون كلمة « تطور » فى تعبير « التطور الاجتماعى » نوعاً من القوة السحرية العامة التى تقوم بنفس العمل الذى تقوم به العوامل الفردية المحسوسة التى تصبغ مجرى التاريخ . ولكى نفهم ونصحح هذا الفهم الخاطىء من المفيد أن نبدأ بتاريخ هذه العبارة ودلالتها .

لقد استعيرت الفكرة — كما استعير اسمها — من التاريخ الطبيعى . ففى ذلك المجال كانت النظم التى وضعها لينيوس (Linnaeus) وبوفون (Boiffon) فى القرن الثامن عشر قد سبق أن وضعت أقساماً رئيسية ورتباً وفصائل للكائنات الحية فى ترتيب منتظم الطبقات (إدارة طبقية ؟) إلى حد ما . وفى العام الأخير من ذلك القرن أعلن لامارك النظرية القائلة بأن ذلك الترتيب المنتظم الطبقات كان نتيجة لعملية طبيعية هى التطور . فلم تخلق الأنواع والأجناس كما هى عن طريق المعجزة وفى وقت واحد أو أنها غير قابلة للتغيير ، بل انبثق كل نوع منها من نوع سابق عليه وأدنى منه ، وذلك عن طريق عملية طبيعية — أى بعملية مفهومة للعقل الإنسانى . كانت تلك النظرية فى الواقع منذ نشأتها احتجاجاً عقلياً ضد العقائد اللاهوتية عن تدخل قوة خارقة للطبيعة . غير أنه ثبت أن الميكانيزم المقترح لتفسير التطور — وهو توريث المميزات المكتسبة — غير كاف لتفسير الحقائق الملاحظة . ولذلك فلم تحرز التحولية Tronsformism أو النطورية evolutionism إلا تقدماً طفيفاً ، حتى عرض داروين (Darwin)

ووالاس (Wallace) ميكانيزما أفضل ، وجمعا كمية هائلة من الملاحظات المقنعة لتأييد وجهة نظرهما .

وما إن حل عام ١٨٥٩ حتى كان باستطاعة داروين ألا يكتفى بإيراد ملاحظاته الخاصة لتوضيح التنوع وإنما استطاع أيضاً أن يلجأ إلى علم الباليونتولوجيا (علم دراسة الحيوانات والأشجار القديمة المتحجرة) ليثبت تاريخية عملية التطور . فبينما تعيش كافة أنواع الكائنات العضوية فى عالمنا المعاصر من الأميبا إلى الثدييات جنباً إلى جنب ، نجد أن الأقسام الرئيسية والرتب والأجناس التى اعتبروها أرقى من حيث الترتيب تظهر لأول مرة فى الصخور متأخرة عن تلك التى اعتبروها أدنى منها ، ويعنى تعبير «متأخرة» عن « فى الجيولوجيا الستراتيجرافية — وهى المعنية بدراسة المواقع النسبية للطبقات التى تكون القشرة الأرضية » أرقى من « وذلك عند وجودها فى طبقات متتالية من الصخور الرسوبية التى ظلت على أصلها ولم تتعرض للعبث ، وهكذا صار لكل من تعبير أرقى وأدنى فى التطور العضوى معنى موضوعياً وانفصلا عن خضوعهما للدراسات القائلة بأن الإنسان هو الحقيقة المركزية فى الوجود ، وأصبح الإنسان العاقل Homs Sapiens أوفى حيوان ثدئى لا بحكم تحيزه لنفسه فقط ولكن كذلك بوصفه أحدث الأنواع فى الظهور .

وخلال القرن الثامن عشر أيضاً أصبح العلماء على دراية أكبر بالمجتمعات الإنسانية التى تختلف أساساً عن المجتمع الأوربى ، ووجدوا بين المتوحشين تشكيلة غير متوقعة من النظم الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية . وتعرف بعضهم على الأقل على درجات مختلفة من الوحشية . وقارن فيرجوسن (١) فى عام ١٧٦٨ الوحشية بالبربرية أو غير التمدن ، كما قارن الاثنين بالمدينة . وفى الحقيقة لقد حاول اثنوجرافيو القرن الثامن عشر تطبيق النظام — نظام هرمى على غرار نظام الطبيعة ..

---

(١) مقالات عن تاريخ المجتمع المدنى (١٧٦٨) .

على الكمية(١) المتعاظمة من العادات والطقوس والمعتقدات الغريبة التي كان يجري تسجيلها بدقة متزايدة ، وفي عام ١٨٥٠ أقام هربرت سبنسر في كتابه « الأستاتيكا الاجتماعية » مشابهة غير دقيقة بين المجتمع وبين الكائن ، وهي مشابهة توسع فيها بجهد في كتابه « مبادىء علم الاجتماع » . وهو يقيم مفهومه عن التطور فوق العضوي على أساس من هذا التشابه . فكما تنمو الكائنات تنمو المجتمعات ، رغم اختلاف العوامل المحددة للنمو كما يرى بحق . فالمجتمعات الوحشية أو البربرية قد أوقف نموها لذلك فهي تصور المراحل الأولى في نمو المجتمع بمعناه المجرد . ويقطع سبنسر بأن هذا النمو عملية تتم في الزمن . وهو يعترف بالطبع أنه « على الرغم من أن التطور محتوم إذا ما أخذنا في الاعتبار مجموع المجتمعات ، فلا يمكننا أن نعتبر التطور محتوماً أو حتى محتملا في كل مجتمع معين على حده » (المبادىء ص ١٠٧) .

ولكن التطور يمكن وصفه من خلال قوانين عامة تستقرأ — كما يفترض — من ملاحظة أي عملية تاريخية واقعية . ولذلك فهو يعاود اللجوء إلى المجتمعات البدائية المعاصرة لأنها تبين مراحل هذه العملية الزمنية فنقرأ في ص ١٠٣ :

« وعندما تبدأ القوى العقلية الأرقى التي ترثها من أجدادها المتمدينين تعمل عملها وعندما يصل نموها العقلي إلى مرحلة تماثل التي وصلت إليها الأجناس شبه المتمدينة مثل الملايو — البولونيز » .

أو « تبدأ العبودية بلا مقدمات : فأهل بتاجونيا مثلا يتخذون من أسرى الحرب من النساء والأطفال عبيداً . وفيما بعد ، وخاصة عندما يتوقف أكل لحوم البشر ، يبدأ استعباد الأسرى من الرجال » (ص ٤٩١) .

ونحن نجد أن سبنسر من الناحية العملية قد غاص دون تمحيص في حقيبة واسعة من المعلومات الأثنوجرافية المعرضة للقيل والقال . ولم أجد

---

(١) رادكليفا براون — المجلة الأنثروبولوجية الأمريكية (١٩٤٦) .

أنه قد رتب بانتظام المجتمعات التى استشهد بها فى أى تتابع مرحلى . لذلك فلا يجب عليه أن يدعى أن أمثلته معلومات واقعية يمكن أن نستقرىء منها القاعدة التى تمثلها . بل إن القاعدة التى أسس عليها ترتيبه ، إن لم تكن التحيز للديموقراطية البرجوازية ، فهى التشابه المزعوم مع الكائن الحى . وسوف يكون هذا الكائن هو الذى يحدد فى المدى البعيد مرتبة أى مجتمع فى ترتيب سبنسر الهرمى .

ولقد أحس هربرت سبنسر فى الواقع بالحاجة إلى علم الاجتماع المقارن أو الأنثروبولوجيا . فمقارنة المجتمعات سواء تلك التى عرفناها من التاريخ أو تلك التى اكتشفها الرحالة والمبشرون — أنثروبولوجيا المستقبل — يجب أن تكشف عن ترتيب هرمى وبالتالى تمدنا بالمعلومات اللازمة لاستقراء القوانين العامة التى تصف تطور المجتمع بمعناه المجرد . ولكنه لما كان لا يرغب فى إثبات صحة العملية التطورية فقط بل وفى تحديد المجرى الفعلى للتطور الاجتماعى فإن أعماله قد عاقت الأنثروبولوجيا نفسها لسنوات طويلة . وكما قال فورد فى أحد كتاباته الأخيرة(١) « لقد حرف سبنسر انتباه الأنثروبولوجيين وأسر خيال جيلين كاملين بوضعه مسبقاً مراحل مفترضة للتطور . فقد أقام محل الدراسة المقارنة للمجتمعات الواقعية — تلك الدراسة التى كان يناصرها من حيث المبدأ — صياغة ظروف اجتماعية فرضية فى مجتمعات بدائية متخيلة . وهو يعتبر هذه الفروض بداية صحيحة لعمليات التطور ذات الاتجاه الواحد . تلك العمليات التى انبثقت عنها المجتمعات التاريخية الأكثر تعقيداً » .

إلا أن اتجاه البحث الذى لمح إليه سبنسر بشكل كبير ولكن لم يتبعه سار فيه من بعده فى مجالات محدودة السير هنرى مين فى دراساته عن « القانون القديم » ١٩٦١ ومحام آخر هو باشوفن فى مجال نظم القرابة « حق الأم » ١٨٦١ ، وماك لينان فى « مؤسسات الزواج » ١٨٨٦ . وبوخر

(١) خطاب الرئيس فى الاتحاد البريطانى ١٩٤٧ .

فى الاقتصاديات ١٨٩٣ . واستخدم كل هؤلاء أدلة أثنوجرافية لإثبات نظريات عن تطور المؤسسات الاجتماعية . ولكن لم يثبت واحد منهم أو يصغ المبادىء التى يمكن أن نرتب المجتمعات المذكورة موضوعياً على أساسها .

كذلك اتبع أ . ب . تيلور المؤسس الفعلى للمدرسة البريطانية المشهورة فى الأثنوجرافيا نفس الخطة . وقد أعلن فروضه بوضوح كاف فى ١٨٨٩ : تتالى المؤسسات الإنسانية وراء بعضها البعض كطبقات الصخور الرسوبية فى حلقات موحدة من حيث الأساس على نطاق الكرة الأرضية مستقلة عما قد يبدو اختلافات سطحية مقارنة فى الجنس واللغة . وتصيغها جميعاً طبيعة إنسانية واحدة » .

وكان أكثر وضوحاً من سبنسر فصاغ عدة فروض كانت متضمنة فى أهدافه وحددت أساليبه « أن ظروف الحضـارة لدى مختلف المجتمعات الإنسانية هى موضوع للدراسة قوانين الفكر والعمل الإنسانى وذلك إلى الحد الذى يمكن بحثها فيه على أسس ومبادىء عـامة . فمن ناحية يمكن رد الوحدة Uniformity التى تتخلل المدينة بشكل كبير إلى الفعل الموحد لأسباب موحدة ، ومن ناحية أخرى يمكن اعتبـار درجاتها المختلفة كمراحل للنمو أو التطور كل منها نتيجة للتاريخ السابق وعلى وشك أن تقـوم بدورها فى صياغة تاريخ المستقبل » (الحضارة البدائية ١٨٧١) .

وإذا أراد عالم الأثنوجرافيا المقـارن ، شأنه شأن أى عـالم آخر ، أن يكتشف قوانين عـامة فيجب أن يعـزل الظواهر موضوع بحثه ويستخرج التجريدات من التشكيلة المعقدة للمظاهر الخاصة التى تبدو بها . ولذلك « فإنه يبدو من الممكن ومن المرغوب فيه أن نستبعد اعتبارات التنوع الوراثى أو أجناس الإنسان ، وأن نعامل الجنس البشرى باعتباره ذا طبيعة متجانسة رغم وجوده على مستويات مختلفة من الحضارة » (المرجع السابق) . وإذا تجاهلنا

الاختلافات الناتجة عن الوراثة والبيئة أو الأحداث التاريخية فإن ما يتبقى لنا هو مجتمع خاضع لقوانين عامة .

« فى دراسة كل من تكرار حدوث عادات معينة أو أفكار معينة فى مناطق متعددة ومدى تغلغلها فى كل منطقة ، تتكرر أمامنا الأدلة على وجود أسباب منتظمة تسبب ظواهر الحياة الإنسانية وقوانين البقاء والانتشار التى تستقر هذه الظواهر وفقاً لها — عند مراحل معينة من الحضارة — فى أشكال دائمة نموذجية من المجتمع » (المرجع السابق) .

وأدخل ميكور من الناحية التطبيقية تجريداً أبعد . فإن ما يقارنه فى مجرى التتابع ، ليس المجتمعات الإنسانية ككليات وظيفية ، ولكن أوجه نشاط معزولة أو نواح من المجتمعات . إنه لا يقارن الحضارات ولكن مكونات الحضارات أو السمات الحضارية . وهذه العملية — التى لمحنا ظلالها عند سبنسر — تؤدى كما سنرى إلى نظرية «الخطوط والرقع» thread and patches للحضارة . تلك النظرية التى كثيراً ما عاقت عمل التطور بين الإنجليز . غير أن هذه العملية التقطها فى نفس الوقت أقوى معارضيهم ، أصحاب المدرسة الانتشارية .

وفشل تيلور فى نفس الوقت — كما فشل سبنسر قبله — فى أن يحدد مقدماً بشكل موضوعى المواقع التى تحتلها المجتمعات المتعددة التى يقارن بين مؤسساتها أو معتقداتها على سلم درجاته الهرمى .

وفى أمريكا تجنب لويس هنرى مورجان (١) هذه الأخطاء بدرجة ما . فلم يكن موضوع بحثه تطور المؤسسات الفردية منعزلة عن سياقها الاجتماعى ولكن تطور المجتمع ككل . ثانياً حاول عند بداية بحثه أن يحدد نوع الترتيب الذى تنتمى إلى المجتمعات التى سيبرهن على قضاياه . فوضع مقدما

---

(١) المجتمع القديم ١٨٧١ (مورجان) .

إطاراً لتتابع زمنى سماه « الفترات الأثنولوجية » ethmical Peniods وصاغ محكات يمكن بواسطتها معـرفة موقع أى مجتمع نشاهده . فمن بين ثلاث فترات اثنولوجية الوحشية والبربرية والمدنية ، وقسم كلا من الاثنتين الأوليين إلى ثلاث درجات السفلى والوسطى والعليا . وكانت المحكات التى اختارها مورجان فى النهاية محكات تكنولوجية وبالتـالى يمكن مقارنتها بموضوعات دراسة علم الآثار Archeology ففى الأنثروبولوجيا يجب أن تقوم الأركيولوجيا بنفس الدور الذى تقوم به الباليونتولوجيا فى علم الحيوان .

وبالنسبة لبقية دراساته كانت قواعد وفروض مورجان هى نفسها قواعد وفروض معاصريه من الإنجليز رغم أنه عرضها بمزيد من الثقة. فنحن نستطيع أن نستخرج التجريدات من الاختلافات الجنسية والبيئية وغيرها من الأحداث التاريخية :

« لقد سارت خبرة الإنسان فى ظروف موحـدة تقريباً . وكانت الضرورات الإنسانية فى الظروف المتشابهة واحدة فى الأساس ، فكانت نفس العمليات التى تخضع للمبدأ العقلى واحدة بفضل المخ الموجود لدى كافة أجنـاس البشر . فنحن لدينا نفس المخ الذى ثبت بطريق التناسل والذى عمل فى رءوس البرابرة والمتوحشون فى العصور الماضية ... ومن قلة من البذور الفكرية فى العصور الأولى انبثقت كافة المؤسسات الرئيسية للإنسان ، ولقد تفتحت هذه البذور وفقاً لقانون طبيعى هو نفسه صفة طبيعية للعقل ذاته . ونتائجه موحدة ومتماسكة ويمكن تتبعها فى كافة مجاريها (١) » .

ورغم أن مورجان كانت تنقصه الأدلة على المواقع الزمنية « لفتراته الأثنولوجية » وذلك لجهله بعلم الأركيولوجى الوليد ، فقد كان أكثر ثقة من تيلور فى أنها تكشف عن عملية تاريخية أصيلة تحدث خلال الزمن :

« لمـا كان لا يمكن إنكار أن أجزاء من الجسم الإنسانى عاشت فى

---

(١) المجتمع القديم (مورجان) .

ظل الوحشية وأجزاء أخرى فى حالة البربرية ، كما أن أجزاء ثالثة تعيش فى ظل المدنية فيبدو أن هذه الحالات الثلاث المتميزة تتصل بالمثل ببعضها البعض فى تتابع طبيعى وحتمى من التقدم . بل إن الاحتمال الأكبر أن هذا التابع صحيح تاريخياً بالنسبة للعائلة الإنسانية كلها منذ البداية حتى المستوى الذى وصل إليه كل فرع على حده ، وذلك خلال الظروف التى حدث التقدم فى ظلها وما عرفناه عن مرور عدة فروع من العائلة خلال مرحلتين أو أكثر من تلك الحالات(١) » .

ويمكن إعادة تكوين العملية كلها عن طريق المناهج المقارنة .

« إن المؤسسات المنزلية لأجدادنا من البرابرة بل والمتوحشين ما زالت أمثلتها موجودة فى أجزاء من العائلة الإنسانية بالتمام والكمال حتى إنه باستثناء الفترة البدائية الخالصة فإن المراحل المختلفة لهذا التقدم ما زالت محفوظة بدرجة معقولة » .

وقد يظن أن اتخاذ محكات تكنولوجية لتعريف مراحل التطور ولتقدير مرتبة المجتمع على السلم التطورى قد خلصنا من الذاتية التى كانت منفشية فى المدرسة الإنجليزية . فإن ما كان يعنيه سبنسر وتيلور فى الحقيقة عندما يصفان نظاماً اجتماعياً أو معتقداً دينياً بأنه أرقى من آخر إنما هو قربه بدرجة كبيرة مما كان يعتبر فى العقد السابع من القرن التاسع عشر (١٨٧٠) الشكل المثالى للتنظيم السياسى أو العقيدة الدينية — أى فى الحقيقة ديموقراطية ليبرالية محسنة أو مسيحية إنجليكانية خالية من الشوائب . وهذا لا ينطبق بالتأكيد على التكنولوجيا ألا يمكن تحديد القيمة النسبية لعملية أو لآلة موضوعياً ورياضياً كذلك عن طريق الكفاءة التى تؤدى بها وظيفتها ؟ إلا أن هذه الموضوعية زائفة للأسف . لأن وظيفة الأداة أو العملية التكنيكية هى إشباع حاجة إنسانية . والحاجة الإنسانية ليست كما ثابتاً . فلا شك أن

---

(١) المجتمع القديم (مورجان) .

كفاءة سيارة فى إشباع الحاجة إلى النقل فى ظل ظروف معينـة يمكن تحديدها بدقة حسابية ... ولـكن هل حاجة الإنسان إلى النقل كمية ثابتة بأى معنى من المعانى ؟ هل كان صائد حيوان الرنة فى عـام ٣٠٠,٠٠٠ ق.م أو المصرى القديم فى عـام ٣٠٠٠ أو البريتوفى القديم فى عام ٣٠ يحتاج حقيقة أو يرغب فى أن يقطع مائتى ميل بسرعة ٦٠ كيلو متراً فى الساعة ؟ .

لقد تغيرت الحاجة الإنسانية خلال ثلاثين ألفاً من السنين ، تماماً كما تغيرت كفاءة الأدوات اللازمة لإشباعها . فبالنسبة للمجتمـع المجدلانى magdalanian فى آخر عصر جليدى كانت الحربة المصنوعة من قـرون الغزال فى كفاية سفينة الصيد البخارية اليوم. فباستعمال الأولى كان باستطاعة الجماعات الصغيرة أن تحصل على كفايتها من السمك ، بينما كانت شدتها حمولة سفينة صيد بخارية . فالحاجات الإنسانية ليست جامدة ونظـرية فى الإنسان منذ أن خرج من الطور قبل الإنسانى . إذ تطورت — إذا شئنـا استعمال هذه الكلمة — كـكل شىء آخر . ويجب أن نقتفى أثر تطورها بالمناهج المقارنة والتاريخية مثلها فى ذلك مثل بقية أوجه العملية . فلا يمكن استنتاج مدى تفوق السيارة على عربة تجرها البغـال مثلا من مقارنة مدى كفاءة كل منهما فى السير على الطرقات الإنجليزية . ولكن من خلال الحقيقة التاريخيـة أن السيارات تحـل محل العربات حيثما تدفق ظـروف استخدامها . ومن هنـا فإن مرتبة أى اختراع أو عملية تكنيكية على سلم التطور الهرمى لا يمكن استنتاجها من أى قـاعدة عـامة ولـكن يجب استنتاجها من المعلومات الأركيولوجية . والميزة الوحيـدة التى تتميز بها المحكات التـكنولوجية عن السياسة أو الأخلاقية هى اعتراف السجـل الأركيولوجى بها .

ولقد تضخمت الأهمية الحقيقية لمورجان فى تاريخ النظرية الأنثروبولوجية بسبب تبنى كارل ماركس وفردريك انجاز لخطته . ولم يكن هذا صدفة . فقد أعلن ماركس عن مفهومه المادى للتاريخ فى عام ١٨٥٩ (١) وهو نفس العام

(١) مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى — المقدمة . ماركس .

الذى شهر نشر كتــاب « أصل الأنــواع » وتدشين عصر البنيستوسين pleictocme على يد جون إيفانز وفالكونر ، وبرستويتش . ويؤكد المفهوم المادى للتاريخ أن تكوين المجتمع كله إنما يحدده فى المدى البعيد « أساليب الإنتاج » التى تعتمد بدورها على « وسائل الإنتاج » ، أى القوى التكنيكية الموضوعة فى خدمة المجتمع لإشباع الحاجات المعترف بها اجتماعياً . ولقد وصل ماركس إلى هــذه النتيجة من المعلومات التى أمدته بهــا دراسة المجتمعات المتمدينة — الكلاسيكية والوسطى والحديثة— وعندما أراد أن يطبقها على المجتمعات الأمية الأكثر بساطة كانت تعوزه الخبرة الذاتية فى مجال الأثنوجرافيا فكان من الطبيعى أن يلجأ إلى مورجان .

وكان مورجان قد جمع معلومات من النــوع الملائم بالضبط لشرح التفسير المادى للتاريخ . فكانت المحكات التى استخدمها للتمييز بين الوحشية وبين البربرية وبين المدنية وإن لم تكن بالدقة « قوى الإنتاج » ولم تكن كذلك « أساليب الإنتاج » إلا أنها كانت على الأقل أقرب ما تكون لها من المحكات التى تستخدمها أى مدرسة أخرى فى ذلك الوقت . وفى النهــاية نجح انجلز بمهارة(١) فى الربط بين الانتقال من مرتبة إلى أخرى فى جدول مورجان وبين التغييرات التى تطرأ على قوى الإنتاج الموضوعة فى خدمة المجتمع . وبالطبع اضطر انجلز عملياً إلى تعديل جدول مورجان لا ليوائم نظريات جاهزة وإنما فى ضوء معرفته الخاصة والأعمق بنتائج أبحــاث أركيولوجيا ما قبل التاريخ فى أوربا .

ومنذ ذلك الحين صار من الضرورى إحداث تغييرات جوهرية نظراً للتقدم السريع الذى أحرزته الأركيولوجيا وكذلك لتجمع معلومات أوفر وأكثر دقة عن المجتمعات الوحشية والبربرية الموجودة — وفى الواقع لم يكن لدى مورجان سوى النزر اليسير من المعلومات الموثوق بهــا . وقد عمل هو نفسه بين قبائل الايروكوا iroquois واكتشف ما أسماه geulile organization

(١) فردريك انجلز أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (١٨٨٤) .

(وهو ما يسمى عـادة اليوم النظـام القبلى أو العشائرى (clansy stem) وكذلك النظـام التصنيفى لتسميات القرابة . وحصل من المبشر فيسون Fison على معلومات قيمة عن التنظيم الاجتماعى لدى سكان استراليا الأصليين (عن طريق الاستخبارات التى توزعها على نطاق واسع) (كذلك جمع معلومات مقارنة عن القبائل التى تعيش فى أمريكا وأفريقيـا والباسيفيكى) أما بالنسبة للباقى فقد اعتمد مثـل مين Main على المصادر الكلاسيكية والكتاب المقدس .

ولقد وجهت المعلومات الجديدة التى حصلنا عليهـا من الدراسات الميدانية الحديثة التى قـام بها باحثون مدربون مستخدمين أساليب أرقى من الملاحظة ، وجهت ضربة قاضية لمحتوى جدول مورجان . بل إن ما ذكره عن التنظيمات الاقتصادية والسياسية للايروكوا قد يحتاج إلى بعض المراجعة — ولذلك فلا فائدة اليوم من تلخيص ما قاله مورجان (أو انجاز) عن المراحل المتعددة لنظم الاقتصاد أو السياسة أو القرابة إذ لا يمكن الدفاع عن تفاصيلها إلا أنها مع ذلك لا تزال أفضل محاولة من نوعها . وفى سياق هذا الكتاب سأستخدم تعبيرات مورجان كأساس مؤقت للتقسيم رغم أننى سأقدم بالطبع محكات جديدة .

ورغم ذلك فلم تشهد الخمسون عاماً الأخيرة نمو ونقاء النظرية التطورية فى الأنثروبولوجيا فحسب ، وإنما شهدت كذلك ازدياد النقد اللاذع للموقف كله . وكان بعض هذا النقد بناء بقدر ما هدم .

ويجب أن نذكر أن كلمة تطور فى الأنثروبولوجيا كما فى علم الحيوان كانت نداء للهجوم على العقائد المسبقة التى باركتها القدرة العلوية . فإذا ما اعتبرت الأنواع غير قابلة للتغير فإن كلا منها يكون قد تم خلقه بتدخل خاص من العناية الإلهية ، وينتهى الأمر بالتاريخ الطبيعى إلى ما ذكر فى

الفصل الأول من سفر التكوين . وكانت هذه هى العقيدة التى حطمها داروين . وكانت العقيدة المقابلة فى الأنثروبولوجيا قائمة على أساس قصة « سقوط الإنسان » . والمقابل العلمى للسقوط هو التدهور أو الانحطاط . وكان على تيلور أن يخصص الصفحات الطوال ليثبت أن معظم المتوحشين الذين يصفهم لم يكونوا جماعات متدهورة انحدرت عن مرحلة حضارية مفترضة أرقى ، بل هى جماعات تتطور ولكن تطورها توقف أو عاقه عائق . وهو بالطبع يعترف بالتدهور فى بعض الحالات ، إلا أنها حالات شاذة خارجة عن القاعدة .

أما فى القرن العشرين فقد أحييت عقائد الخلق والسقوط تحت ستار الانتشارية ، وإننى متأكد أن إليوت سميث مؤسس المدرسة الانتشارية الإنجليزية لم تكن لديه أية نية لإحياء العقائد اللاهوتية فى مجادلاته ضد تيلور ومفهومه عن التطور . إلا أن هذا هو ما أدت إليه الانتشارية فى الواقع . والانتشارية فى أرقى أشكالها تبدأ من تأكيد نيبور (١) بأنه « لا يمكن إيراد مثل واحد عن قوم متوحشين وصلوا إلى المدنية وحدهم » ويأتى اللورد راجلان (٢) بحجج تثبت أن « المتوحشين لم يخترعوا أو يكتشفوا شيئاً قط » . لقد قدم الانتشاريون المتوحشون على أنهم عديمو المبادرة ليست لديهم الرغبة أو المقدرة على اختراع أداة أو أسطورة أو مؤسسة . وإن كافة الاختراعات الرئيسية قد صنعت مرة واحدة على يد قوم مختارين . ومنهم انتشرت إلى ظلام الوحشية المحيط بهم . أما مختلف درجات البربرية فتعود إلى الإشعاعات الصادرة عن البؤرة الواحدة للمدنية . وهى إشعاعات نفذت بدرجات متفاوتة لكنها كانت دائماً تتدهور خلال هذه العملية . ولما كان أى شعب لا يستطيع أن يمدن نفسه . فلا بد أن تكون المدنية معجزة نتيجة عن تدخل علوى .

---

(١) برتولد جورج نيبور مؤرخ ألمانى (١٧٧٦–١٨٣١) مؤلف كتاب «التاريخ الرومانى» ج ١ ص ٧٧ .

(٢) كيف ظهرت المدنية (١٩٣٩) .

ولقد اعتقد إليوت سميث طبعاً أنه قدم الدليل على هذه المعجزة . فإن التقاء فريداً بين الظروف مكن قدماء المصريين أن يخترقوا حلقة الوحشية ، وأن يخلقوا المدنية ويبدءوا نشرها . إلا أن الاكتشافات الأركيولوجية التالية قد بينت أن هذه الحجة العقلية نفسها أسطورة . فالتعدين مثلا قديم فى آسيا العليا قدمه فى وادى النيل . وإذا كان قد انتشر فالأرجح أن المصريين نقلوه عن الآسيويين وليس العكس فقد كانت لديهم الفرصة لاكتشاف السر . ولكن الدلائل التى بأيدينا تشير إلى أنهم لم يفعلوا ذلك والأمر كذلك مع بقية مكونات المدنية المصرية وعلاقتها بالسومرية . وباستبعاد النيلية لم يكن أمام الانتشاريين كاللورد راجلان إلا افتراض مركز ما لا يمكنهم إثباته بالأدلة الوضعية ، فكان عليهم أن ينتقلوا إلى « أرض مجهولة » أركيولوجيا . ولكن لما كانت لا توجد مناطق ممكنة لم تستكشف أبداً ، ولما كانت كل المناطق المكتشفة لا تنطبق عليها الشروط ، فإن مهد المدنية الفريد يوغل فى السماوات العلى .

وبينما كانت التطورية احتجاجاً ضد أى إحياء للأساطير من هذا النوع كان الصراع بين « التطور » و « الانتشار » أمراً وهمياً تماماً « فالانتشار حقيقة . وانتقال المواد من أرض إلى أخرى يتضح أركيولوجيا ابتداء من العصر الحجرى القديم فصاعداً . وإذا كانت الموضوعات المادية تنتشر ، فلابد أن الأفكار والأساطير والرسومات الفنية والمؤسسات تنتشر كذلك ولم ينكر التطوريون هذا أبداً . لأن التطور لا يأخذ على عاتقه أن يصف ميكانيزم التغير الاجتماعى ، فهو ليس تفسيراً لماذا تتغير الحضارات — فإن هذا موضوع علم التاريخ — بل هو تفسير لكيف يتم التغير . وعندما أراد مورجان تفسير كيف تم التغير فى حالات محددة أعطى التطور حقه .

ولقد وجه الوظيفيون ، الذين يمثلون رد الفعل ضد التناقض الزائف بين مناهج التطور والانتشار معاً — نقداً بناء ضد الاثنين . فقد سبق أن لاحظنا لدى تيلور ميلا إلى اعتبار الحضارة تجميعاً ميكانيكياً « لسمات »

يمكن بنجاح عزلها ومقارنتها بسمات منتقاة من حضارة أخرى . وذهب الانتشاريون الإنجليز إلى أبعد من ذلك فتكلموا كما لو كانوا يعتبرون أن المرتبة التي وصلت إليها الحضارة تقاس بعدد السمات التي يمكن التعرف عليها فيها — وعلى أي حال فقد كان « فقدان » السمات الحضارية يعتبر علامة على التدهور أو الانحطاط . وهذه هي نظرية « الخيوط والرقع » الحضارية التي سفهها الوظيفيون عن حق . فالحضارة كل عضوى وليست تجمعاً ميكانيكياً لسمات . فلا تستطيع أن تعزل مكوناً فى أستراليا أو آسيا العليا وتسميه « الطوطمية » أو « العربة ذات العجلات » ثم تقارن هذا التجريد بشيء يشبهه شكلا فى كندا أو مصر وبالتالى تستنتج أصله وتقدر مكانة الحضارة التى ينتمى إليها . إذ يجب أولا أن ترى كيف يعدل هذا المكون ونكتشف مكانه فى حياة مجتمعة . وعندئذ فقط سيساعدك ذلك على تقييم مقارن المجتمعين . فمثلا فى وادى النيل الضيق فى مصر حيث الأرض المأهولة نادراً ما تتعدى ميلين بعيداً عن الطريق الذى يشقه مجرى النهر العظيم لن تكون العربة ذات العجلات ذات نفع كما هى فى مراعى شمال سوريا التى تفتقر إلى الطرق النهرية الطبيعية . وحقيقة أن العربة ذات العجلات استخدمت فى سوريا قبل استخدامها فى مصر بألف وخمسمائة عام لا يعنى أن مصر كانت أكثر تخلفاً من سوريا .

ويشير الوظيفيون كذلك بحق إلى أن كافة مدارس الأثنوجرافيا المقارنه قد رتبت المجتمعات التى تقارنها فى سلسلة هرمية على أساس من قواعد تحكمية تماماً ، فلم يبن هذا الترتيب على الملاحظة ولكن على التحيز ولذلك كان بيدنجتون محقاً عندما قال عن التطوريين :

« إن الزيف الأساسى يكمن فى الانتقال الذى لا يبرره سبب من جدول جغرافى — منطقى يمكن ملاحظته إلى جدول زمنى افتراضى . وهذا يعنى انتقاء سلسلة من العادات أو الأشكال الاجتماعية من مختلف المجتمعات

المعاصرة يجوز عقلا أن تكون تات بعضها البعض داخل جماعة بمفردها أو على نطاق التاريخ الإنسانى كله . فأى مجتمع إنسانى ليس « أدنى » أو « أسبق » أو « أقدم » من أى مجتمع آخر . فكلها تمثل تكيفات إنسانية على درجة عالية من التخصص نتيجة لآلاف السنين من الحياة الحضارية التقليدية (١) .

وتقدم لنا الأركيولوجيا مخرجاً من الورطة التى قررها بيدنجتون . فالسلسلة التطورية للكائنات التى وضعها لامارك انقلبت إلى سلسلة تاريخية على يد الباليتولوجيا . إذ كشف سجل الصخور الرسوبية الترتيب الزمنى الذى ظهرت فيه فعلا الفصائل والرتب والأجناس المعينة . فهل يمكن للأركيولوجيا أن تسدى نفس اليد إلى التطوريين فى الأنثروبولوجيا . فحضارات ما قبل المؤرخين تمثل ولو بدرجة ناقصة مجتمعات . وهذه الحضارات لم يعد ينظر إليها كتجمعات لا حياة فيها من نماذج ارتبطت ببعضها البعض عرضاً . فالحضارة هى ذلك التعبير المادى الثابت عن التكيف لبيئة ما سواء كانت إنسانية أم فسيولوجية — جغرافية ذلك التكيف الذى مكن لمجتمع من أن يعيش وينمو . وبناء على وجهة النظر هذه فإن المبانى والأدوات والأسلحة وأدوات الزينة وغيرها من المكونات ترتبط فيما بينها كعناصر فى كل وظيفى .

ويكشف السجل الأركيولوجى تتابعاً لمثل هذه الحضارات قائماً على أساس من دراسة المواقع النسبية للطبقات المكونة للقشرة الأرضية فى عدة مناطق . وبتعبير آخر يكشف عن الترتيب الزمنى الذى ظهرت فيه المجتمعات . فإلى أى حد يمدنا هذا الجدول المبنى على الملاحظة بأساس لجدول « منطقى » ؟ فلنقارن حضارات متعاصرة — أى حضارات تحتل نفس المواقع النسبية داخل الطبقات العضوية للصخور الموجودة لدينا — لنتأكد مما إذا كان الاتفاق بينها يمكن تعميمه كمراحل للتطور الحضارى وتطور المجتمع عموماً .

(١) مراجعته لمقال لاندمان « أصل اللامساواة بين الطبقات الاجتماعية » فى مجلة « الإنسان » ١٩٤٠ .

الفصل الثانى

تصنيف المجتمعات فى علم الآثار

يستطيع علم الآثار أن يقيم تتابع الحضارات فى مختلف المناطق الطبيعية وتمثل هذه الحضارات مجتمعات أو مراحل فى تطور المجتمعات . فيمكن لهذه التتابعات الأثرية إذن أن تكشف عن الترتيب الزمنى الذى بزغت فيه تاريخياً أنواع المجتمعات . ولكن لكى تتحقق هذه الإمكانية ، يجب أن تصنف هذه الحضارات المتعددة أو المجتمعات — وكل منها منفرد ومتمايز مادياً — على أساس بعض المبادىء العامة والمجردة . ولقد لجأ مؤرخو ما قبل التاريخ فى الحقيقة إلى تطبيق مثل هذا التصنيف العام فى حضارات العالم القديم ناسبيها إلى العصر (أو المرحلة) الحجرى والبرونزى والحديدى على التوالى . فإلى أى مدى يصلح هذا التصنيف الأثرى الشائع لعرضنا الحالى ؟ — أى لاقتفاء أثر تطور التكوينات الاجتماعية ؟

لقد اخترع التصنيف إلى ثلاثة عصور (١) فى الأصل للأشياء والبقايا والآثار ليبين أيها ينتمى إلى الآخر . وتعود اصطلاحات العصر الحجرى والبرونزى والحديدى إلى دانمركى يدعى تومزن ، استعملها فى حوالى ١٨١٢ لترتيب وتصنيف المعروضات فى المتحف الذى أقيم عندئذ فى كوبنهاجن لآثار الشمال . إذ قرر أن يجمع بين الأشياء التى صنعت واستعملت فى فترة زمنية واحدة . ولم يكن فى مقدوره الحصول على سجلات مكتوبة تبين متى صنع واستعمل سكان الدانمرك الأميون هذه الأشياء التى ستصنف وتعرض . ولكن تومزن كان يعلم أن البرونز استخدم فى صناعة الآلات الحادة والأسلحة قبل الحديد ، وأن الحجر قد استخدم قبل البرونز . ولذلك فقد

(١) ج . أ. دانييل « العصور الثلاثة » كامبريدج ١٩٤٢ .

صنف كافة الأشياء التى كانت تستعمل عادة قبل استخدام البرونز فى الفئة الأولى وأطلق عليه « العصر الحجرى » كما صنف كافة الأشياء التى وجدت فى المقابر أو مع السيوف والرماح والفئوس البرونزية مهما كانت المادة التى صنعت منها فى الفئة الثانية التى أطلق عليها « العصر البرونزى » .. وهكذا .

ولجأت البلاد الأوربية الأخرى إلى هذا التصنيف ، فقد وجد فى بريطانيا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا وألمانيا أن الحجر استخدم فى صناعة الأدوات والأسلحة قبل البرونز ، والبرونز قبل الحديد . ولم تحل سنة ١٨٥٩ الحاسمة إلا وقد تم الاعتراف بتصنيف آثار ما قبل التاريخ الأوربية إلى هذه العصور الثلاثة . ولكن ظهر فى ذلك العام أن حجم القسم الأول كان صعب المعالجة . فقد كان يشمل الأدوات الفجة التى وجدت بين حصى مجارى الأنهار القديمة فى عصر البليستوسين إلى جانب الأسلحة والأدوات الأكثر تنوعاً ورقياً لدى سكان بحيرات سويسرا وقبور **megatitlie** الدانمارك الميجاليثية . لذلك كان لابد من تقسيم العصر الحجرى ، واقترح لبوك **Lubbock** مبدأ للتقسيم نال القبول فيما بعد . فأطلق كلمة باليوليثيك **Palaeolithic** أو العصرى الحجرى القديم على كافة الأدوات التى وجدت مرتبطة ببقايا الحيوانات المتوحشة المنقرضة والتى سنت أطرافها بطريق الكشط وليس التجليخ أو الحك . كما أطلق كلمة نيوليثيك **Neolithic** أو العصرى الحجرى الجديد على الأدوات التى كانت توجد فقط بصحبة عظام الحيوانات الحديثة — بما فيها الأصناف المستأنسة — والتى سنت أطرافها أحيانا بطريق التجليخ والتلميع .

ويلاحظ أن تقسيم توفرن كان تكنولوجيا فى الأساس — أى على أساس المواد المستخدمة فى عمل الأدوات الحادة الرئيسية . ولكن لبوك رفض هذا التبسيط وأدخل المحكات الزمنية والاقتصادية بالإضافة إلى التكنولوجية . وكان يظن أن هذه المحكات الثلاثة متطابقة . ولكنها لم تكن كذلك فى الحقيقة . فطابق أولا بين العصر الحجرى القديم وبين البليستوسين

وهو حقبة زمن جيولوجية . وثانياً اعتبره مرحلة اقتصادية . يعيش فيها الناس عن طريق صيد الحيوانات والأسماك وجمع الثمار وذلك قبل زراعة النباتات وتربية الحيوانات من أجل الطعام . وثالثاً ميز العصر الحجرى الحديث عن العصر الحجرى القديم باستخدام التجليخ والتلميع بدلا من الكشط فى سن الفئوس الحجرية والآلات الحادة Adzes وما إن حل عام ١٨٩٩ حتى بينت الملاحظات (الستراتيجرافية) المتعلقة بطبقات القشرة الأرضية أن هذه المحكات غير متطابقة ، وأدى هذا الاختلاف — بعد عام ١٩٢٠ — إلى مزيد من تقسيم العصر الحجرى . ففى عام ١٩٠٠ كانت قد اكتشفت حضارات تنتمى إلى العصر الجيولوجى الحديث ، لكنها لم تكن تستأنس الحيوانات بعد أو تعرف الزراعة أو تجليخ الأدوات . ولكى توضع فى مكانها الصحيح اصطنع لها اسم (الميزوليتياك) العصر الحجرى الوسيط Mesolihie (١) .

ولكن هذا التجديد كان أمراً مؤسفاً إذ أنه أقر وعمم تعميماً جامداً نوعاً من الخلط غريباً على عقول واضعى نظام العصور الثلاثة . فقد كان على تومزن أن يرتب مواد ما قبل التاريخ المنتمية لمنطقة صغيرة متجانسة ، ففى الدانمارك كان الحجر والبرونز والحديد تمثل عصوراً حقيقية — حقباً زمنية تتابعت بهذا الشكل ، ولم يكن يترتب على اكتشاف نفس التتابع فى غيرها من أنحاء أوربا وأحياناً فى مصر وآسيا Hither أن تكون هذه « العصور » وجدت فى كل مكان فى نفس الوقت . وغالباً لم يترقع تومزن هذا الاحتمال . فقد أنكر خلفاؤه . مثل مورس Morsaae بوضوح ذلك ، إذ بدأ العصر البرونزى فى مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط قبل مثيله فى الشمال بكثير .

---

(١) وقد استخدم توريل هذا الاصطلاح فى المؤتمر الدولى للانثروبولوجيا وآثار ما قبل التاريخ الذى عقد فى ستوكهلم ١٨٧٤ ولكنها لم تستقر إلا بعد عام ١٩٢١ .

ولكن تقسيم لبوك للعصر الحجرى يطابق بين نصفه وبين حقبة جيولوجية هى البليستوسين إلا أن الحقب الجيولوجية تنطبق على الكرة الأرضية كلها . فالبروتيروزويات Proterozoic والكامبرى Cambrian ، والإيوسين Eocene والبليستوسين Pleistocene هى حقب فى تاريخ الأرض ككل — أى فترات زمنية مطلقة . وليس هذا هو الحال مع « العصور الاركيولوجية المتأخرة ، » فقد كانت قبائل الماورى فى نيوزيلاند لا تزال فى العصر الحجرى عندما وصل إليها الكابتن كوك فى القرن الثامن عشر الميلادى . كما انتهى العصر الحجرى فى مصر قبل سنة ٣٠٠٠ ق.م. ففى الحقيقة لا يوجد شىء اسمه « العصر الحجرى » ، كان هناك عصر حجرى فى انجلترا وفى فلسطين وفى نيوزيلانده ومازال يوجد فى غينيا الجديدة ، ولكنها تختلف جميعاً من الناحية الزمنية ، أى باعتبارها فترات زمنية مطلقة . ومن الناحية الأخرى فإن هذه العصور المختلفة فى مختلف الأمكنة — إذا استعملنا اللفظ الذى صاغه ت . هـ هكسلى — تحتل دائماً نفس الموقع النسبى فى السلسلة حيثما استطعنا الحصول على الترتيب الكامل للتتابع . (ففى نيوزيلندا مثلا لا يوجد تتابع كامل إذ لا يظهر العصر البرونزى على الإطلاق) .

وقد ظل هذا الخلط بين التوقيت النسبى والمطلق مصدراً لا ينفذ للأخطاء فى دراسة ما قبل التاريخ . وربما كان من الممكن تجنبه لو حلت كلمة « مراحل » محل كلمة « عصور » . ولكننا قد نستخدم كلمة عصور —واضعين فى الاعتبار نسبية هذه العصور —كإطار مريح —ولكنه موقت لعرضنا التالى . كما سنضيف أيضاً تحفظاً آخر .

فقد صنف تومزن الأشياء التى وجدت معاً ، أو بلفظ أكثر تكنيكية مرتبطة فى فئة واحدة . وكانت هذه الأشياء مرتبطة لأنها كانت تستخدم فى نفس الوقت . ولكى ترتبط المكتشفات الأثرية بشكل منظم فمن الضرورى أن تستخدم فى نفس الوقت وبواسطة نفس الأشخاص كذلك .

ولكنه حتى فى رقعة صغيرة كالدانمرك اكتشف علماء الآثار المحليين حوالى عـام ١٨٩٨ أنه كانت تستخدم مجموعتان متميزتان من الأسلحة وأدوات الزينة فى العصر الحجرى الحديث بل وفى نفس الفترة من ذلك العصر . فقد وجد نوع معين من الأوانى والفئوس ورءوس السهام وأدوات الزينة دائماً فى القبور الميجاليثية Megalithic التى تحتوى على هياكل لعدة أفراد مدفونين فى حفرة عائلية واحدة . بينما وجدت زهريات وفئوس وأدوات للزينة من نوع مختلف تماماً فى قبور فردية تحتوى كل منها على جثة واحدة ومغطاة بقبو من الطين . وكانت هذه الفروق التحكمية فى أسلوب الدفن وفى أشكال وزخرفة الأوانى والأسلحة وأدوات الزينـة لا ترجـع إلى اختلاف الزمن أو المواد المتاحة . فلا بد أنها ترجع إلى اختلاف التقاليد الاجتماعية لشعوب مختلفة . وتكرار تجمعات هذه الأشياء من الأنواع التى سبق وصفها هى ما يطلق عليه علماء الآثار لفظة « حضارات » .

ويقر دارسو ما قبـل التاريخ الآن أن أول ما يجب عليهم عمله هو تصنيف بقاياهم وآثارهم إلى حضارات وبعد ذلك فقط يصنفون تلك الحضارات . ولكن الحضارات تمثل مجتمعات ، إذ ترجع كل سماتها المميزة للتقاليد الاجتماعية . وبتصنيف الحضارات فى إحدى عصور تومزن فهم يصنفون مجتمعات . ولذلك فإن مخطط تومزن يسمح لنـا بترتيب المجتمعات فى تتابع زمنى أو عدة تتابعات .

ولكن إذا ما أردنا مقارنة الحضارات فى مختلف التتابعات فإن التصنيف إلى عصور يصبح عديم الفائدة . ونكرر ما سبق أن قلناه : إن لافتة « العصر البرونزى » ليست لهـا دلالة زمنية مطلقة ، إذ لا تساعدنا أبداً إذا أردنا مقارنة الحضارة المصرية بحضارة معاصرة لها فى انجلترا . ولكن هل يمدنا هذا اللفظ بأى مفتـاح لفهم التطور التكنيكى أو الاقتصادى أو حتى السياسى للمجتمع الذى يندرج تحته ؟ . لقد أنفقت عشرين عـاماً محاولا إعطاء « العصور » التقليدية مثل هـذه القيمة وأن أجعـل هذه المراحل

الأثرية تتفق وما استقر علماء الاجتماع والسلالات المقارنة على تسميته بالمراحل الأساسية للتطور الحضارى . ففى عام ١٩٢٥(١) تبينت فكرة قدمها إليوت سميث قبل عشر سنوات ، واخترت من المحكات الثلاثة الشائعة (تجايخ الأحجار وتلميعها ، وحيوانات الحقبة الجيولوجية الحديثة ، والحيوانات المستأنسة والنباتات المزروعة) ، اخترت إنتاج الغذاء بوصفه ما يميز العصر الحجرى الجديد عن القديم والأوسط . فمن الواضح أن زراعة النبات الصالح للطعام وتربية الحيوانات من أجل لحومها أو الجمع بين الاثنين فى الزراعة المختلطة يمثل فعلا خطوة ثورية فى الاقتصاد الإنسانى . إذ سمح بالازدياد الكبير فى عدد السكان وجعل من الممكن بل من الضرورى إنتاج فائض اجتماعى . ووضع على الأقل بذور رأس المال . ولما كانت النباتات والحيوانات يمكن اعتبارها ميكانيزمات بيولوجية ، فإن الإنسان عندما مارس الزراعة وتربية الحيوانات كان لأول مرة يسيطر على مصادر للطاقة ويستخدمها بالإضافة إلى ما يمده به جسمه .

وإذا كانت مراحل التطور الاقتصادى والاجتماعى ستحدد على أسس تكنولوجية فمن المؤكد أن إنتاج الغذاء يمثل بداية مرحلة رئيسية . ولذلك فإنى أقترح استخدامه لتحديد الانتقال من الوحشية إلى البربرية ، وبذلك يسمح بالتقاء البربرية والعصر الحجرى الحديث . إلا أن هناك كلاماً يمكن أن يقال فى صف الاحتفاظ بالمحك الذى وضعه مورجان وهو — صناعة الأوانى الخزفية . فطبقاً للأدلة الأثرية يتضح أن صناعة الأوانى الخزفية لم تكن معروفة لدى صائدى الأسماك والحيوانات وجامعى الثمار فى العصر الحجرى القديم ، وأنها اخترعت على أحسن الفروض فى مرحلة متأخرة من العصر الحجرى الأوسط . ومن الناحية الأخرى فمن المؤكد أن بعض جامعى الغذاء قد صنعوا آنية ، وفى بعض المناطق يحتمل أنها صنعت قبل أن يظهر فى تلك المناطق مزارعو العصر الحجرى الحديث . والآن فإن صناعة

---

(١) « فجر المدنية الأوربية »

الأوانى لا تخدم إلا مجتمعاً قد وصلت حياته إلى درجة من الاستقرار النسبى ، وإلى درجة من الثبات قد تفوق ما وصلت إليه بعض أنواع المزارعين ، فهى تنبىء عن رغبة ومقدرة على خزن الغذاء . وقد أشار تشايلد وكون (١) إلى أن صيادى الأسماك والحيوانات الذين ابتكروا أساليب ملائمة لحفظ الغذاء قد يكونون أحسن حالا وأهدأ بالا وفى وضع يمكنهم من تجميع فائض اجتماعى ومدخرات من منتجى الغذاء الذين تنقصهم تلك الأساليب .

ولكن إذا اعترفنا بأن إنتاج الغذاء يشكل تفرقة علمية سهلة الاستخدام بين الوحشية والبربرية وأن مرحلة العصر الحجرى الحديث التى وضعها علماء الآثار تقع دائماً داخل حدود حالة البربرية التى وضعها علماء الاثنوجرافيا ، فهل يلتقى العصر الحجرى الحديث التقاء تاماً مع البربرية ؟ وبتعبير آخر هل يلتقى العصر الاركيولوجى التالى مع أعلى مراحل التطور الاثنوجرافى المسمى بالمدنية ؟

وقد اتخذ مورجان الكتابة محكاً تكنولوجياً لآخر وأرقى « مراحله الأثنوجرافية » . وأنا أرى أنه محك مفيد جداً . وقد يبدو شاذاً أن تعتبر الكتابة ضمن التكنولوجيا . ولكنها — فى نهاية الأمر — أداة ، أداة عقلية إذا أردت . وكانت الأداة الضرورية للعلوم المضبوطة التى أدت تطبيقاتها إلى ثورة فى التكنولوجيا . وأدى استخدامها إلى ظهور التقويمات الفلكية . والحساب التنبوءى والهندسة . وهى أدوات استخدمتها بوضوح أولى الجماعات المتمدينة فى العالم القديم والجديد — استخدمها المصريون والسومريون والمايا . وفى نفس الوقت كشفت دراسة هذه المجتمعات المتعلمة الأولى أن الكتابة مقياس مريح وواضح لتغير ثورى كبير فى مدى حجم الجماعة واقتصادها وتنظيمها الاجتماعى (٢) .

---

(١) مبادئ الأنثروبولوجيا .

(٢) الإنسان يصنع نفسه (تشايلد) .

ويبدو أن اختراع الكتابة يلتقى مع نقطة حرجة فى التوسع المتقدم لوحدة السكن وفى تجمع فائض إنتاج اجتماعى . وهذه النقطة الحرجة يجب تحديدها عددياً ، ولكن عندما كتبت هذا الكتاب لم تكن عمليات الحفر قد كشفت بعد عن المعلومات التى تسمح بأى تقدير دقيق لعدد سكان المدينة المصرية أو السومرية أو لدى المايا . ومع ذلك فمن الممكن أن نلاحظ بمقارنة مساحة أى مدينة سومرية بأى قرية من قرى العصر الحجرى الحديث ، أو بمقارنة عدد القبور فى أى مدفن يرجع إلى العصور التاريخية الأولى على شاطىء النيل بعدد القبور التى تنتمى إلى الجماعات الأمية السابقة ، أن تجمعات السكان التى تسمى بالمدن تمثل نوعاً جديداً من الضخامة . كما أن سمات السكان كانت شيئاً جديداً كذلك . فكانت تشمل فى كافة الحالات — حتى فى وسط أمريكا — عدداً لا بأس به نسبياً من المتخصصين المتفرغين طيلة الوقت — أى من الأشخاص الذين لم يكونوا يجمعون أو يصطادون أو يزرعون بأنفسهم طعامهم بل يعيشون على فائض الإنتاج الزائد على الحاجات المنزلية للمزارعين والصيادين الذين أصبحوا بدورهم متخصصين . وفضلا عن ذلك فإن المجموعة الأولى من المتخصصين لم تشمل الحرفيين والصناع المهرة فقط ولكن الحكام والموظفين والكهنة والكتبة ، كما أن تموين السكان لم يكن يعتمد فقط على المنتجات المحلية التى تجمع من المساحة الكبيرة المحيطة بالمدينة ، بل على المواد التى تجلب من أماكن بعيدة بطريق التجارة المنظمة .

وقد حاولت فى عام ١٩٣٠ (١) أن أعيد لعصر البرونز الذى وضعه علماء الآثار مكانته كمرحلة رئيسية فى التطور الاقتصادى والتكنيكى المجرد . فهو أولا — قد — يؤذن ببداية التخصص فى العمل — أو ما سماه إنجلز بدقة أكبر « انفصال الحرف اليدوية عن الزراعة » — فربما يوجد أو وجد نوع من التخصص فى مجتمعات العصر الحجرى الحديث . ولا شك أن

(١) عصر البرونز تشايلد .

مستخرجي الصوان في انجلترا وبلجيكا فيما قبل التاريخ كانوا متخصصين . وفي الأثنوجرافيا نصادف الصناع المتخصصين للأواني أو الأكياس المصنوعة من أشجار البيتل في مجتمعات الباسفيك التي تنتمي إلى العصر الحجري الحديث أساساً . ولكننا لا نجد أنفسنا في كلتا الحالتين أمام متخصصين متفرغين كل الوقت . فصناع الأواني في جزر الامفليت وصناع الأكياس في جزر التروبرياند (١) يصطادون الأسماك ويفلحون حدائقهم كذلك . ويمارسون حرفتهم في وقت الفراغ المتبقي عن عملهم الرئيسي وهو الحصول على طعامهم . كما أن الاحتمال الأكبر أن مستخرجي الصوان الأوربيين كانوا يجمعون كذلك بين التعدين والزراعة والرعي . ويعتبر هؤلاء متخصصون بعض الوقت . ولكن وفقاً للأدلة الأثنوجرافية فإن المشتغلين بصناعة المعادن هم عادة من المتخصصين المتفرغين . فهم لا يزرعون ولا يصطادون طعامهم بل يحصلون عليه في مقابل منتجات حرفتهم . وتدل الشواهد الأثرية أن هذا ينطبق على معدني البرونز فيما قبل التاريخ . فهم أول متخصصين متفرغين يثبت وجودهم في التاريخ الإنساني .

وثانياً ، أن الاستخدام المنظم للنحاس أو البرونز لم يكن ممكناً إلا بقيام التجارة المنظمة . فإن التجارة بمعنى انتقال السلع من مجموعة لأخرى شيء ثبت وجوده في العصر الحجري وحتى في العصر الحجري القديم . ولكن الأشياء موضوع تجارة العصر الحجري كانت دائماً من الكماليات — إن لم تكن مجرد قواقع أو ما يشبهها من أدوات الزينة أو على الأقل أشياء يمكن للرجال بسهولة أن يعيشوا بدونها . وكان مجتمع العصر الحجري — من ناحية المقدرة على الأقل — متكيفاً بذاته . وقد ضحى المجتمع بهذه الكفاية الذاتية إلى الدرجة التي اعتمد بها على النحاس أو البرونز في الأسلحة والأدوات ، واضطر إلى الاعتماد على التجارة من أجل ضرورياته .

وثالثاً : أن المعدن قد زاد فعلا من سيطرة الإنسان على البيئة الخارجية

---

(١) حدائق الكورال وسحر التاهير ، مالينوفسكي ١٩٣٧ .

خصوصاً عندما أمده بأدوات لا يمكن صنعها من الخشب أو العظم أو الحجر . والمنشار هو أحد هذه الأدوات ، ومن الواضح لزومه لصناعة العجلات . لذلك نرى العربة ذات العجلات وعجلة الخزاف تظهر لأول مرة فى مجتمعات عصر البرونز . وهكذا فإن استخدام المعدن كان مسئولاً عن تسجيل أعظم تقدم فى عمليات النقل (على الأقل حتى اختراع الطائرة) وعن بدء الإنتاج الكبير للسلع بمساعدة المكنات الدوارة ، إذ أن هذا هو ما تعنيه عجلة الخزاف .

ورغم ذلك فإنه بالبحث الدقيق فى مجتمعات العصر البرونزى فى العالم القديم وجد أنها تختلف فيما بينها اختلافاً ضخماً من حيث تنظيمها السياسى والاجتماعى وبنائها الاقتصادى وحتى فى مستوى منجزاتها التكنيكية . فكثير من قرى عصر البرونز فى أوربا المعتدلة وحتى فى آسيا الصغرى ليست أكبر ولا أكثر وضوحاً من كفور العصر الحجرى الحديث الموجودة فى نفس المنطقة . ومن الناحية الأخرى فإن المصريين والسومريين وأهل مينوا **Minoans** والصينيين الذين عاشوا فى عصر البرونز كانوا متمدنين كما كانوا يسكنون غالباً فى مدن كبيرة . وهكذا فإن هذه المرحلة الاركيولوجية الواحدة تغطى مرحلتين اثنوجرافيتين أو اجتماعيتين هامتين هما — البربرية والمدنية بالمعنى الذى شرحناه فيما سبق .

ولا يمكن حتى القول بأن استخدام المعدن — فى غرض التخصص الصناعى مثلا أو التجارة أو فى جعل النقل المتقدم ممكناً — هو شرط أساسى للمدنية . إذ أن المايا (١) فى العالم الجديد يجب اعتبارهم قد وصلوا إلى هذه المرحلة بالنظر إلى تقويمهم الراقى وكتابتهم الهيروغليفية . إلا أنه وفقاً للمحكات الأثرية يجب اعتبارهم فى العصر الحجرى الحديث إذ أنهم لم يستخدموا المعادن فى الأدوات أو الأسلحة . وفى الحقيقة فقد كانت تنقصهم العربات ذات العجلات وكل وسائل النقل البرى غير الحمل ، بينما

(١) مورلى المايا القدماء ١٩٤٦ .

كان اقتصادهم الزراعى قائماً على أساس قطع أشجار الغابات وإحراقها وزراعة مكانها ثم الانتقال إلى قطعة أخرى وهكذا (وهو ما يسمى بنظام الميلتا Milta) ثم حل محل هذا النظام استخدام المحراث فى الزراعة وفقاً للدورة منتظمة وذلك قبل أن تقوم أى مدينة فى أوربا المعتدلة بوقت طويل .

وهكذا نرى أن التقسيم الأثرى للعصور الثلاثة لا يمدنا بأساس صالح لتقسيم البربرية تقسيماً فرعياً إلى مراحل . لذلك فإن زملاءنا السوفييت حوالى عام ١٩٣٠ تخلوا عن تقسيم تومزن القديم وحاولوا إيجاد أساس تكنولوجى أفضل لتصنيف الحضارات الأثرية . فبدلا من العصر الحجرى القديم والحديث وبدلا من عصر البرونز وعصر الحديد قالوا « مجتمع ما قبل العشيرة » ثم « المجتمع العشائرى » أو « الجنتيل » ثم المجتمع الطبقى .

وهذا التعبير الأخير يقابل تقريباً مدنية مورجان ، حيث قسم كافة المجتمعات المتمدينة إلى طبقتين — أقلية صغيرة تملك فائض الإنتاج الاجتماعى ويزداد تركزه وتراكمه لديهما ، وجماهير الفلاحين والحرفيين والعمال الذين يحصلون من ناتج عملهم — على أحسن الفروض — على ما يكفى استهلاك منازلهم . كما يجب أن يطابق مجتمع ما قبل العشائر المرتبة الدنيا من بربرة مورجان — وهى فى الواقع مرحلة افتراضية يقتصر فيها التنظيم الاجتماعى على العائلة الطبيعية التى تعتبر قطيعاً يباح فيه الاتصال الجنسى بلا قيود . ويبدو أن أفيمنكو اعتقد أن هذه المرحلة قد تمثلت فى الواقع فيما شماه علماء الآثار بالمرحلة الدنيا من العصر الحجرى القديم . إلا أنه لسوء الحظ فإن المعلومات الموجودة تحت أيدينا ، حتى فى حالة إنسان بكين المواتية ، ضعيفة جداً بحيث لا تسمح بأى استنتاج مقبول عن كيف كان الرجال ينظمون حياتهم الجنسية . أما بقية العصر الحجرى القديم وما تلاه من أحقاب ما قبل التاريخ فكان عليها أن تتوزع بشكل أو بآخر داخل المجتمع العشائرى . ولما كان مورجان وإنجلز قد اعتقدا

أن العشائر الأولى كانت بلا استثناء تنتسب إلى الأم فإن الحضارات قبل الطبقية الأولى (المراتب العليا من العصر الحجرى القديم وبعض مراتب العصر الحجرى الوسيط) كانت من نصيب مرحلة أو « فترة » « العشيرة الأموية » . وكان الانتقال إلى التنظيم الأبوى (الذى كان يجب أن يحدث عند لحظة ما فى العصر الحجرى الحديث عندما بدأت تربية الماشية تنافس الزراعة أو الجمع كأساس للاقتصاد) يؤذن ببداية الانحدار المنتظم إلى المجتمع الطبقى . ولذلك فإن كافة المراحل أو العصور الأثرية يمكن أن تندرج فى « مرحلة تفكك العشيرة » .

وبالطبع فإن علماء الأثنوجرافيا اليوم يرفضون الأسبقية الشاملة المفترضة لنظام القرابة الأموى على الأبوى ، بل وينكرون فضلا عن ذلك أنه يلتقى مع ما يقال من ازدياد سطوة الأنثى فى الأمور العامة أو المنزلية مما يسمح بإطلاق هذا التعبير عليه . حتى ولو كان التتابع يتفق مع هذا الاعتقاد السائد فى الوقت الذى كتب فيه انجلز ، فليس من السهل أن ينطبق مع المعلومات الأثرية . فالدلائل بالنسبة لنظم القرابة أو المكانة الاجتماعية لكلا الجنسين نادرة بشكل خاص فى السجل الأركيولوجى وغالباً ما تكون مبهمة . والواقع أن علماء ما قبل التاريخ الروس غير متفقين فيما بينهم حول أين يجب وضع هذا الانتقال وأى المجتمعات كانت لا تزال تعيش فى ظل الشيوعية البدائية الأموية التامة والتى ظهر بينهما تفكك العشيرة . فأكد كريشيفسكى فى عام ١٩٣٣ أن التنظيم الأبوى نشأ فى أوربا الوسطى فى الفترة الثالثة من العصر الحجرى الحديث عندما ساد الرعى على اقتصاد زراعى مر بمرحلتين من التطور . بينما يرى أوكلادينوف على العكس أنه موجود من قبل فى سيبريا بين القبائل التى ما زالت تعيش كلية على صيد الحيوانات والأسماك وجمع الغذاء . وفى النهاية يقدم ترشياكوف رأيه القائل بأن الانتساب الأبوى حل محل الانتساب الأموى فى أعلى الفولجا فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الزراعة وتربية الحيوانات تساند وتكمل جمع الغذاء .

والواقع أن خطة التصنيف الروسية تفترض مقدماً ما يجب على الوقائع الأثرية أن تثبته . فعلم الآثار يقدم لنا تتابعاً للحضارات المتتالية فى مختلف المناطق . وبمقارنة هذه الحضارات تمكن من إقامة تعميمات معينة عن النواحى التكنولوجية للحضارة . فأثبت أنه فى كل مكان استخدم الحجر لصناعة الأدوات والأسلحة قبل استخدام المعادن . وكذلك استخدم النحاس أو البرونز — إذا استخدما — قبل الحديد فى كل مكان . كما بين علم الآثار ثانياً أن المجتمعات الأولى فى العالم القديم والجديد كانت تعيش دائماً على صيد الحيوانات والأسماك أو جمع الغذاء وأن الزراعة ظهرت متأخرة . وهكذا ظهر الفلاحون الأميون دائماً قبل سكان المدن المتعلمين . وفى ضوء التعريفات التى سبق ذكرها تكون الوحشية أقدم من البربرية والبربرية أقدم من المدنية . والغرض الأصلى من هذه الدراسة هو معرفة ما إذا كان من الممكن استخلاص تعميمات مماثلة مما لوحظ من تتابع مختلف مناحى الحضارة كنظام القرابة مثلا .

الفصل الثالث

الحضارة فى الدراسات الأثرية

وعلم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا)

كلمة حضارة ، كلمة متعبة فلها عدد من المعانى . فلدى بعض الدوائر يبدو أنها مقصورة على الفن ، ولو كان ذلك الفن هو العمارة التى لا وظيفة لها ، أو الأدب الذى لا يشتريه أحد ، أو الأوبرا — خاصة إذا كانت لا تشمل أعمال جيلبرت وسوليفان ولا حتى بوتشينى ... الخ .

أما علماء الآثار فيقصرون استخدامها على معنى محدد كذلك ولكنه مختلف تماماً . فهم يعرفون الحضارة بأنها تجمع لعدة سمات مرتبطة فيما بينها يتكرر حدوثها . وهذه السمات تكون فى الغالب مادية ، ويركز عالم الآثار اهتمامه على ما يتغير منها عن عمد . وبوصفى عالم آثار لا يعنينى كثيراً طقوس الدفن ، أو استخدام أناس ما قبل التاريخ للفأس ، أو المواد التى يتكون منها غذاء الإنسان المعاصر إنما ينصب اهتمامى على خصائص طقوس الدفن ، وشكل الفأس ومادتها ، أو ربما أشكال السكاكين والشوك . فالاختلافات المقصودة بين الشوك والسكاكين الإنجليزية والأمريكية قد تساعدنى على التمييز بين المجتمعين ، حتى ولو لم توجد دلائل أخرى من الأدب أو من الكلام . فهذه الاختلافات لا تعتمد على نوع الغذاء — الذى لم يتغير كثيراً عن سالف الأزمان — أو على الحاجة لتوصيل الطعام إلى الفم — وهو شىء شائع بين كافة الشعوب المتمدينة — إنما تعتمد فقط على اختلاف التقاليد فى مسألة نوع السلوك الواجب اتباعه على المائدة . فالاختلافات فى مراسم الدفن أو مواد الفئوس أو ديكورات الأوانى يجب كذلك أن تكون مشروطة بنفس النوع من الاختلافات التاريخية والاجتماعية عن أن تكون مشروطة بالوظيفة أو المادة أو البيئة الفسيولوجية — الجغرافية .

فهذه السمات التى تبدو غير ذات دلالة والتى تستأثر باهتمام عالم الآثار هى رموز تسهل له التمييز بين الحضارات . فمتى لوحظت عدة تجمعات وثيقة الارتباط بدرجة كافية لتقنعنا مثلا أن نوعاً معيناً من الآنية تتميز به حضارة أو مجتمع معين علمنا كلما صادفناه بعد ذلك فى مقبرة أو أساس منزل أن الأشخاص المدفونين فى هذه المقبرة أو الذين كانوا يسكنون المنزل ينتمون لنفس المجتمع . وكل قبر أو منزل جديد — وهى غالباً ما تنتشر على أراض واسعة — عرضة لأن تمدنا بفتات صغيرة من الدلائل على مناحى نشاط المجتمع الذى تنتهى إليه . إذ لا يحتمل أن توجد كافة سمات تجمع أثرى معين مع بعضها البعض أو تكشف عنها حفرية واحدة ، فالصورة الأثرية لحضارة إنما تتكون من عديد من القطع الصغيرة التى لوحظت فى مختلف الأمكنة ، ومختلف المناسبات ، ولكن يربط بينها دائماً سمة رمزية أو أكثر تميز ذلك التجمع . وهذه الصورة الكلية أكثر ثراء وشمولا من النماذج الأثرية المتحجرة التى غالباً ما تحتل مساحات كبيرة فى المقالات التكنيكية فى علم الآثار . وهى فى نفس الوقت تتكون أساساً من ثبات تعكس العادات الاجتماعية ومشروطة بالتقاليد الاجتماعية .

أما مفهوم عالم الأنثروبولوجيا عن الحضارة فهو لا يختلف من حيث النوع عن مفهوم عالم الآثار إلا أنه أكثر شمولا . فيشمل كافة نواحى السلوك الإنسانى التى لا تعتبر أفعالا منعكسة فطرية أو غرائز . فالحضارة قائمة على كل ما يستخلصه الإنسان من غذائه ومجتمعه الإنسانى لا على ما يحيط به من طبيعة أو بيئة غير إنسانية . وتشمل اللغة والمنطق والدين والفلسفة والأخلاق والقانون إلى جانب صناعة الأدوات واستخدامها والملابس والمنازل وحتى اختيار الأطعمة . فكل هذه الأشياء يجب أن يتعلمها الإنسان من زملائه فى المجتمع . فالطفل الإنسانى عليه أن يتعلم من أبويه وممن هم أكبر منه كيف يتكلم ، وكيف يتخلص من ناتج هضم طعامه وكيف يأكل ويعد طعامه .. وهكذا . وتنتهى كافة هذه القواعد للتقاليد الجمعية التى جمعها وحفظها المجتمع الذى يولد فيه الإنسان .

وكل شيء فى المجتمع يجب أن يخترع أو يكتشف ولكن المجتمع يحفظ المكتشفات والاختراعات الأصيلة ، حتى لا يكون على أعضائه أن يكتشفوا بأنفسهم عن طريق المحاولة والخطأ ، ماذا يأكلون وكيف يحصلون عليه ، بل يعلمهم من هم أكبر منهم وهؤلاء الأخيرون تعلموا بدورهم ممن سبقوهم . وحتى ما يسمى بالحقائق المسبقة فى الحساب والهندسة يجب إعادة اكتشافها عن طريق التجربة ، ولكنها قد تم الاعتراف بها منذ زمن طويل حتى إنها قد غاصت فى أعماق التقاليد الاجتماعية بحيث تبدو مفروضة على عقل الفرد وكأنها حقائق واضحة بذاتها (١) . ولما كانت المجتمعات قد عاشت فى ظل مختلف البيئات التاريخية ومرت بمختلف التحولات فقد اختلفت تقاليدها ، وهكذا تكشف الأثنوجرافيا كما يكشف علم الآثار عن عديد من الحضارات .

وتعتبر التقاليد الاجتماعية التى تحدد الحضارة عن نفسها فى عادات التفكير والعمل وفى المؤسسات والعرف . وكافة هذه الأشياء لا قيمة لها فى جوهرها ولا توجد إلا طالما ظل المجتمع الذى فرضها وباركها وحفظها حياً ونشطاً . وبفضل الكتابة بقيت لنا لغة ومنطق المجتمعات المتمدينة بعد زوالها ، كما بقى الكثير من مؤسساتها ومعتقداتها وقوانينها فى شكل حفريات متحجرة . ولقد فنيت لغات المجتمعات البربرية الأمية بفنائها ولكن لم تفن حضاراتهم كلها . إذ أن كافة نواحى الحضارة تعبر عن نفسها فى النشاط العملى ، الذى يتناول العالم المادى . وفى الحقيقة أن الحضارة تبقى وتنتقل من خلال العمل فقط ، فالفكرة أو العقيدة التى توجد فى رأس شخص ما لا تكون جزءاً من الحضارة ولا يهتم بها التاريخ أو علم الإنسان . كما أن بعض الأفعال التى تمليها الحضارة وتكون معبرة عنها فعلا تترك آثاراً دائمة فى العالم المادى . ويقع كل هذا فى مجال علم الآثار . وفى

---

(١) لسلى هوايت « مسار الحقيقة الرياضية » مجلة فلسفة العلوم ١٩٤٧ .

الحقيقة أن هذه الأفعال الإنسانية بالذات هى التى توفر المادة التى تبنى منها الحضارات الأثرية .

ولا شك أن العلم التطبيقى للمجتمعات الأمية المندثرة هو الذى ترك أبرز الانطباعات فى السجل الأثرى . فأدوات ، ومنازل ، وحقول ، وطرق ، ما قبل التاريخ تعيش لتوضح لنا المعرفة العملية التى كان يمتلكها من صنعوها أو بنوها . فهى تمثل تطبيقات للمكتشفات والمخترعات المقبولة اجتماعياً . وهى فى نفس الوقت أدلة على الحاجات المقبولة اجتماعياً . فلم تحس كافة المجتمعات التى تأكل اللحم بالحاجة إلى الشوكة والسكين . وفى أوربا المعتدلة لم تنشأ الحاجة إلى طرق صالحة للاستعمال فى كافة الفصول لأول مرة وبشكل فعال اجتماعياً إلا فى ظل الإمبراطورية الرومانية ، وعفا عليها النسيان بعد ذلك . فى عصور الظلام .

وحتى النواحى غير الهامة من الحضارة قد تظهر فى تعبيرات مادية باقية . « فدساتير » المجتمعات الأمية — إذا جاز استعمال الكلمة — قد ضاعت بلا عودة . ومع ذلك فإن الآثار الجنائزية والمنزلية ومحتوياتها تسمح لنا شرعاً باستنتاج وجود أو عدم وجود رؤساء . وإذا كانت المعتقدات الدينية قد اندثرت ، فإن التعبير عنها فى شكل معابد ، ومذابح ، ومعبودات ، وتعاويذ قد يبقى . بل قد تمدنا بأسس لاستنتاج إلى أى مدى كانت مثل هذه المعتقدات منظمة تحت إشراف كهنة محترفين .

وباختصار فإن السجل الأثرى لا يقتصر بأى حال على أدوات الإنتاج وأسلحة الحرب . فإذا واتتنا الظروف يمكننا أن نعلم الشيء الكثير لا عن أساليب الإنتاج فقط بل ووسائل الإنتاج كذلك . ويمكننا تقدير دور الصناعة الأولية والثانوية ودور التجارة من الوقائع الملاحظة . كما يمكن استنتاج مدى تقسيم العمل وتوزيع الإنتاج بشيء من التأكيد . ويمكن إجراء عدة تخمينات

مقبولة فيما يتعلق بوجود العبيد ومكانة المرأة ووراثة الممتلكات . بل إن البناء الايديولوجى العلوى يمكن أن يكون موضع فروض حذرة .

وسوف نتناول طبيعة المعلومات الأثرية التى يمكن أن نقيم على أساسها استنتاجات مشروعة وتخمينات معقولة بدقة أكبر فى الفصل الخامس . ولكننا نحتاج بين الحين والآخر أن ننبه إلى إمكان الحصول على مثل هذه المعلومات .

فالاستكشاف الدءوب المنظم الشامل ، والجمع ، والتنقيب مقرونا بالتحليل والمقارنة المدققة المتأنية العلمية للملاحظات الناتجة كل ذلك فقط هو الذى يمكن أن يمدنا بالمادة التى تبعث الحياة الحقيقية فى الحضارات المندثرة . فمثلا يحتاج الأمر إلى تحليلات كيماوية عديدة وتحليلات للصخور لنحدد بدقة مدى واتجاه تجارة ما قبل التاريخ . والفحص المتعمق من الجو وعلى الأرض هو وحده الذى يكشف عن حقول وطرق ما قبل التاريخ . كما أن التنقيب الكامل وحده عن المبانى هو الذى يمكن أن يزودنا بمعلومات يمكن الاعتماد عليها لتقدير كثافة السكان ، أو ما إذا كان المجتمع منقسماً إلى سادة وعوام . إلا أن جزءاً صغيراً فقط فى العمل المطلوب قد تم كما أن توزيعه غير متساو .

فتوجد مناطق شاسعة من العالم القديم لم يكتشفها علم الآثار كلية . وفى كثير من المناطق الباقية أمكن تحديد عدد من الحضارات ومعرفة مسار تتابعها . إلا أن هذه الحضارات تحددت كلها تقريباً عن طريق أساوب صناعة الفخار أو عدد محدود من الأنماط الحجرية أو المعدنية . ولا نعرف شيئاً عن اقتصادها أو نظامها السياسى . وفى مناطق قليلة توافرت الظروف لإعادة بناء الحضارات باعتبارها كليات وظيفية ، وحتى فى هذه المناطق لم يمكن ذلك إلا فى عصور محدودة . وفى الحقيقة أن نوع المعلومات المطلوبة للدراسة الحالية يمكن الحصول عليها فى حدود مرحلة ما بعد عصر البليستوسين

وذلك فى المنطقة المعتدلة من أوربا — باستثناء فرنسا والبلقان — وفى اليونان ومصر وفلسطين وسوريا وما بين النهرين .

وهذا اللاتساوى فى عملية الاكتشاف عقبة خطيرة إذا كان غرضنا هو الوصول إلى مراحل عامة لتطور الحضارات . إذ أن الحضارة هى تكيف لبيئة . وتدين بسماتها المميزة للبيئة الجغرافية التى عمل فيها مبتكروها ، إلى التضاريس الطبيعية ، والأمطار ، ودرجة الحرارة ، والتربة والنبات ، ومصادر الثروة الطبيعية فى صورة معادن ونباتات وحيوانات وأنهار وهكذا . وقد أشار هربرت سبنسر (١) منذ زمن بعيد إلى أن أول العوامل التى تحكم المجتمعات هو العالم غير العضوى تحت الإنسانى . كذلك يعتبر ستالين (٢) — المعبر الرئيسى عن الماركسية اليوم — « مصادر الثروة الطبيعية للبيئة » من بين « قوى الإنتاج » التى تحدد بناء المجتمع . ومن هنا فلكى نكتشف القوانين العامة التى تصف كافة المجتمعات يجب أولا أن نجرد السمات التى ترجع إلى اختلاف البيئة .

وهكذا يمكن القيام به على أحسن وجه بعزل السمات المشتركة فى المجتمعات التى توجد فى مناطق طبيعية متباينة . والسلسلة الكاملة التى حصلنا عليها من العالم القديم لا تقدم لنا التباين المطلوب . فهى مستخلصة فقط من منطقة الغابات المعتدلة والطرف الشرقى من البحر الأبيض المتوسط . وحزام الاستبس فى آسيا العليا . ووديان الأنهار فى المنطقة تحت الاستوائية .

وفضلا عن ذلك ، فلكى نكتشف عن طريق الاستقراء مراحل عامة للتطور بمقارنة التطور الملاحظ فى عدد من المجتمعات فيجب أن نتأكد أن أمثلتنا هى مجتمعات مستقلة فعلا . ومن الناحية المثالية فنحن فى الحقيقة

---

(١) مبادىء علم الاجتماع ١٨٧٤ .

(٢) « المادية الجدلية والمادية التاريخية » الفصل الرابع من تاريخ الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى .

بجرد ما سماه سبنسر بالبيئة فوق العضوية كعامل فى تطور المجتمع . ويجب أن يكون الهدف فى الظاهر أن نرى كيف يتطور المجتمع إذا ترك وشأنه . أما كون هذا الهدف شيئاً مشروعاً فسوف نتناوله فيما بعد . لكن السؤال المباشر هو هل هذا ممكن عملياً ؟ فحتى فى العصر الحجرى القديم يدلنا انتقال المواد عن طريق الإنسان بعيداً عن المناطق التى توجد فيها فى الطبيعة (مثل انتقال مواقع الكورى من المحيط الهندى إلى فرنسا) على احتمال تبادل الأفكار عبر مساحات واسعة غير منتظرة . فمنذ ثورة العصر الحجرى الحديث سجل علم الآثار وفرة انتشار المواد والمصنوعات والمخترعات ، ورموز العبادات وأدوات الزينة عبر مختلف المجتمعات التى تسكن مختلف أنحاء أوربا وآسيا العليا .

ويبدو أن بعض مؤرخى ما قبل التاريخ يميلون إلى اعتبار العلاقات الخارجية للمجتمعات — الهجرات ، والغزوات ، والحروب — أجدر بالدراسة من قيام المجتمعات ذاتها بوظائفها . ويعارض زملاؤنا فى الاتحاد السوفيتى بحق هذه الجهود الرامية إلى تحويل ما قبل التاريخ إلى تقايد هزيل للتاريخ السياسى والحربى الذى عفا عليه الدهر . وذهبوا إلى حد استبعاد الهجرات تماماً تقريباً كعوامل تؤدى إلى التغير فى الحضارات الأمية . ولكن رغم ذلك فقد اعترفوا فى هذا المجال بأهمية الانتشار (١) — انتقال الأفكار من شعب إلى آخر عن طريق التجارة أو ما يشابهها من وسائل التعامل السلمية .

وهم فى نهاية الأمر يستطيعون القول بأن هذه الأحداث التاريخية — أو ميكانيزمات — التغير الحضارى والاجتماعى لا تشوه حقيقة مجرى التطور الارتقائى . إذ لا يستطيع أى مجتمع أن يستعير من آخر اختراعاً ما لم يكن ملائماً للحضارة التى أنتجها هذا الشعب من قبل . فمثلا لا تستطيع قبيلة زنجية فى إفريقيا الاستوائيه أن تستخدم النقل بالسيارات ما لم يكن

---

(١) كرايشفيسكى .

لديها المهارة التكنيكية والأجهزة اللازمة لإنشاء الطرق .، ونظام سياسى يحتفظ بها ويحرسها ، ونظام اقتصادى للحصول على البترول وتوزيعه . وفضلا عن ذلك اعتراف المجتمع بالحاجة إلى أسلوب للنقل أسرع وأكثر توفيراً للأيدى العاملة من الحمل . وتنطبق نفس الشروط فى حالة رغبة مجتمع أمى يسكن غابات أوربا المعتدلة لاستعمال العربة ذات العجلات فى كلتا الحالتين ترمز وسيلة النقل ذات العجلات إلى مرحلة معينة فى التطور الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع سواء كان هو الذى اخترع الأداة أم استعارها من مجتمع مجاور .

وينطبق نفس الشىء على المؤسسات الاجتماعية . فالرؤساء لا يستطيعون أن يحكموا فى جماعة ما لم تكن تستطيع أن تنتج فائضاً اجتماعياً عن حاجة استهلاكها المحلى يكفى لإعالة الرئيس الذى لا يعمل — أى الحاكم المتفرغ . كذلك لا يحتمل أن يبقى ما لم يقدم حكمه فوائد ملموسة لم يستطع النظام السابق للحكم — أو عدم وجود نظام سابق للحكم أن يقدمها . فمثلا قد يستطيع الرئيس أن يضمن الدفاع عن القبيلة فى مواجهة الأعداء أو حماية الضعيوف من التجار ومهرة الصناع الذين يقدر المجتمع خدماتهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يلجئوا إلى حماية نظام القرابة الذى لا يعترف إلا برابطة الدم . لذلك فقد يكون من غير المهم أن يحكم الملك استجابة لرغبة شعبية ، كما اشتهر عن اسرائيل ، أو بفرض نفسه على الشعب عن طريق الغزو . فالسجل الأثرى نادراً ما يكون واضحاً بشأن ميكانيزم التغير الاجتماعى ، إلا أن هذا الغموض قد يكون عديم الأهمية بالنسبة لنظام حدوث التغيرات الحضارية .

وهناك نوع آخر من الغموض أكثر تعقيداً . فحدود مختلف مجالات الحضارة لا تلتقى بالضرورة . وعلى عالم الآثار أن يعتمد أساساً على الحضارة المادية — أدوات الإنتاج ، ووسائل النقل ، ورسوم المنازل ، وأدوات الملابس والأساليب الفنية — ليحدد المجتمعات . وإذا حكمنا على أساس هذه المحكات

فإنه يبدو أن أوربا وشمال أمريكا واستراليا تشترك جميعها فى حضارة واحدة وبالتالى تمثل مجتمعاً واحداً . ولكن هذه المنطقة الحضارية الموحدة نسبياً تنقسم بالطبع إلى عدة مناطق لغوية . رغم أن اللغة جزء هام من الحضارة . وهى تنقسم إلى عدد أكبر من الدول المستقلة سياسياً واقتصادياً . وفى نفس الوقت تنقسم كل من هذه الدول إلى عدد من المجتمعات الأصغر التى قد تمتد خارج الحدود السياسية — إلى كنائس ونوادو طبقات اقتصادية ومهن .. إلخ ،وغالباً ما يختلف الملابس والمسكن والغذاء وحتى اللغة بين هذه الجماعات المنتمية إلى دولة واحدة اختلافاً كبيراً . ومتى يعتبر عالم الآثار الحضارية المادية لكل مجموعة من هذه المجموعات ممثلة لمجتمع متميز . ألا يمكن أن يؤدى التنقيب فى قرية لعمال المناجم ، ومصيف ، والمدينة التى يعقد فيها السوق فى ويلز إلى أن يؤكد عالم الآثار فى أواخر الألف الثالث بعد الميلاد أن ويلز كان بها ثلاث حضارات متميزة وثلاثة مجتمعات كذلك ؟ على أى حال ما لم تكن القنبلة الذرية التى ستسقط على بريطانيا أشد تدميراً بمراحل من تلك التى سقطت على هيروشيما ، فإن هذا الخطأ غير محتمل (١) . وعلى أى حال لم يخطىء أحد قط بسبب الخلاف الظاهر بين هندسة وأثاث منازل العمال وقصور الفراعنة والنبلاء الشائعة ليعزو الأولى إلى مجموعة من البرابرة الغزاة الذين استقروا لفترة على أرض مصر .

وهكذا فإن الاختلاف بين الحضارة المادية واللغة والنظام السياسى لا يمكن التغلب عليه . فكشفت الأثنوجرافيا فى شمال أمريكا عن عدة شعوب مختلفة — هنود السهول مثلا — لا يمكن تمييزهم فى الواقع من ملبسهم ولا من أدواتهم ولكنهم يتكلمون لغات لا علاقة بينها . وفى بلاد ما بين النهرين كشف علم الآثار عن وجود حضارة فى الألف الثالثة قبل الميلاد متجانسة تماماً ، لا فى الأدوات والأسلحة والملابس والمسكن والذوق

---

(١) فإن رجال الاسكيمو الذين سينقبون ليتعرفوا على الوحدة الشاملة للحضارة البريطانية سيجدون العدد الكافى من الأزرار وأوانى الشاى المحطمة والسكاكين والشوك التى ستعينهم لتمكنهم من ذلك .

الفني ، بل كذلك في الديانة والهندسة وطقوس الدفن وحتى الكتابة ، ولكن من الناحية السياسية كانت هذه البلاد حتى عام ٢٣٥٠ ق.م. مقسمة إلى عدد من المدن — الدول المستقلة والتي تشتبك مع بعضها البعض في حروب طاحنة . كما ظهرت لغتان مختلفتان في المخطوط الواحد — السومرية والسامية — حالما أمكن فك طلاسم الأخيرة . وفضلا عن ذلك فإنه في كل من هذه الدول المستقلة كان التناقض بين الأدوات التي يستعملها سكان الحضر والتي يستعملها سكان الريف صارخاً ، ومن المحتمل أنه كان مرتبطاً بالاختلاف في التنظيم الاجتماعي وحتى في اللهجة . وقد اقترح بعضهم (١) أن ما نراه هنا ليس مجتمعاً واحداً ولكن مجتمع حضري منظم على أساس إقليمي مفروضاً على أو مركب على « مجتمع شعبي » ما زال قائماً على أساس علاقات القرابة . وهذا الكلام قد ينطبق أيضاً على المجتمعات المعاصرة في أمريكا اللاتينية وأوربا والبحر الأبيض إن لم ينطبق على المجتمع الأمريكي كذلك .

وهكذا فإنه بالنسبة لعالم الآثار يجب أن تظل الوحدة أو المجتمع هي الجماعة التي تشترك في حضارة واحدة — بمعنى أنها تعبر تعبيراً ملموساً مادياً عن التقاليد المشتركة . ومثل هذه الجماعة قد تشمل عدداً من مقار السكن أو المجتمعات المحلية . وربما أطلقنا على أعضائها اسم شعب ، ولكن ليس لدينا الحق لنفترض أن هذا الشعب ككل كان يتكلم لغة واحدة ، أو يتصرف كوحدة سياسية ، أو توجد علاقه فسيولوجية بين كافة أعضائه أو ينتمون إلى نفس الأصل الحيواني . وبعد كل ذلك فإن هنالك عنصراً ذاتياً يدخل في هذا التعريف . والحضارة والمجتمع هي تجريدات . ولا يتشابه شيئان من إنتاج الحرفيين تشابهاً تاماً . فلكل عائلة من العائلات التي تمتهن حرفة معينة ، ولكل فرد من أفراد هذه العائلة أسلوبه الخاص به . كما لا تترك قريتان نفس التركيب من البقايا والسمات . ويدخل العنصر الذاتي في تحديد

(١) تكس « الثورات وعملية التحضر » في مدخل إلى علم الأنثروبولوجيا العامة .

ما هى الأشياء الموجودة فى زمن واحد (المتزامنة) Idiosyncrasies التى يجب أن نهملها فى تحديدنا للحضارة . وبصراحة فإنه من الصعب أن نقرر ما يجب إغفاله باعتباره فردياً خالصاً وما يجب اعتباره سمات اجتماعية مميزة للحضارات الجديدة . ولقد انشغل علماء الآثار الألمان والنمسويون بتمييز الأساليب الفخارية الجديدة واعتبارها رموزاً ، بل وغالبساً الأصول Epenyms (١) للحضارات الجديدة . ومن الواضح أنه يجب أن يكون هناك حد لهذه التقسيمات الفرعية . ففى انجلترا حتى عام ١٩٢٨ استقر رأى علماء ما قبل التاريخ على أن « عصر البرونز المبكر » لديهم يحتوى حضارة واحدة تميزت من الناحية الأثرية بنوع واحد من الآنية سمى البيكر « الكأس » ونسب إلى شعب غاز بعينه سمى « شعب الكأس » . وفى عام ١٩٤٨ كانت قد ظهرت على الأقل أربعة أنواع متميزة من الكئوس ونسب كل منها إلى مختلف أنواع الغزاة .

وبالنسبة للعالم ما قبل التاريخ فإن وظيفة عالم الآثار هى الاستمرار فى تمييز الحضارات الجديدة ومحاولة ملء الفراغات فى الصور التى يقدمها عالم ما قبل التاريخ لكل حضارة . بينما يكون على عالم الاجتماع المقارن من ناحية أخرى أن يختصر هذا العدد الكبير بتجاهل بعض الخلافات . وبالطبع فهناك الخوف أن تؤدى مثل هذه التجريدات إلى إهمال بعض الخلافات ذات الأهمية الحقيقية . وعلى أى حال فإنه من الأفضل أن يتم ذلك على أساس الاختيار الحر من معلومات دقيقة بدلا من أن يفرض بطريق الجزل أو نقص السجل الأثرى .

هذه هى إذن أوجه النقص فى المواءمة بين الحضارات الأثرية وبين المجتمعات وإذا كنا — رغم ذلك — سنعتبر التتابع الملاحظ للحضارات دالا

---

(١) Eponym هو الشخص (التاريخى أو الأسطورى) الذى يطلق اسمه على مدينة أو قبيلة أو شعب .

على تطور المجتمعات فإن هذا التتابع يجب أن يكون أكثر من مجرد تجميع للعمليات التكنولوجية — أو حتى الاقتصاديات التى يمكن للعمليات أن تجرى فى إطارها . وحيث إنها غالباً ما تكون خرساء تماماً إلا أننا يجب أن نجعلها تنطق إن لم يكن بالكلام فعلى الأقل بالمؤسسات . فإلى أى حد يمكن أن نسبغ الحياة على هذه الحضارات ؟ .

الفصل الرابع

بعض الأمثلة

قبل أن نوغل فى موضوعنا أعتقد أنه يحسن بى أن أقدم بعض الأمثلة وأعترف أنها أمثلة مواتية — لأبين إلى أى حد يمكن لعالم الآثار أن يبعث الحياة فى بقايا مجتمع أمى . بالنسبة للوحشية يقدم لنا السجل معلومات دقيقة جداً عن الاقتصاد وكذلك عن التعبير الفنى عن الخرافات فى العصر الحجرى القديم ، إلا أن تفسير هذه الأخيرة هو بالطبع افتراض تماماً ، كما لا تظهر غالباً أية تلميحات مباشرة فيما يتعلق بالتركيب الاجتماعى . وبالنسبة للعصر الحجرى الوسيط الأقل تشويقاً الذى يتلوه فإن الوضع ليس بهذا السوء . لذلك فسوف أتناول مجتمعاً فى القرم (١) هو بالتأكيد أقدم عمراً من أى مجتمع زراعى فى جنوب روسيا ، رغم أنه ليس بالضرورة أقدم من المظاهر المبكرة للاقتصاد البربرى فى آسيا العليا أو مصر .

وكما هو الحال فى مختلف أنحاء أوربا المعتدلة فإن حضارة العصر الحجرى الوسيط فى القرم كانت أقل تنوعاً وربما كانت أفقر من حضارات العصر الحجرى القديم التى سبقتها فى عصر البلايستوسين . إذ أنه بانتهاء ظروف الجليد حلت الغابات محل الاستبس والتندرا وبالتالى فإن الحيوانات أكلة العشب التى كانت تعيش فى جماعات والتى كان رخاء مجتمعات العصر الحجرى القديم يعتمد على صيدها قد اندثرت أو رحلت إلى الشمال . ووجدت الجماعات الإنسانية نفسها معزولة عن بعضها البعض بالغابات والمستنقعات ومضطرة إلى مطاردة الحيوانات التى تعيش منفردة كالغزال الأحمر وذى القرون والخنزير البرى . وكان أهل القرم فى العصر الحجرى الوسيط

---

(١) انظر تشايلد « الإنسان » ١٩٤٢ — هانكار المجتمع القوقازى ١٩٣٨ فينا .

يعيشون فى كهوف . فى جماعات صغيرة منعزلة ، لا يمكن تحديد عددها بالدقة . وكانوا مثل أسلافهم فى العصر الحجرى القديم يعيشون على صيد الحيوانات والأسماك ، ولكنهم بالإضافة إلى ذلك كانوا يعتمدون على جمع الغذاء بدرجة أكبر من المجتمعات السابقة عليهم فى أوربا . وتظهر أكوام كبيرة من القواقع فى الكهوف السكنية فى القرم كما تظهر فى كافة الحفريات المعاصرة على نطاق أوربا . وكانت الحراب المسننة المسماة بالهاربون Harpoon تستخدم بوضوح فى صيد السمك ، أما فى الطراد فإن أظهر سلاح بقى لنا كان القوس — أو على وجه الدقة لأسنان الصوانية الدقيقة التى كانت تسلح بها السهام . وعلى عكس مجتمعات العصر الحجرى القديم واتفاقاً مع كافة مجتمعات العصر الحجرى الوسيط كان الصيد يتم بمساعدة الكلاب . على الأقل وجدت عظام كلب يبدو عليها سمات أولى مراحل الاستئناس فى عدد من الكهوف . وبالطبع فإنه فى صيد الغابة يكون مثل هذا الحليف الحيوانى فى متناول اليد كما أنه سيحصل على أحشاء الحيوان التى سيأكلها كجائزة بعد صيد موفق .

وتقدم لنا المدافن الدليل الإيجابى الوحيد — ولو أنه ضئيل وغامض — على تركيب مجتمعات العصر الحجرى الوسيط . ففى القرم كان الموتى يدفنون — أحياناً على الأقل — فى الكهوف التى كانوا لا يعيشون فيها . وفى قبر فى مورجاك كوبا وجد جسدان ممدان جنباً إلى جنب دفنا فى وقت واحد . وكان أحد الهيكلين لرجل فى حوالى الأربعين أو الخمسين من عمره والآخر لامرأة فى العشرين أو الخامسة والعشرين أى فى نصف عمر رفيقها . وكانت مفاصل الأصابع غير موجودة فى يد المرأة وربما قطعت وفقاً للطقوس — إذ كان المتوحشون يمارسون مثل هذا الطقس فى جنوب أمريكا وثبت وجوده قبل ذلك فى العصر الحجرى القديم فى صور الكهوف الفرنسية . وسوف نناقش فيما بعد دلالة دفن الرجال والنساء فى وقت واحد . وسوف نرى أنه إذا لم يعن بالضرورة وحدانية الزواج أو الساتى Sati (وهو إجبار الزوجة على اتباع سيدها إلى حياته المستقبلة) فهو يبرهن على

الأقل خضوع الأنثى للذكر . وقيام ذلك فى مثل هذه المرحلة المبكرة
له أهمية بالنسبة لنظريات ما يسمى بالنظام الأبوى فى المجتمعات الأولى .

وتتكون قرية سكارابرى (١) فى أوركنى — والتى تنتمى إلى العصر
الحجرى الحديث — من ستة مساكن كل منها يحتوى غرفة واحدة ويسع
عائلة طبيعية واحدة ، وهى أحسن ما بقى لنا من اثنتى عشرة قرية من نفس
نفس الحضارة أمكن التعرف عليها فى مين لاند وجزيرة روزاى الأصغر
منها . وكان سكانها يعشون على تربية الماشية والغنم ويكملونها بناتج جمع
الغذاء . ولا توجد أدلة تثبت أنهم كانوا يزرعون أية حبوب ، ولم يبق
عنهم أية قصبة صيداً رغم أن سكارابرى تقع على شاطىء البحر . وكانت
الأدوات — والحلى — مصنوعة كلها من مواد محلية . ورغم وجود عروق
الصوان بكثرة فى روزاى واستخدامه هناك ، فلم يكن الصوان يستعمل فى
سكارابرى ، وكان يستعمل بدلا منه نوع أدنى من الحجر .

وفى الواقع أنه لما كانت أوركنى خالية من الأشجار فقد كان كل شىء
حتى الأثاث — الأسرة والمناضد — يصنع من الحجر المحلى ، الذى كان ،
لحسن الحظ ، ينقسم بسهولة إلى قطع كالألواح ، وهكذا لا توجد أية أدلة
على وجود تجارة من أى نوع . كما تكشفت أية أسلحة تشير إلى حدوث
حروب أو حتى القيام بالصيد .

وكان كل مسكن مجهزاً بمدفأة فى الوسط ودولاب ذى درجين يستند
إلى الحائط الخلفى وسريرين إلى جانبى المدفأة . وكانت الأسرة دائماً متسعة
بوصة قدم بوصة قدم
وكان الأيمن أكبرها ويتراوح حجمه بين ٦ ,٦ × ٦ ٣
بوصة قدم
وبين ٥ قدم × ٩ ٢ ومن هذه الأبعاد ومما اكتشف حديثاً فى جرر الهبرير

---

(١) تشايلد ، سكارابرى « اسكتلندا قبل الاسكتلنديين » ١٩٤٦ .

يمكن استنتاج أن السرير الأيمن كان للرجال والأيسر للنساء . وفى الحائط فوق كل سرير يوجد دولاب يستخدم كخزانة لحفظ الممتلكات الشخصية لصاحب السرير . وكانت الخانات فى الحائط والخزانات المحفورة فى الأرض تستخدم لحفظ خزين المنزل . إلا أن المساكن الستة كانت مدفونة فى كومة من البقايا ، وتتصل ببعضها البعض بممرات مسقوفة يمكن إغلاق مداخلها بأبواب ذات قضبان تشبه تماماً أبواب المساكن نفسها . وهكذا كانت المساكن الستة توجد تحت سقف واحد ويمكن اعتبار الكل نمطاً من المنازل مقسما إلى ست شقق أو اعتبارها مجمعاً من ستة منازل . وخارج هذا المجمع يوجد فناء صغير مرصوف ومسكن منعزل يختلف عن الباقين فى أثاثه ويستخدم كورشة لصناعة وتسوية الأوانى الفخارية وشطف حجر الصوان وربما كان مقراً لعائلة من الحرفيين إلا أن الاحتمال الأكبر أنه كان يستخدم كورشة عامة يلجأ إليها سكان المنازل الصغيرة لتصليح وصياغة وتحميض أوانيهم الفخارية أو شطف الأدوات الحجرية ، وكانت الأدوات المصنوعة من العظام تصنع أحياناً — كما كانت تستخدم بالتأكيد — داخل المساكن وهكذا فلا يوجد تقسيم للعمل داخل الجماعة سوى ذلك الذى يمليه الجنس والسن . إلا أن إنشاء المجارى التى تصرف المجمع كله والممرات التى تصل بين الوحدات المنفصلة كانت ولابد نتيجة لعمل جماعى ومجهود تعاونى .

ولما كانت المساكن متشابهة فى الرسم والأثاث ولا تختلف إلا فى الحجم فقط . فلا يمكن اعتبار أى واحد منها مقراً لزعيم . إلا أن الأكبر ربما كان لأكبر الأعضاء سناً أو جد الجماعة . فهذا المجتمع كله يكون بهذا الشكل عائلة أو عشيرة موسعة واحدة ، وربما تخضع لأب واحد ولكنها متعاونة فيما بينها لنفس الأسباب وفى ظل نفس المقدسات كما تعود أعضاء العائلة الطبيعية الواحدة أن يفعلوا . ومجتمعات العصر الحجرى الحديث هذه تكشف لنا عن « الشيوعية البدائية » وهى لا تزال فعالة فى شكل لم تنله يد التشويه .

وقد يظن البعض أنني تحيزت إذ اخترت اليونان فى العصر الميسينى (١) Mycenaean لأضرب بها المثل على مجتمع بربرى متقدم . إذ أننى بصراحة سألجأ إلى الأشعار الهومرية لأكمل بها المعلومات الأثرية ، إلا أنه على وجه العموم ستستخدم هـذه الشهادة الأدبية لتؤكد فقط استنتاجات أثرية خالصة . وستكون الصورة المجازة وفقا لذلك ذات قيمة كبيرة فى تفسير الحضارات الأخرى التى تشبه الحضارة الميسينية ولكن ليس لها ذكر فى السجل الأدبى .

وقد يظن أن الوحدة الشائعة للقرية هى الأكروبوليس المحض . وأشهر مثال عليه هى ميسينا نفسها . ولكن الواقع أن هـذه « الأكروبولات » — أى المدن — كانت أكثر من مجرد حصون . ففى ميسينيا — أغنى هذه القرى — كانت الحوائط السيكلوبية (٢) تحيط ما لا يقل عن اثنى عشر فدانا ، وفى تيرينز نصف هذه المساحة . وفى كل الحالات كان الجزء الأكبر من المساحة يحتله قصر بملحقاته من دكاكين وورش . أما المدافن فكان عدد سكانها يفوق بكثير العدد الذى يمكن حشده بسهولة فى مثل هذه المساحة المكتظة وكانت تتكون من مقابر منحوتة من الصخر تستخدم كل منها عائلة واحدة تدفن فيها موتاها لقرن أو اثنين . وقد تم وصف حوالى تسعين مقبرة عائلية فقط حول ميسينيا ولكن يجب أن يكون هنـاك أكثر من ذلك . فقد تم الكشف عن خمسة وخمسين منها حول قاعة بروسيمنا وهى تقل أهمية عن ميسينيا وتبعد عنها بعدة أميـال . ولا توجد أى مقبرة على سفوح الأكروبول ، بل تكون المقـابر مجموعات على ثلاثة مرتفعات متقـاربة تنتشر على مساحة طولهـا كيلو متراً تقريبا . وكانت المدافن فى ميسينيا وغيرها من المحلات تكون مجموعات مشابهة . وعلى العموم فإنه يفترض أن كل

---

(١) انظر عموماً تسونتاس ومانات « العصر المسينى » نيلسون هومر وميسينيا (١٩٣٣) . مايرز « من هم اليونانيون » ١٩٣٨ .

(٢) نسبه إلى Cyclops وهو كائن عملاق خرافى ذو عين واحدة فى منتصف رأسه . وتعنى هنا نوعاً من البناء الذى كان يستخدم حجارة ضخمة ذات أشكال غير منتظمة (المترجم)

مجموعة من القبور تنتمى إلى قرية أو مجموعة من المزارع خارج أسوار المدينة ولكنها اقتصادياً وسياسياً معتمدة على القاعة . ومن الناحية الواقعية فلابد أن السواد الأعظم من السكان « الحضريين » كان يعيش فى مثل هذه القرى ، ولكن كانت توجد بالإضافة إلى ذلك مراكز مستقلة للسكنى وسواء كانت أكبر أو أصغر فقد كانت طبيعتها الريفية محدودة . وكانت الأسوار تحيط بمحلة مالتى فى ميسينيا التى تبلغ مساحتها ٢٥,٠٠٠ متر مربع .

وكان أساس الاقتصاد الميسينى هو بالطبع تربية الماشية وزراعة الحبوب والحدائق خصوصاً زراعة الزيتون والكروم . وكان صيد السمك يمارس بالطبع على السواحل والجزر . ولكن الصيد كان فى الأساس رياضة الطبقات الحاكمة . وإذا حكمنا وفق المنتجات فلا بد أن سكان المدن كان بينهم بالإضافة إلى منتجى الغذاء تشكيلة من المتخصصين المتفرغين كل الوقت . ومثل هؤلاء الحرفيين لا يشملون فقط صانعى البرونز والخزافين الذين يستخدمون العجلة ، ولكن كان من ضمنهم كذلك الجواهرجية ، والنحاتين ، وربما صانعو القرميد ، وغيرهم من العمال مثل صانعى العربات . وكان الحدادون والخزافون وغيرهم تفترض إقامتهم الدائمة فى كل مركز حضرى إلا أننا نعلم من الملاحم أن الاختصاصيين مثل صانعى الدروع غالباً ما كانوا ينتقلون ليعملوا فى خدمة مختلف السادة .

وكان النقل البحرى يتم بواسطة سفن ربما بلغ طول الواحدة مائة قدم تقريباً . وكانت تسير بالمجداف أو الشراع . أما النقل البرى فبواسطة العربات ذات العجلات التى تجرها الخيل أو الثيران والتى أنشىء من أجل سيرها بعض الجسور على الأقل فوق مجارى السيول (ولم يرد فى الأودية ذكر عقبات أمام سير العربات من ناثاريند على الساحل الغربى عبر سلاسلتين من الجبال إلى اسبرطة فى لاكونيا) .

ومن المحتمل أنه بفضل هذه التسهيلات جلبت التجارة إلى المراكز

الميسينية الكهرمان من شمال أوربا ، والذهب والفضة والقصدير والنحاس من أوربا والمصنوعات من مصر وفينيقيا وآسيا الصغرى . وفى مقابل ذلك وجد الخزف الميسينى فى جنوب إيطاليا وصقلية ومقدونيا وعلى طول سواحل آسيا وفى أعالى النيل فى مصر . كما وصل خرز Fayence أكبر الظن أنه من صنع ميسينيا وانتقل بالتأكيد عن طريق تجارهم — إلى حوض الدانوب الأوسط وأسبانيا وبريتانى وانجلترا . وتمثل هذه البقايا من المصنوعات التجارية مجرد جزء صغير من المجموع الكلى . فأغلب الظن أن اليونان كانت تصدر النبيذ وزيت الزيتون ، ومواد الصباغة والمنسوجات وتستورد المواد الغذائية والتوابل والعطور .

وكان التبادل يتم على أساس اعتراف المجتمع بالثورة كوحدة للتبادل . ويؤكد هذا ما ورد فى الأشعار الهومرية . وكان يمكن استنتاجها بدون هذه الشهادة من واقعة أن المستورد من النحاس من وزن معين كان مصبوباً فى هيئة جلد ثور مشدود . وكانت الأوزان المعينة من النحاس أو الذهب تعادل على أساس معترف به وهو اعتبار الثور وحدة لها أجزاؤها ومضاعفاتها ولم تكن النقود المصكوكة قد وجدت ، لذلك كانت كميات المعدن توزن ، وكان يجب على التاجر أن يحمل ميزاناً أو مقياساً معه (ووجدت بقايا من هذه المقاييس ، وأشهرها هى الموازين الرمزية « لوزن الأرواح » فى الحياة الأخرى) . على أنه لابد أنه كانت هناك عمليات تتم على أساس المقايضة . وتبين الأشياء التى وجدت فى المقابر والكنوز المخبوءة كما تبين الملاحم أن الثورة كانت تجمع فى شكل أباريق ومجوهرات والمقاعد والحوامل ذات الثلاث أرجل وما أشبه .

ولم يتضح أبداً التعارض بين القرصنة والتجارة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وإذا حكمنا وفق الأوديسة فإن أسلاب الغارات قد أدت إلى إثراء اليونان الميسينية . ولم تكن الحروب المتبادلة بين « الدول » المحاية تعتبر منتجة بأى حال . إلا أننا إذا حكمنا بالتحصينات السيكولوبية فى

القلاع ، وظهور الأسلحة بشكل بارز فى المقابر ، وشيوع مناظر المعارك فى الفن فيمكن أن نقول إن هذه الحروب كانت أمراً معتاداً . فبالإضافة إلى المقلاع والقوس والسهام نجد كثيراً من الرماح ذات الأسنة البرونزية ، وسيوفاً برونزية كذلك ، ودروعاً تحمى الجسم كله من جلد الثور ، وأغطية للرأس من البرونز المطروق أو الجلد المدعم بأنياب الخنزير البرى . ولا ريب أن هذه الأسلحة البرونزية كانت غالية الثمن جداً بالنسبة لندرة النحاس والقصدير . إلا أن السلاح الحاسم حسب ما رأينا من اتضاحه فى الفن وفى القصائد الوصفية الهومرية كان هو العربة التى تجرها الخيل . ولقد كان صنع عربة حربية خفيفة وقوية بمثل الأدوات المستعملة حينذاك يتطلب وقتاً ومهارة من حرفيين مختصين ، وكانت الخيل تحتاج إلى تدريب طويل وخاصة بالنسبة للجام الخانق المستعمل فى عصر البرونز . ويمكن للمرء أن يتوقع مسبقاً أن امتلاك الخيل والعربات كان قاصراً على قلة هى التى تستهلك فائض الإنتاج الأجتماعى وتتمتع على الأقل بامتيازات الفرسان المسلحين فى العصور الوسطى الأوربية .

ويؤكد علم الآثار هذا التوقع . فكانت القلاع التى يتجمع حولها السكان كما قلنا ، أضخم من أن تكون حصوناً بأبهائها الواسعة تلك . وكانت المدافن المحيطة بكل قلعة تشمل بجانب القبور العائلية المنحوتة من الصخر التى سبق وصفها عدداً من القبور ذات القباب Tholoi وهى مقابر على شكل خلايا النحل مبنية من الطوب الفاخر سواء فى حفرة أو على سفح تل أو قمته ومغطاة بقبة مستديرة عالية . وعلى عكس القبور الصخرية التى كانت تحتوى عدة موتى يبدو أن هذه القباب كانت مخصصة لجثة واحدة فقط . وعندما كان القبر يوجد سليماً(١) كانت توجد بجانبه ثروة من الملابس والأدوات تفوق من حيث الكم والكيف ما يوجد فى مقبرة أغنى عائلة . وكان التباين بين القصر والقبة من ناحية ، وبين المنزل والقبور الصخرية من ناحية أخرى

---

(١) كما فى دندرة . بيرسون « القبور الملكية قرب دندرة فى ميديا » ١٩٣١ .

يرمز إلى انقسام المجتمع الميسينى إلى طبقتين — الحاكمين والمحكومين ، الرؤساء والأتباع ، الملك والرعية . وكان الحاكم يحتكر فائض الإنتاج الاجتماعى الذى ينتج فى منطقته وبهذا يتمكن من الحصول على التسابح الذى لا يدعم مركزه فحسب وإنما هو أساسى كذلك للدفاع عن شعبه ضد الجيران والأجانب .

وهذا الترتيب يطابق بالضبط المجتمع الهومرى الذى يحكمه « ملوك مقدسون » حيث تكون المعارك الحربية قتالا فردياً بين الأمراء المسلحين الذين يركبون العربات . ويصف هومر المجتمع اليونانى فى ذلك الوقت على أنه مقسم إلى عدد كبير من الدول المتميزة التى تقع كلها تحت سيطرة أجا ممنون ملك ميسينيا والتى ربما كان عليها أن تسانده فى الحرب ولكن ليس فى شكل جزية مفروضة بعد . ويلقب أجا ممنون « بملك الرجال » وليس « ملك الملوك » وكما كان يلقب الملك البابلى أو الحيثى أو الأشورى . وهكذا فمن الناحية الأثرية توحى المراكز المحصنة للسكان بنظام لا تتمكن فيه سلطة مركزية أن تحفظ النظام العام على نطاق البلد كلها — أو حتى على سهل الأرجيق بكامله . ومن ناحية أخرى فإنه من الواضح أن ميسينيا هى أغنى المدن . وحكامها يدفنون فى أفخر المقابر ذات القباب ، وهذه المقابر من نفس النوع ، ولكنها أكبر قليلا وأكثر زينة من كافة القباب المنتشرة فى أجزاء اليونان الأخرى والقريبة من ميسينيا كأراجيف هيريام **Argive heraeum** ودندرة . ونحن لا نحتاج إلى وصف هومر إلا لتأكيد البناء الذى يقيمه علم الآثار لنظام الدولة فى ميسينيا .

وحتى بالنسبة لنظام القرابة يمكن استخلاص عدة استنتاجات ، فالقبور الصخرية التى تحتوى على عدة جثث مدفونة وراء بعضها بالترتيب وتحمل كلها « شبهاً عائلياً » — على الأقل فى حالة واحدة — تفترض الاستغلال الاقتصادى للعائلة الطبيعية . وكما رأينا تكون هذه المقابر مدافن صغيرة حول كل قلعة وتتجمع القبور داخل كل مدفن فى مجموعات صغيرة

ويقترح تونتاس أن كل واحدة من المجموعات الصغيرة تنتمي إلى عشيرة واحدة ، وأن كل مدفن يقابل جماعة أكبر هي القبيلة — ولو أن أدلته أقل إقناعاً في هذه الحالة . وهذا فرضاً ، إلا أنه مثبت لدينا أحد التفصيلات . فقد وجد المنقبون السويديون في مقبرة ذات قبة في دندرة الملك والملكة مدفونين في وقت واحد ومع كل منهما ثروة من الملابس والأدوات مساوية للآخر . ومعنى هذا وجود نظام الزواج الوحداني في الأسرة الحاكمة كما أكد لنا هومر . ولكن هل يشير إلى وجود نظام (الساتي) أي دفن الزوجة مع الزوج لم يؤكد لنا هومر هذا ، ولكنه محتمل كما في المثل السابق . وفي النهاية نلاحظ أنه لم يكتشف بعد معبد أو ما يشبهه في اليونان الميسينية . ولا توجد أدلة إطلاقاً على وجود كهنة محترفين .

وتبين الكنوز المستخرجة من القبور المنحوتة Shaft gaves في ميسينيا ومن القبور ذات القباب أن الحاكم الميسيني أو الهيلادي Hellade المتأخر كان يستطيع أن يجمع ثروة طائلة من الضرائب التي يدفعها أتباعه وهدايا الأمراء الآخرين ومن النهب . وفي نفس الوقت قننت الموازين والمكاييل . وفي مثل هذه الظروف تم اختراع الكتابة في ما بين النهرين . وحتى في كريت المينوية ظهر نوع من الكتابة والترقيم العددي واستخدم في الحسابات لعدة قرون قبل أن يبدأ العصر الميسيني على أرض اليونان . ولقد استعار الميسينيون الكثير من الأساليب والمخترعات من المينويين ، رسامي الفريسكو ، وصناع الدروع ، والصياغ وغيرهم . وكان الكثير من الحرفيين ممن تدربوا في كريت يشتغلون في القلاع الميسينية . ولكن وفقاً لما بأيدينا لم يستخدم فن الكتابة عموماً . ولم نجد على أرض ميسيديا سوى عدة جرار عليها لافتات قصيرة بحروف مينوية . وعدد قليل من الألواح عليها « شخبطات » ومكتبة واحدة بها عدة أقراص عليها حسابات . واكتشفت هذه الأقراص في عاصمة نسطور عام ١٩٣٨ وهي تنتمي إلى المرحلة الأخيرة من الحضارة الميسينية . فقد عمل عدد قليل من التجار

والحرفيين المتعاملين على أرض ميسينيا ، كما كان أحد الرؤساء يستخدم كاتباً للحسابات قبيل نهاية الحضارة . ولكن يبدو أن أهل ميسينيا قد عاشوا حياتهم دون استخدام الكتابة بشكل منتظم حتى للأغراض الاقتصادية ولا توجد أدلة على أن التقاليد التاريخية أو الملاحظات العامية أو حتى التعاويذ السحرية كانت تدون . كذلك لم تذكر الأشعار الهومرية الكتابة سوى مرة واحدة بشكل مبهم فى عبارة « إشارات حزينة » .

وهكذا تقصر الحضارة الميسينية عن بلوغ المستوى الذى وضعناه للمدينة . ومهما كان الأمر فإن القلاع الصغيرة التى تجمع حولها مجموعة من الأكواخ تنتمى إلى فئة أخرى غير مدن العصر البرونزى فى ما بين النهرين أو الهند التى كانت ترتفع أسوارها حول مساحة تزيد على المائة فدان . ورغم الحرفيين الاختصاصيين والتجار فهى ليست بمدن(١) . إذ لم يبلغ تراكم الثروة والسكان المنطقة الحرجة . وهكذا يتأكد استخدام محكنا التشخيصى — الكتابة — ويسرى مضمون المدنية بهذا المثل .

---

(١) يوجد أساس الشك فى أن المدن الحديثة — مثل ارجوس وطيبة — تحتل نفس المواقع التى كانت تحتلها مدن ميسينية أكبر وأكثر « تحضراً » من ميسينيا وتيرنز إلا أنها مع ذلك أصغر مدن أور او آثور .

الفصل الخامس

التفسير الاجتماعى للمعلومات الأركيولوجية

يستطيع علم الآثار — كما رأينا — إذا واتته الظروف أن يمدنا بدلائل كافية لتكوين صورة دقيقة نوعاً ولو أنها دائماً ناقصة لا عن التكنولوجيا فحسب وإنما عن الاقتصاد الكامل للمجتمعات التى لم تعرف الكتابة بعد . ولكن المؤسسات الاجتماعية أصعب فى الإمساك بها . إلا أنها هى بالتحديد مركز اهتمام علم الاجتماع . وقد اهتمت نظريات التطور الاجتماعى — التى تناولناها فى الفصل الأول — أول ما اهتمت بتطور البناء الاجتماعى . وصنفهم هوبهاوس وجينزبرج وهويلر (١) المؤسسات الاجتماعية تحت عناوين الحكومة ، والعدالة ، والأسرة ، والمرتبة ، والملكية ، والحرب — ويجب أن نضيف إليها الديانة المنظمة (فى مقابل المعتقدات) ومن المعترف به أنه ليس من السهل تحديد مجال كل منها . فهى كلها بالتأكيد تتفاعل مع بعضها البعض ، كما أن مجالاتها المتعددة تتداخل تداخلا كبيراً لدى القبائل البربرية والمتوحشة التى نصادفها اليوم . فغالباً ما تكون أجهزة الحكم هى نفسها التى تدير شئون الديانة المنظمة . وعندما نطبق التقسيمات والتعريفات التى نصف بها كل مجال على المجتمعات الأمية أو حتى المجتمعات المدنية الأولى نجد أنه تنقصها الدقة والحسم اللتان تتصفان بها فى دول أوربا وأمريكا الشمالية اليوم .

وتبين الأمثلة التى سبق إيرادها أنه يمكن لعلم الآثار فى ظروف معينة ومع التحفظ دائماً أن يمدنا ببعض البيانات فيما يتعلق بشكل الحكومة والأسرة والاعتراف بالمراتب وتوزيع الإنتاج الاجتماعى وممارسة الحرب . إلا أنه لن يتمكن من أن يخبرنا بشىء عن سير العدالة والعقوبات المستخدمة

---

(١) الحضارة المادية والمؤسسات الاجتماعية للشعوب البسيطة (١٩٢٦) .

لإقرارها ولا عن مضمون القوانين ، ولا عن أساليب تحديد انتقال الملكية (ولا أقول وراثتها) . ولا عن القيود المحددة لسلطات الرؤساء ولا مدى سلطانهم . لقد ضاع بلا رجعة محتوى المعتقدات الدينية وطبيعة المكانة التي كانت تسبغ على أصحاب المراتب المختلفة . وأسوأ من هذا كله أن الأدلة السلبية لا قيمة لها ، فالقبور الفخمة أو القصور قد تكون دليلا على وجود الرؤساء ، ولكن غياب الأدلة لا يثبت عدم وجودهم . كما أن كثيراً من الأدلة التي نحصل عليها غالباً ما تكون مبهمة .

وفيما يتعلق « بالحكومة » ، فإننا بدون وثائق مدونة لا نستطيع تكوين أية فكرة على الإطلاق عن مدى الوحدات السياسية ، ما عدا حالتين شاذتين جداً : لكن ذلك وبشكل تقريبي . إذ أن عمومية الحضارة ، على الأقل بالمعنى الأثرى ، لا تعنى بالضرورة الوحدة السياسية . ففى الألف الثالث قبل الميلاد ظهرت فى الجزء الأدنى من ما بين النهرين وحدة ملحوظة فى الحضارة التى كشف عنها عالم الآثار شملت حتى أشكال العبادة العامة ، وكانت لها لغة مشتركة وتعترف بعدد من الآلهة المشتركة ، إلا أنها كانت مقسمة بين ما يزيد على عشرة من الدول المستقلة تماماً والتى كانت غالباً ما تحارب بعضها بشراسة . أما مصر المعاصرة والتى كانت لها وحدة حضارية مشابهة فقد كانت دولة واحدة ، وفى هذه الحالة يستطيع عالم الآثار أن يستنتج الوحدة السياسية من وجود مدفن ملكى واحد دون مساعدة السجلات المكتوبة . لذلك يكون من التسرع أن نساوى بين الحضارة من وجهة نظر عالم الآثار وقبيلة لدى عالم الاثنوجرافيا إذا كانت القبيلة تعنى وجود حكومة واحدة ، واستبعاد الحروب (غير أحقاد الدم) بل والاعتراف بحق الزواج المتبادل بين بطونها .

أما حجم الجماعة المحلية فلا يعنى سوى عدد العائلات التى تعيش فى نفس المكان . ولا يمكن استنتاج مساحة رقعتها بشكل مباشر . فعندما تظل المحلات يحتلها السكان لمدد طويلة وتتكون تلال من بقايا القرى التى بنيت

وانتهت وأعيد بناؤها وهكذا ، ويمكن اعتبار نصف المسافة بين تل وآخر من هذه البقايا دليلا على المساحة التى كانت تحتلها القرية . ولكن فى أوربا نظراً للزراعة الانتقالية وطول الفترات الأركيولوجية لا يمكننا افتراض أن قريتين متقاربتين متعاصرتين . فقد تكون إحداهما مقراً لنفس سكان القرية الأخرى منذ عشر أو اثنتى عشرة سنة .

وبداخل الوحدة المعترف بها فإن الشكل الوحيد للحكومة المحتمل اكتشافه — أو المتوقع فى الحقيقة — هو نظام الزعامة[Clieiftainsluip ويمكن استنتاج وجوده إذا كان أحد المنازل فى محلة ما أكبر بشكل واضح وأكثر اتساعاً وأفخم أثاثاً من كل الباقين ، أو إذا كانت قلة من القبور فى المدفن أكثر ثراء فى محتواها من الباقين خاصة إذا كان شكل القبر شاذاً أو كانت مراسم المدفن تصحبها تضحية بالإنسان أو غير ذلك من الاحتفالات المتميزة وفى شامبيانيا(١) كانت التقاليد المتبعة فى العصر الحجرى الحديث هى الدفن الجماعى فى مقابر العظام (حيث تدفن عظام الموتى) المنحوتة فى الحجر الجيرى . وكانت بعض القبور فسيحة جداً مقسمة إلى غرفة وردهة ونحتت على جدرانها رسوم تخطيطية لأنثى ، وكانت فاخرة الأثاث وتحتوى على ستة أو ثمانية هياكل فقط . وكان غيرها من القبور أكثر بساطة وفقيرة الأثاث وتحتوى على أربعين أو خمسين هيكلا . ويمكن اعتبار الأولى قبور عائلات الرؤساء ، والأخرى قبور العامة وهى بذلك تشبه القبور الميسينية التى سبق وصفها وتؤيد ما استنتجناه .

إلا أن اتخاذ مثل هذا القرار ليس أمراً سهلا . فحتى فى حوض باريس المجاور وجدت قبور جماعية ذات حوائط ومسقوفة بألواح كبيرة من الحجر ربما كانت منحوتة ، وكان يستخدمها أناس ينتمون لنفس حضارة الأفراد المدفونين فى الحفر المنحوتة فى الصخر فى المسارن . ولكن يبدو

(١) تشايلد « فجر الحضارة الأوربية » .

أن كل هذه المقابر ، فى حدود ما هو معروف ، كانت محتشدة بالعظام وكلها إما متساوية الثراء ، وإما فقيرة مؤثثة بالملابس والأدوات فقط . ويبدو أنه كان من حق كافة أعضاء الجماعة الاجتماعية — ولنقل العشيرة — أن يدفنوا فيها .

وهذه القبور المبنية فى حوض باريس هى أحد أنواع فئة واسعة من القبور تسمى القبور الميجاليثية أى المصنوعة من الحجارة الضخمة وتشمل القبور الطويلة ذات القباب فى بريطانيا . وكلها قبور للعظام أقيمت بواسطة مجهودات ضخمة ولكن بأبسط الأدوات — بدون روافع أو عربات ذات عجل . وغالباً كانت الأحجار المكونة للمدفن ذات أحجام هائلة تزن حوالى ٢٠ طناً ، والسقوف كبيرة ضخمة تمتد فى كثير من القبور الإنجليزية الطويلة ذات القباب إلى ٣٠٠ قدم وارتفاعها ١٥ قدماً أو تزيد . وكانت كلها مدافن جماعية تحتوى العديد من الجثث وفى معظم الأحوال كانت تستخدمها عدة أجيال . وفى حالة واحدة على الأقل فى انجلترا كانت الهياكل بها « شبه عائلى » يوحى إلى الأنثروبولوجيين بوجود قرابة دم . إلا أن عدد الهياكل لا علاقة له بحجم المدفن أو السقف . وكان الحد الأقصى ٥٠ هيكلا — فى الجزر البريطانية — وبلغ خمسة أحياناً ، وفى الدانمارك وجد أكثر من مائة هيكل فى بعض القبور الميجاليثية . وكان كل قبر يوجد بمفرده فى العادة فى منطقة طبيعية للسكنى كتلك المزارع الصغيرة التى كانت تحتلها جماعة واحدة فى الجبال والجزر الاسكتلندية . إلا أن قبوراً من نوع معين تنتمى إلى الحضارة المسماة بحضارة بوين Boyne تكون فى إيرلندا نوعاً من المدافن المنتظمة — تسعة وستون قبراً فى كاروមور وسليجو ، وأربعة عشر فى جبال بريكليف فى نفس المقاطعة — ومدافن أخرى على مستوى أصغر فى كايثنس وناربن .

ويثور سؤال : هل كان لكافة أعضاء الجماعة حق الدفن فى هذه القبور الفسيحة أم أن ذلك كان قاصراً على الرؤساء وعائلاتهم ؟ . والاحتمال

الأكبر أنه لا توجد إجابة واحدة تنطبق على كل القبور . ففى مجموعة بوين لا يحتمل أنه كان هناك ستون رئيساً فى كارومور لذلك فإن هذه القبور يجب أن تقابل قبور العامة فى اليونان الميسينية . ومن الناحية الأخرى فإن القبور الكبيرة الحسنة البناء والدقيقة النحت التى تنتمى لنفس الحضارة والتى وجدت فى نيوجرانج ونوث ودوث تبدو قبوراً ملكية حقيقية ويجب مقارنتها « بالثولوى » الميسينى . وعلى العكس فإن القبور المزدحمة فى شمال أوربا أو حوض باريس تبدو مدافن جماعية حقيقية ، يجد فيها كافة أعضاء الجماعة مستقراً نهائياً . وصعوبة تطبيق هذا التفسير على القبور الإنجليزية الطويلة ذات القباب أنه من الصعب تصور كيف يمكن لمجموعة صغيرة — عائلية تضم على الأكثر ثلاثة أجيال مثلا — أن تنقل وتقيم هذه الحجارة الضخمة أو تجمع هذه الكمية الخيالية من الملاط المستخدمة فى السقف . والاعتراض على اعتبارها قبوراً للزعماء أنه لم تكتشف مدافن معاصرة للعامة : ويمكن بالطبع اقتباس أمثلة أثنوجرافية من أفريقيا وغيرها حيث كان الدفن الاحتفالى خاصاً بالرؤساء فقط أما أجساد بقية الناس فكانت تترك فى الغابات لتلتهمها الحيوانات والطيور الجارحة . إلا أنه من السهل كذلك أن نورد أمثلة حيث كان رجال القبائل رغم انتشارهم على مساحة واسعة يتعاونون على إقامة أبنية يحتفلون ويرددون الشعائر فيها .

وعلى أى حال فإن الأدلة الأثرية على الزعامة سواء كانت مستخلصة من المساكن أو من القبور لا تنير لنا السبيل عن طبيعة السلطة التى كان يتمتع بها الرئيس ولا عن مصدرها . وكل ما نستطيع استنتاجه هو وجود أشخاص يتمتعون بمكانة خاصة وثروة غير عادية . ويمكن الحصول على هذه المكانة بين القبائل المنبربرة والوحشية المعاصرة بعدة وسائل مجرد الأقدمية ، أو بالوراثة ، أو بقوة السحر ، أو بالشجاعة فى الحرب — وتختلف درجة السلطة السياسية أو النفوذ اختلافاً كبيراً حسب مصدرها .

فحيثما — مثلا — يظل أفراد العائلة الواحدة معاً فى مسكن واحد أو

وحدة اقتصادية واحدة لثلاثة أو أربعة أجيال فإن الأب أو الأم الذى يرأس العائلة يتمتع بهذه المكانة . وعندما نجد — كما فى العصر البرونزى فى بريطانيا — جثة واحدة مدفونة بشكل ظاهر فى مركز حافة من الجثث المدفونة بشكل عادى فمن المحتمل أن تكون الجثة الوسطى هذه للأب أو للجد الأكبر للجماعة الذى دفن حوله بعد ذلك بقية أعضاء الجماعة . وبشكل عام فإن أقصى ما يعنيه الأثرى بكلمة رئيس هم الأشخاص الذين يحتكرون جزءاً ملحوظاً على الأقل من فائض الإنتاج الاجتماعى . ولكن حتى ولو كان هؤلاء الرؤساء يمارسون وظائف سياسية فلم يكن من المحتم أن يكونوا متفرغين يعيشون كلية على دخل الزعامة . وحتى رئيس قبيلة الماورى رغم أنه يدين بمعظم ثروته إلى الهدايا التقليدية من أتباعه وإلى عمل أسرى الحرب أو ما يهدى إليه كزعيم فإن جزءاً منها كذلك يعود إلى مجهوده الخاص . لذلك فإنه لا يجب على الرئيس ألا يكون فقط « كريماً مضيافاً شجاعاً قادراً على فض المنازعات وعالماً بحدود القبيلة » بل يجب عليه كذلك أن يكون « نشيطاً فى جمع الغذاء وماهراً فى الحفر والوشم والنسج وبارعاً فى بناء المنازل والقوارب(١) » .

وإذا كان من الصعب التعرف على الزعماء بشكل مؤكد فى السجل الأركيولوجى ، فالتعرف على الارستقراطية أصعب بكثير . فيمكننا أن نجد فى أفريقيا وآسيا عدداً وفيراً من المجتمعات المقسمة إلى فئات بسبب الغزو عادة وفيها نجد ارستقراطية — رعوية غالباً — تحكم طبقة زراعية عادة تدفع نوعاً من الجزية . ومن ناحية أخرى نجد لدينا من الفترة القصيرة نسبياً للعصر البرونزى فى الدانمارك(٢) ليس أقل من ٢٤٠٠ قبة تغطى قبوراً مؤثثة أثاثاً فاخراً بأسلحة برونزية جميلة وزينات — وكان

---

(١) جولدن ويزر « الأنثروبولوجيا » ١٩٣٧

(٢) بررهولم : العصر البرونزى فى الدانمارك .

كل البرونز بالطبع مستورداً . وتعزى هـذه الأشياء عموماً(١) إلى أرستقراطية حربية تملك الأرض والسفن . ولكن لم يوجد أى أثر لطبقة دنيا . وكما يقول بروهولم(٢) لاتوجد منازل تنتمى إلى هذه الفترة ، وعلينا أن نعتمد كلية على المدافن . وطبيعى أن بقايا المدافن من عصر سحيق كهذا لابد وأن تمثل جزءاً صغيراً للغاية من العدد الفعلى .

لذلك فإن نظرية الاستقراطية واجهت تحدياً حقيقياً . فإذا كانت الفترة الزمنية التى تمتد عبرها هذه المدافن لاتزيد على قرنين —وهذا تقدير أحد المصادر — فإن التحدى يكون له ما يبرره . ولكن مصادر أخرى تجعل هذه المدافن تمتد على طول خمسه أوستة قرون ، وعندئذ يكون من المعقول أن نعزوها إلى أقلية حاكمة —وتواجهنا مشكلة مشابهة عند مناقشة حضارة وسكس(٣) وهى بلاشك تسبق حضارة العصر البرونزى فى الدانمارك ولكنها تحتل موقعاً مشابهاً فى الحفريات كما تمثل نفس المرحلة فى التتابع التطورى . وقد وجد من هذه الحضارة حوالى مائتى قبر مؤثثة تأثيثاً فاخراً ومزودة بأسلحة برونزية وحلى مصنوعة من الذهب المستورد والكهرمان وحتى Feyence المصرى أو الميسينى . والوصول إلى شىء مؤكد مستحيل فى الحالتين .

إلا أنه توجد على الأقل حالة واحدة ينعكس فيها بوضوح انقسام المجتمع إلى طبقات فى السجل الأركيولوجى . ففى مصر خلال الحقبة التاريخية سواء فى ظل الدولة القديمة أو الوسطى يوجد تناقض صارخ بين قبور الفراعنة والنبلاء من ناحية وبين قبور العامة من ناحية أخرى . فهى تختلف فى الشكل والطقوس والأثاث الجنائزى ، وحتى إذا لم توجد أية

---

(١) برونلستيد : العصور القديمة فى الدانمارك .

(٢) بروهولم : العصر البرونزى فى الدانمارك .

(٣) بيجوت « العصر البرونزى المبكر فى وسكس » ١٩٣٨ .

نصوص نستطيع أن نلحظ بسهولة أننا نتعامل مع طبقتين مختلفتين . وقد يكون هذا راجعاً إلى الأهمية الخاصة التى تتمتع بها عملية الدفن فى المجتمع المصرى ولذلك فقد تكون فريدة من نوعها . ففى بابل وآشور لا يمكننا أن نميز سوى التناقض بين القبور الملكية والعادية ، إلا أن هذا إذا لم يكن راجعاً إلى خلل فى السجل الأركيولوجى فقد يعنى أن كبار الملاك وكبار الكهنة لم يكونوا طبقة متميزة ذات مكانة اجتماعية خاصة .

والاختلاف بين أثاث كافة القبور الفردية يمكن ملاحظته بالطبع وهو يشير بلا شك إلى الاختلاف فى الثروة ، ولكنها خلافات متدرجة فمع أن زينات وزخارف القبر الفقير والغنى قد تتباين تبايناً كبيراً إلا أنه لا توجد بينهما نقطة فاصلة يمكن القول عندها بأن هنا تنتهى الطبقة الفقيرة وتبدأ الطبقة الغنية . وهذه الاختلافات المتدرجة فى الثروة تلاحظ حتى فى قبور العامة من المصريين .

وإذا كان التعرف على الرؤساء والارستقراطية صعباً من الناحية الأثرية فلا شك أن التعرف على العبيد أصعب بكثير . فلم نحصل بشأنهم على أدلة أثرية واضحة نوعاً إلا فى حضارات عصر الحديد المتأخرة التى اتصلت بالدول المتمدينة عندما عثرنا على السلاسل الحديدية المستخدمة لربط الجماعات . إلا أنه حتى المدافن الأسبق زمنا كانت بها أحياناً إشارات غير مؤكدة . فالضحايا الذين يقدمون فى جنازات الرؤساء لا يلزم بالضرورة أن يكونوا عبيداً ، فمن المعروف أن المتبربرين كانوا أحياناً يرغبون فى أن ينالوا شرف اتباع زعيمهم إلى العالم الآخر . ولكن فلنميز بين الأوضاع المختلفة : غالباً ما نجد حالات يوجد فيها جسدان من نفس الجنس مدفونان معاً أحدهما تصاحبه هدايا جنائزية كثيرة والآخر لا يوجد معه شئ . فى هذه الحالة يحتمل أن يكون هذا الأخير عبداً . ومع ذلك فيجب أن

نلاحظ أنه فى حالتين فى اسكتلندا (١) تم التأكد منهما كان الهيكلان العظميان ينتميان لرجلين من نفس النوع الفيزيقى — عصر البيكر الدخيل — ويبدو من غير المحتمل أن الغزاة القليلى العدد قد جعلوا من بعضهم البعض عبيداً .

وهناك نوع آخر من التقسيم — يرجع إلى التخصص فى العمل — قد يخترق التقسيم القائم على أساس المرتبة . ففى السجل الأثنوجرافى نجد أن الاختصاصيين ، بمعنى الخبراء المهرة — فى صياغة الأسلحة وصناعة الشباك والخزف وغيرها من الحرف — أو حتى فى السحر أو الفلكلور قد ورد ذكرهم فى كافة المستويات الاقتصادية ما عدا الدنيا . وعموماً يكون مثل هؤلاء متخصصين غير متفرغين (٢) ، فهم فى الأصل صيادون أو صيادو أسماك أو مزارعون ولا يمارسون مهاراتهم الخاصة هذه ليحصلوا منها على قوتهم مباشرة بل بالإضافة إلى عملهم الأصلى ليكملوا بها إنتاجهم الشخصى . ومثل هؤلاء الاختصاصيين غير المتفرغين لا يمكن التعرف عليهم فى السجل الأركيولوجى وربما كانوا لا أهمية لهم بالنسبة لتصنيف يقسم تطور المجتمع إلى مراحل زمنية . أما الاختصاصيون المتفرغون فهم أولئك الذين لا ينتجون بأنفسهم غذاءهم ولكن ينالونه من فائض الإنتاج الاجتماعى فى مقابل ممارستهم حرفهم أو مهاراتهم . وليس التعرف عليهم أركولوجياً أسهل ولكنه يستنتج عادة من المشابهات الأثنوجرافية والتاريخية . وعلى أساس هذه الأخيرة فإن صناع المعادن والخزافين الذين يستخدمون العجلة يعتبرون متفرغين كما يمكن كذلك تمييز قلة من الحرف الأخرى فى التجمعات المدنية . أما فى المجتمعات التى لم تعرف القراءة والكتابة فلدينا ما يبرر رفض فكرة الاختصاصيين المتفرغين كل الوقت .

ومن ناحية أخرى توجد أدلة أركيولوجية على قيام التخصص بين

(١) بيجوت « العصر البرونزى المبكر فى وسكس » ١٩٣٨ .
(٢) تشايلد « سكتلندا قبل الاستكلنديين » .

الجماعات وبعضها . فحتى فى حضارات العصر الحجرى الحديث نعلم بوجود جماعات من مستخرجى الصوان وصناع الفئوس كانت منتجاتهم تصدر على نطاق واسع . وكان هؤلاء المعدنون وصناع الفئوس متخصصين ولا شك ، ولكن هل يجوز مقارنة مساكنهم بقرى المعدنين أو المدن الصناعية اليوم ؟ ومثل هذا التخصص بين الجماعات ظاهرة مألوفة بين البرابرة المعاصرين فى ميلانيزيا مثلا . ولكننا لا نجد أن صناع السلال فى لويا بجزر التروبرياند(١) أو صناع الخزف فى آمفات يهجرون زراعة أراضيهم أو صيد السمك حتى يكرسوا حياتهم لصناعة الزهريات أو صناديق جوز الهند . فكانوا يقومون بحرفهم بالإضافة إلى ممارستهم لوظائفهم الأولية . ويزيدون من ثروتهم فى الطعام أو السلع بمقايضة إنتاجهم . وكان معدنو الصوان فى جرايمز جريفز فى نورفولك أو فى سبين فى بلجيكا ، رغم أدواتهم البائسة يجدون الوقت الكافى ليرعوا قطعانهم بل ويزرعوا قطعاً صغيرة من الأرض إلى جانب التنقيب وصناعة الفئوس من عروق الأحجار المستخرجة .

ويتقبل علماء الآثار بلا جدال حقيقة أن العائلة الطبيعية المكونة من الوالدين والأطفال هى ضرورة بيولوجية . ولكن الأسرة كمؤسسة ، كوحدة تعاونية ووسيلة لنقل الملكية والمكانة شيء مختلف تماماً ويختلف أمره بشكل يدعو للدهشة . فالنسب قد يرجع إلى الأم أو الأب أو إلى كليهما . ومن الطبيعى أنه لا يوجد أثرى ما يمكننا من تمييز نظام القرابة الأبوى أو الأموى بشكل مباشر . ولكن توجد مدرسة من علماء الاجتماع(٢) تعتقد أن الانتساب إلى الأم يضفى على المرأة مكانة أكبر مما تتمتع بها فى المجتمعات الأبوية الشائعة وتكاد فى الواقع تقلب دور كل من الجنسين فيها . وهذا المفهوم عن « الانتساب إلى الأم »(٢) يبدو مبالغاً

(١) مالينوفسكى « حدائق المرجان » .

(٢) لوى « المجتمع البدائى » ١٩٢١ — بونهار « المرأة فى مجتمعات حق الأم البدائية » ١٩٣١ — تومسون « أيجيا فى ما قبل التاريخ » ١٩٤٩ .

فيه فى الحقيقة . ففى معظم المجتمعات الأموية يكون الخال لا الأم هو الذى يحظى بميزات الأب فيما يختص بالأولاد وممتلكات العائلة . وفى بعض الحالات القليلة جداً كقبائل خازى فى أسام والايروكوا وغيرهم من الهنود الأمريكيين تمتلك المرأة المنزل والممتلكات وتتخذ دور القيادة بشكل عام . إلا أنه حتى بين الايروكوا كان الزعيم رجلا دائماً «ولو أن الأم كان لها دخل كبير فيما يتعلق باختيار خلفه وتعيينه كزعيم » (جولدن ويزر) .

وعلى أى حال فإن عالم الآثار لا يأمل فى التعرف على حقوق الأمومة المفترضة إلا أن بعض الرسوم التخطيطية لشخصيات أنثوية قد اتخذت دليلا على ذلك . وكانت هذه الأشكال محفورة فى الحجر الرخو أو منحوتة من سن الماموث لدى متوحشى المرحلة العليا من العصر الحجرى القديم ، كما كانت تلك التماثيل الصغيرة المصنوعة من الخزف أو المنحوتة من الحجر أو العظم شائعة لدى مجتمعات العصر الحجرى الحديث . ولا تزال تصنع لدى بعض المجتمعات ولكن فى سياق تاريخى حديث . ولا يقتصر ذلك على التماثيل العديدة لعشتروت فى بابل وآشور وفينوس فى اليونان وروما ، بل إن التماثيل المعاصرة للعذراء يمكن اقتفاء تاريخهـا إلى الوراء حتى تماثيل ما قبل التاريخ فى العصر الحجرى الحديث على الأقل . ولنا أن نتساءل هل كانت تماثيل ذلك العصر الحجرى تدل على عبادة إلهة فى الإناث . كما فعل من جاء بعدهم أم لا . إلا أنها كانت على الأقل ترمز إلى طقس ما للخصب قائم على أساس الاعتراف بالقوى الخلاقة للنساء . ولما لم توجد أى تشخيصات للذكور أو لعضو التناسل الذكرى فى العصر الحجرى القديم وحضارات العصر الحجرى الحديث الأولى فيمكننا أن نفترض أن دور الأب فى عملية الإنسال لم يكن قد أدرك بعد ، كما هو الحال لدى بعض القبائل المعاصرة . وظهرت رموز القضيب لأول مرة فى عصر البرونز

ومعاصرة أو قريبة من حضارات العصر الحجرى الحديث المتأخرة . ولكن هل تدل تماثيل الإناث فى حد ذاتها على الانتساب إلى الأم أكثر مما تدل تماثيل فينوس والعذراء الموجودة فى المجتمعات التى ثبت أنها أبوية ؟

وتوجد أدلة أكثر إيجابية ولكنها لا تزال غامضة فيما يتعلق بمكانة الجنسين فى المدافن . فالقبور التى تحتوى على ذكر وأنثى دفنا فى وقت واحد ، ولو أنها غير عادية دائماً ، منتشرة بشكل واسع عبر الزمان والمكان. فما وجد منها فى القرم وبريتانى يعود إلى العصر الحجرى الحديث ، وما وجد فى سيبريا يعود إلى قبائل الصيد المتأخرة وإلى حضارة العمرة فى مصر قبل الأسرات (ولم توجد فى حضارة البدارى (١)) . وفى مرحلة العبيد فيما بين النهرين . وفى أوربا المعتدلة تشيع فى حضارات العصر الحجرى الحديث خاصة المتأخرة منها ثم عصر الفايكنج ، كذلك اكتشف قبر ملكى فى دندرة فى اليونان الميسينية . ومثل هذا المدفن المزدوج يفسر عامة باعتباره نوعاً من « الساتى » حيث ترغم الزوجة أن تتبع زوجها إلى الحياة المستقبلة . ويبدو أنه وجدت نصوص تبرر هذا التفسير فى الحالات المتأخرة — بين الكلت فى عصر الحديد والفايكنج . وفى أحد قبور الصيادين فى سيبريا تأكد أن المرأة —وكان معها طفل— قد قتلت رمياً بالسهام .

وإذا قبلنا هذا التفسير ، يترتب عليه بالطبع قبول العائلة التى تنتسب إلى الأب ولو أنه ليس من الضرورى أن يكون الزواج فيها وحدانياً . ولكن يجب ألا ينطبق هذا على كل حالة . ففى عدد من الحالات النادرة حيث فحصت الأجساد فحصاً دقيقاً بواسطة علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية وجد فارق ملحوظ بين عمرى الجسدين . فى حالة قبر الأم الذى يعود إلى العصر الحجرى الحديث كان سن الذكر من أربعين إلى خمسين عاماً بينما كان سن

---

(١) برنتون « حضارة البدارى » ١٩٢٨ .

الأنثى من عشرين إلى خمسة وعشرين . ومثـــل هؤلاء الإناث أصغار فى السن المدفونين مع رجال مسنين يوحى بأنهن كن محظيات أو إماء . وحتى لو كان الأمر كذلك فإنه لا يدل على مكانة عالية للمرأة ، التى تبدو وكأنها كانت تعتبر جزءاً من المتاع الشخصى للذكر المتوفى .

إلا أنه من الناحية العملية فإن العائلة الطبيعية نادراً ما تتفق مع العائلة باعتبارها « مؤسسة » كما يحدث لدينا . بل هى فى الغالب وحدة أكبر من العشيرة التى تنتسب إلى الأب أو إلى الأم والتى تمتلك وتنقل الممتلكات ، وتضمن عن طريق « رباط الدم » أمن الفرد . وهى تتخـــذ اليوم أشكالا عديدة ، من العائلة الموسعة التى يعيش فيها جيلان أو ثلاثة من سلالة جد معروف معين فى منزل واحد ، إلى العشيرة التى قد يكون الجد فيها كائناً أسطوريا وعلاقات القرابة بين أعضائها خيالية بدرجة أو بأخرى . وقد عاشت بعض العشائر من قبـــائل الأيروكوا وغيرها من القبائل المتوحشة — أحياناً وليس دائماً — تحت سقف واحد كأسرة منزلية واحدة بالمعنى الحرفى وقد اتخذ علماء الآثار السوفييت من المنازل الكبيرة المبنية فى أوكرانيا خلال الفترات الأولى من العصر الحجرى القديم ، وفى وسط أوربا خلال الحضارات الأولى للعصر الحجرى الحديث أدلة أركيولوجية على تنظيم العشيرة ، كما أتخذوا من استبدالها فى وسط أوربا بمساكن صغيرة فى المرحلة الأخيرة من العصر الحجرى الحديث دليلا على انقسام العشيرة إلى وحدات أسرية طبيعية مستقلة اقتصادياً . وقد يكونون على صواب ولكن هذا لا يعنى بالتالى أن وجود المنازل الصغيرة الملائمة لأسرة طبيعية واحدة يتناقض مع وجود تنظيم عشائرى .

ويمكن الحصول على أدلة أفضل من القبور على الأقل حيث كانت تمارس عملية الدفن الجماعى . فالمقابر الجماعية الكبيرة فى كريت فى العصر المينوى المبكر والقبور الميجاليثية الضخمة فى غرب وشمال أوربا يجب اعتبارها قبوراً عشائرية .

وبعد نظام القرابة تنتقل بالطبع إلى الملكية . فالملكية الفردية للأسلحة والأدوات والحلى التى كان الفرد يرتديها ويستعملها ويتفق مع « الشيوعية البدائية » ويمكن التعرف عليها حتى لدى أبسط المتوحشين اليوم . ويبدو أن علم الآثار يؤكد وجودها أيضاً فى المراحل الأولى من العصر الحجرى القديم من طقوس الدفن « وعلامات الملكيــة » المحفورة على الأسلحة المصنوعة من العظم أو العاج . إلا أن أرض الصيد لدى هؤلاء المتوحشين كانت تمتلكها « العشيرة » عادة بشكل جماعى ، كما كانت تقسم مراحل عملية الصيد بين كافة أعضاء المجموعة . ولو أن هذا الموضوع لا يمكن البرهنـة عليه أركيولوجيا إلا أنه من المحتمل أن يصح بالنسبة للفترات المبكرة من عصور ما قبل التاريخ .

وبالطبع فإنه فى ظل الظروف الاقتصادية البسيطة غالباً ما يكون الفرد قد صنع بنفسه الأدوات المملوكة له أو حصل عليها بطريق التبادل البسيط . وتعتبر هــذه الأشياء فى الواقع جزءاً من شخصيته وتدفن معه بشكل طبيعى . إلا أنه بمرور الزمن تتخذ هذه الأشياء فى حد ذاتها قيمة مستقلة عن استخدامها العملى وتسبغ مكانة على صاحبها ، إذ تصبح ثروة ويصبح جمعها إن لم يكن غاية فى ذاته فهو على الأقل وسيلة لكسب المكانة فى المجتمع . وهذا التغيير من الصعب التعرف عليه أركيولوجيا . ولكن عندما تقدم تلك الأسلحة والحلى باعتبارها قرابين فى المذابح والأماكن المقدسة ، فهى تقدم على أنها ثروة وليست أدوات تستعملها الآلهة أو القوى المقدسة المفترضة . ولوحظ مراراً فى المجتمعات المستقرة أى الحضارات التى تعيش لمدة كبيرة ــ ، أن ثراء ما يدفن مع الموتى يقل شيئاً فشيئاً مع أن الثراء الكلى للمجتمع (١) يزداد . وهكذا يمكن تفسيره « بجشع الورثة » الذين يريدون الاستحواذ على كل شىء .

---

(١) تشايلد « تغير التدابير فى الطقوس الجنازية خلال ٥٠,٠٠٠ عام مجلة الإنسان ١٩٤٥ .

أما وضع ملكية وسائل الإنتاج فيختلف تماماً . فهذه الوسائل عند البرابرة هى أولا وقبل كل شىء الأرض والماشية . والأرض عند هذه القبائل اليوم ملكية جماعية للقبيلة . أو على الأقل للعشيرة . وغالباً ما تعمل فيها الأسر أو العائلات التى تختص كل منها بقطعة سواء فى فصل واحد أو على الدوام . وحتى فى هذه الحالة الأخيرة حيث تبدو قطعة الأرض للملاحظ السطحى مملوكة لمالك واحد ، يتضح بالملاحظة الدقيقة أن جزءاً كبيراً من الإنتاج يوزع على الأقارب وأهل العشيرة(١) . إلا أنه يحق « للمالك » بدوره أن يتلقى نصيباً من إنتاج الأقارب وأهل العشيرة . أما الاعتراف بحقوق الملكية كحق بيع وشراء الأرض كسلطة فإنه ينتج عن عملية بطيئة فى الزمن التاريخى . فلا توجد أدلة أركيولوجية يمكن حتى أن تنفع أساساً لمناقشة مسألة ملكية الأرض الزراعية إلا فى نهاية عصر الحديد ، عندما وجد نظام كامل للحقوق يمكن بحثه(٢) .

وقد يبدو أن ملكية أسراب وقطعان الماشية — إذا نظرنا لوضعها حالياً — تندرج بسهولة أكثر تحت باب الملكية الخاصة . إذ أن عدم دفن فلاحى العصر الحجرى الحديث للأغنام أو الماشية مع الموتى (بخلاف قطعة لحم الضأن أو البقر أو الخنزير التى تعتبر زاداً للمرحلة) قد يعنى أن هذه الحيوانات المستأنسة لم تكن فى نفس منزلة الأسلحة والحلى وكانت أقل مرتبة منها من ناحية الملكية الشخصية . ولكن الأدلة تبين أنه ما إن حل عصر البرونز حتى كانت الماشية قد انعزلت بسهولة وتبادلها الناس حتى أنها استخدمت قيمة معيارية فى أوربا . ووجدت فى حضارة العمرة المبكرة فى عصر ما قبل التاريخ نماذج للماشية فى القبور يفترض أنها معادلات سحرية للماشية الحقيقية وتدل على حق ملكيتها .

---

(١) مالينوفسكى « حدائق المرجان » .

(٢) هات « ملكية الأرض المنزرعة » .

وفى النهاية فإن السجل الأركيولوجى يمتلىء بالوثائق التى تصور الحرب ، وهو نظام قد يساهم كثيراً فى زيادة ثروة الفرد أو المجموعة سواء فى المرتبة أو اقتصادياً أو انتاجياً . إلا أن كل الأسلحة لم تكن تستخدم حتماً فى قتل الإنسان . فكان الصيادون يستخدمون القسى والسهام والمقلاع والجراب تماماً كما كان يفعل المحاربون . فبعض أسلحة الفترة المتأخرة من العصر الحجرى الحديث كبلطة الحرب وحتى الخناجر والسيوف البرونزية أو الحديدية هى بلا شك أدوات للحرب ، رغم وجود منظر ميسينى مشهور يصور خنجراً يستخدم فى صيد الأسد . ولكن رغم أن الأسلحة قد وضح استخدامها فى قتل الإنسان — كاستخدام السهام فى بريتانى فى العصر الحجرى الوسيط — فإن هذا لا يستتبع أن قتل الإنسان كان أمراً يعترف به المجتمع أو حتى ينظمه . وكانت التحصينات من الناحية الأخرى يمكن تمييزها عن الأسوار التى كانت تقام لصيد الحيوانات المتوحشة ويجب إعتبارها دفاعاً ضد الهجمات التى يوجهها الأعداء المنظمون من الإنسان — أى إعتبارها أدوات حرب .

وتكشف الأثنوجرافيا فى نفس الوقت عن أشكال كثيرة من أنواع قتل الإنسان المعترف بها — وذلك بخلاف جريمة القتل المدانة اجتماعياً . فصيد الرءوس نظام معترف به ولكنه غالباً ما يأخذ شكل ذبح إنسان على غرة بواسطة صياد بمفرده . ولا يمكن أن يسمى هذا حرباً . وثأر الدم قد يؤدى إلى معارك منتظمة بين العائلات أو العشائر داخل قبيلة واحدة أو حتى داخل القرية الواحدة . ولا يأمل عالم الآثار فى تمييز نتائج مثل هذه الصراعات ولا الأسلحة المستخدمة فيها أو أنواع الدفاع التى تقوم ضدها (كما فى ألبانيا) عن تلك المستخدمة فى الصراعات بين الوحدات السياسية المتميزة . وفضلا عن ذلك فإن علماء الأثنوجرافيا يتفقون على أن الحروب نادراً ما تقوم بين القبائل التى تعتمد على جمع الغذاء أو الزراعة البسيطة لأسباب اقتصادية — كالحصول على حق الصيد أو الأرض للزراعة — ولكن الرعاة والمزارعون يخوضون الحروب من أجل الماشية أو العبيد . كما أن

حروباً خطيرة قد قامت كوسيلة للحصول على المكانة أو غيرها من الأسباب «غير الاقتصادية» بين المتوحشين وخاصة فى أمريكا الشمالية . وعلى أى حال فإن خطب هتلر وموسولينى تكفى لتبين أن غياب الدوافع التى يعتبرها الأوربيون فى القرن التاسع عشر معقولة لا يصلح أساسا لإنكار تنظيم قتل الإنسان على نطاق واسع . ومهما كان الأمر فإنه فى أوربا فيما قبل التاريخ تزداد الأدلة الإيجابية على قيام الحروب عندما تزداد أهمية تربية الماشية فى الاقتصاد الزراعى . ولا يمكن أن يكون الارتباط بينهما مجرد صدفة .

الفصل السادس

التتابع الحضارى فى المجتمعات الوحشية

والآن فلنراجع السجل الاركيولوجى فى ضوء ما تقدم واضعين فى اعتبارنا ما إذا كانت سلاسل الحضارات التى ثبت تتابعها زمنياً تكشف عن أى تشكيل عام . لقد سبق أن رأينا أن الوحشية والبربرية والمدنية تمثل فى الحقيقة مراحل متتابعة على الأقل من ناحية التقدم التكنولوجى والاقتصادى .. ويبقى سؤالان يجب الإجابة عنهما . هل يدلنا علم الآثار على وجود مؤسسات أو أنواع من المؤسسات شائعة بين حضارات مرحلة ما وقاصرة عليها بحيث لا تتعداها إلى حضارات المرحلة التالية لها زمنياً ؟ .. بعبارة أخرى ما هى أشكال التنظيم الاجتماعى — إن وجدت — المشتركة بين كل المجتمعات الوحشية الممثلة فى السجل الأركيولوجى والتى تتغير مع الانتقال من الوحشية إلى البربرية . ثانياً هل يمكننا أن نتعرف داخل الوحشية وداخل البربرية على تقسيمات فرعية تتاو بعضها البعض بنفس الترتيب فى كل مكان كتتابع الوحشية ، والبربرية مثلا .

وللسهولة يمكن فحص السجل الأركيولوجى للوحشية من كلا الزاويتين بعيداً عن البربرية ، وينتمى خير ما يمثل تلك المرحلة أركيولوجياً إلى مرحلتى العصر الحجرى القديم والوسيط فى التصنيف الأركيولوجى . وأولهما أقدم بلا شك من أى مجتمع بربرى معروف أو محتمل . أما الثانى فقد يعاصر بعض المراحل المبكرة من البربرية فى مختلف أجزاء العالم ، ولكنها عادة ما تكون متباعدة عن بعضها البعض بحيث يمكن إهمال تأثيرها ولا يزال جامعو الغذاء بالطبع يعيشون حتى اليوم ، ومثل هذه المجتمعات يمكن دراستها فى كل من السجلين الأركيولوجى والإثنوجرافى ، إلا أن السرد الأركيولوجى دائماً أقل اكتمالا وأكثر ثباتاً من الأثنوجرافى .

ففى مرحلة العصر الحجرى القديم التى تتفق مع فترة البليستوسين — الجيولوجية ، وفى المرحلة الميزوليثية من عصر الهولوسين المبكر السابقة على ظهور إقتصاد إنتاج الغذاء فى العصر الحجرى الحديث فى أوربا المعتدلة ، أقيمت تتابعات حضارية محددة وبينما تصور هذه التتابعات بالتأكيد تقدماً فى التكنولوجيا والاقتصاد إلا أنها تقدم دلائل ضئيلة جداً وغير دقيقة دائماً عن طبيعة التغييرات الاجتماعية المصاحبة لها . ويمكن تقسيم العصر الحجرى القديم بسهولة إلى مرحلتين غير متساويتين ولكنهما واضحتا التناقض :. العصر الحجرى القديم الأدنى أو الأركيوليثيك الذى استمر زمناً طويلا جداً ربما ٤٠٠,٠٠٠ سنة والعصر الحجرى القديم الأعلى أو الميوليثيك الذى لم يستغرق أكثر من ١٠٠,٠٠٠ عام ويمكن بالطبع تقسيم العصر الحجرى القديم الأدنى من حيث الزمن والحضارات ، أو بالأحرى الدورات الحضارية ، إلا أن التغيرات الوحيدة الملحوظة هى التغيرات التكنولوجية . فالأدوات التى بقيت لنا مصنوعة من الحجر — لم تكن العظام والقرون قد استخدمت لصناعة الأدوات بعد — إلا أنه لدى بعض الجماعات فقط تحسن تكنيك شطف الأحجار وظهر بعض التفنن فى تحضير الخامات أو العروق . ونستطيع أن نلاحظ بعض التفنن التدريجى للأدوات من حيث الشكل . ثم ميلا بسيطاً نحو التخصص فى الأدوات المقننة ، ولكنه حتى لدى أحدث المجموعات التى عرفت فى أوربا وهم الموستريان لا نجد شائعاً لديهم سوى شكلين متخصصين — سكين مبططة ذات حد واحد تستخدم كذلك فى الكحت ، وسكين مدببة ذات حدين .

وخلال تلك الفترة الهائلة ظلت المصادر الوحيدة الظاهرة للغذاء هى الصيد والجمع . ولا توجد أية دلائل على وجود صيد السمك ، كما لم تكتشف أية أسلحة تقذف لاختراق الهدف ، وقد تستخدم العصى المدببة كرماح تقذف وفى الثلث الأخير من تلك الفترة ربما زودت أطرافها بقطع حجرية مثلثة .

وكان الصيادون يعيشون أحياناً فى كهوف غير عميقة ، وبالتالى كان حجم المجموعة صغيراً . ولم تتبق أية أدلة على تكوينها أو على العلاقات بينها . وقد اكتشفت جثة طفل فى كهف فى جبل الكرمل بها جرح ناتج عن آلة حادة . كما أنه لا شك فى أن الموستريان فى إيطاليا قد استخدموا الضرب للقتل . وثبت وجود ظاهرة أكل لحم البشر فى كل من الصين فى الثلث الأول من تلك الفترة وأوربا فى الثلث الأخير منها — فى كرامنيا بكرواتيا وفى مونت سيسو بإيطاليا . ولم يعرف مصدر الضحايا . ولكن قد ترجع هذه الظاهرة إلى الجوع أو المعتقدات الخرافية . ومن الناحية الأخرى بقيت لنا طقوس الدفن من الثلث الأخير . كما عرف أنه فى أوربا كانت الأدوات وقطع اللحم تدفن مع الميت إلا أن صدق هذه المعلومات موضع شك . ولكن توجد حالة فى جبل الكرمل لا شك فيها .

والهياكل العظمية لإنسان الفترة الأخيرة من العصر الحجرى القديم ، لا تشبه الإنسان الحديث . فكلها أقرب شبهاً بالإنسان القرد منها بالإنسان الحديث ، وخصوصاً غلاف المخ فمع أنه ليس أصغر بشكل مطلق إلا أنه يبين ضآلة نمو عدة مناطق من المخ وخصوصاً مناطق الارتباط . ومع ذلك توجد بعض الدلائل على أنه حتى إنسان العصر الحجرى القديم (إنسان الخمريات الذى لا ينتمى إلى الإنسان العاقل) كان يستخدم يده اليمنى ، ويستطيع التخاطب إن لم يكن بالكلمات المنطوقة فعلى الأقل بواسطة نظام محدود وبدائى جداً من الرموز أو الإشارات المتعارف عليها . كذلك كانت الأدوات الحجرية التى يستخدمها أشد المتوحشين المحدثين تخلفاً — التسمانيون المنقرضون — أكثر تقدماً من الناحية التكنيكية من أدوات المرحلة الأخيرة من العصر الحجرى القديم . ومن هنا فإنه لا يوجد مجتمع لاحظه الإثنوجرافيون يمكن اعتباره معاصراً أو ممثلا لأى حضارة من حضارات العصر الحجرى القديم .

أما فى المرحلة العليا التى تلت العصر الحجرى القديم فقد تضاعف عدد

الحضارات المتميزة بشكل كبير وأظهرت جميعها تفوقاً تكنولوجياً ضخماً على أحدث ما وصلت إليه المرحلة السابقة . فاستخدمت عموماً طريقة أكثر اقتصاداً ولكنها أكثر تعقيداً فى تحضير الأحجار المشطوفة — وهى ما تسمى أسلوب السن — ومن هذه الشفرات صنعت تشكيلة كبيرة من الأدوات المخصصة والمحددة — السكاكين ، والمكاشط ، والحفارات ، والمناشير ، ورءوس السهام .. إلخ — وبمساعدتها أمكن استخدام مواد جديدة فى صناعة الأدوات كالعظام والعاج والقرون ومنها صنعت رءوس السهام وحراب صيد السمك ، والمثاقيب ، والإبر ، والأوتاد ، والحلى وحتى أدوات النحت .

واستخدم نوع من الأسلحة المقذوفة ذات السن المدببة المصنوعة من الصوان أو العظم أو العاج خلال المرحلة العليا من العصر الحجرى القديم . واستخدم القوس لقذفها فى مرحلة مبكرة فى كل من شمال أفريقيا وأسبانيا(١). ولم توجد رءوس سهام حقيقية فى شمال الألب والبيرينية إلا فى بداية عصر الهولوسين . وفى ذلك الوقت كانت نباتات وحيوانات أوربا المعتدلة قد أصبحت تشبه مثيلاتها فى عصر البليستوسين فى أسبانيا حين كان القوس يستخدم . وخلال مرحلة السندراو لاسنبس فى شمال البحر الأبيض المتوسط ثبت استخدام قذف الرمح الذى ما زال يستعمل فى استراليا وأجزاء من أمريكا حيث لا يعرف القوس . وفى شمال أمريكا سبق استخدام قذف الرمح القوس بفترة أركيولوجية كبيرة . إلا أن بعض الرسوم الأوربية فى كهف اكتشف حديثاً فى لاسكو فى دوردونيسى والتى تنتمى إلى مرحلة مبكرة من الفترة العليا من العصر الحجرى القديم تصور ما يبدو أنه سهم مغروس فى حيوانات تم اصطيادها .

وعلى أى حال فإن كافة مجتمعات المرحلة العليا من العصر الحجرى القديم كانت تستطيع أن تصطاد بواسطة استخدام الأسلحة المقذوفة والمصايد كذلك . وفى بعض الحالات على الأقل توحى مواقع المنازل بأن الصيد كان يتم بطريقة

---

(١) كاتون تومسون « الصناعة الأثيرية » — بريكو « كهف بارابللو »

جماعية أو بما يسمى الباتوس وهو مطاردة الحيوان من الغاب إلى العراء حتى يسهل صيده . كما توجد بعض الدلائل على التخصص فى صيد نوع معين من الحيوان . فتسعة وتسعون فى المائة من العظام التى وجدت فى كهف كرواتى كان يسكنه الأوريجناسيون تنتمى لدب الكهوف . وسادت عظام الماموث فى المعسكرات الجرافينية والمورافية فى جنوب روسيا ، وفى سوليوتريه فى الدوردونى وجدت بقايا ١٠٠,٠٠٠ حصان . إلا أن عظام الرنة سادت بعد ذلك . رغم أنه فى الفن سادت رسوم البيسون عن أى حيوان آخر .

وثبت وجود صيد السمك منذ بداية المرحلة العليا من العصر الحجرى القديم ، ولكن بواسطة عظام السمك نفسه فقط . وتنتمى أدوات صيد السمك الواضحة — كالحراب — فى أوربا إلى آخر مرحلة وهى المرحلة المجدلانية ، ولم يثبت وجود الشباك والسنانير فى أى مكان قبل الهولوسين .

وكان صيادو المرحلة العليا من العصر الحجرى القديم يعيشون غالباً فى الكهوف أو يحتمون بها حيث وجدت ، وكانوا يستطيعون بناء الأكواخ أو المنازل فى مراعى الاستبس المكشوفة . وكانت المجموعة التى يمكن أن تعيش مع بعضها البعض أكبر من تلك التى كانت كذلك فى المرحلة الدنيا من العصر الحجرى القديم . ووجد فى بردموست ما لا يقل عن عشرين هيكلا عظمياً فى مكان واحد تحت الحجارة وعظام الماموث . وسواء كانوا مدفونين بالصدفة أو عن عمد فالاحتمال الأكبر أنهم ينتمون لعصر واحد ، ولكن على أى حال لا تدعو الحاجة إلا إلى دفن جزء بسيط من هذا العدد . وفى النهاية بينما لا توجد أية أدلة عن وجود عمليات النقل البرى فيمكننا أن نؤكد أن بعض مجتمعات المرحلة العليا من العصر الحجرى القديم كانت لديها أطواف يمكنها أن تعبر مضيق جبل طارق .

ومهما أمكننا استنتاج العلاقات بين الجماعات من توزع المواد . فمثلا وصلت أهداف البحر الأبيض بطريقة ما إلى وسط فرنسا وأواسط الدينبر . ولم تكتشف أية آثار لتقسيم العمل . إلا أن المهارة الفائقة التى رسم بها الفنانون

الحيوانات فى الكهوف المظلمة حيث لا يمكن أن يروا أعمالهم جيداً يوحى بتدريب طويل متخصص رغم أنه لم يكن من المحتم أن يكونوا متخصصين كل الوقت .

وكانت أولى المساكن المصنوعة صغيرة وربما كانت أكواخاً موقتة ذات غرفة واحدة (٤,٥ — ٢,٥ قدم فى جاجارينو)(١) ، وهذه تستطيع استيعاب عائلة طبيعية بسهولة . وقد كشف علماء الآثار السوفيت بعد ذلك عن وجود أبنية أكثر اتساعاً تبدو تركيبة من عدة أكواخ بسيطة تحت سقف واحد . ففى كوستينكى (١٩٤٠) وجدت ثمانية مدافىء فى حفرة مستطيلة (٣٤ متراً طولا ٥,٦ أمتار عرضاً) وصفت بأنها منزل جماعى لعشيرة . وفى تيمونوفكا (١٩٣٥) وجدت مساكن مساحتها ١٠ × ٥ أمتار متجمعة فى أزواج لكل زوج منها مدفأة واحدة . وتوحى حفرات التخزين الملحقة بكل منزل أن الطعام المختزن كان مشتركاً بين كل أهل المنزل الذين كانوا بالتأكيد أكبر عدداً من العائلة الطبيعية .

وكانت الملكية الفردية للأسلحة (السهام وحراب صيد السماك) تتضح من « علامات الملكية » المحفورة عليها ، وكذلك ملكية الحلى من وضعها مع صاحبها فى القبر .

واعتبرت التماثيل الصغيرة للنساء ، وكانت عادة بلا وجوه وتبرز فيها الأعضاء التناسلية ، اعتبرت كأدلة على وجود حق الأم ، وكانت على أى حال ترتبط بنزع من طقوس الخصب السحرية . ويمكن أن يؤسس حق الأم على دليل أكثر معقولية وهو العثور على جسدين لشابين مدفونين مع امرأة كبيرة السن فى أحد الكهوف فى جرعالدى(٢) . ولكن مثل هذا الدليل بالطبع ليس شاملا .

---

(١) زامياتنين « جاجارينو » از فستيا ١٩٣٥ .

(٢) غالبا ما وضعت فى الكتب ، مثلا « رجل الحفريات فى أسبانيا » أوبرماير — أوبول « رجل الحفريات » .

وأكثر الأدلة الموثوق بها عن الفروق فى المكانة الاجتماعية هى ظهور صورة لرجل مقنع فى وضع يبدو عليه السيطرة فى كهف الإخوة الثلاثة(١) فإذا أمكن اعتباره بحق ساحراً محترفاً فإن هذا لا يحدد لنا سلطته بل ولا يعنى أنه كان متخصصاً كل الوقت.

أما أكل لحوم البشر فالاحتمال الأكبر أنه كان لا يزال يمارس كطقس من الطقوس. ولقد اعتبر وجود جسم مقطوع الرأس احتفل بدفنه فى ويلز، وجمجمة مفرغة من المخ مدفونة فى كهف دربى شير، وكئوس مصنوعة من الجماجم البشرية، اتخذت كل هذه الأشياء دلائل على وجود صيد الرءوس، والمفروض أن مختلف أنواع السحر الخاص بالصيد هى الموحية بفن العصر الحجرى الشهير فى أواسط وغرب أوربا. وثبت تقديم بواكير الثمار كقربان بشكل واضح على الأقل فى نهاية الفترة. وكان صيادو الرنة الذين يعسكرون فى مينذور قرب هامبورج يزنون غزالا كل عام بالحجارة ثم يلقونه فى بحيرة مجاورة.

ولقد كانت بعض مجتمعات العصر الحجرى القديم فى أوربا تحتوى فنانين موهوبين ومدربين. وفن العصر الحجرى القديم عادة فن طبيعى، ولكن وجدت كذلك رسومات هندسية فى كل من شرق وغرب أوربا. ولوحظ فى شرق أوربا وأسبانيا وجود ميل نحو التعميم فى المراحل المتأخرة ولكن فيما عدا ذلك سادت الطبيعية حتى نهاية البليستوسين وما تلاه.

وحضارات العصر الحجرى الوسيط فى أوربا هى كلها تعديلات فى حضارات العصر الحجرى القديم نشأت لتتوافق مع التغيرات الجذرية فى البيئة — ولكنها فيما عدا هذه التكيفات الملائمة لا تختلف بشكل فعال عن حضارات العصر الحجرى القديم. ومع ذلك فإن الفروق الملاحظة لها دلالة كبيرة. فالمجموعات الهائلة من الأصداف — وأحياناً من جوز الهند — التى

(١) ظهرت هذه الصورة فى معظم الكتب مثل «بوركيت» العصر الحجرى القديم.

وجدت لدى كافة مجتمعات العصر الحجرى الوسيط فى أوربا تدل بشكل أكثر إيجابية على الأهمية الاقتصادية للجمع . وفى كل الأحوال كانت الكلاب المستأنسة بدرجة أو بأخرى تساعد الرجال فى الصيد . وأقدم سنانير صيد الأسماك والشباك التى بقيت فى أى مكان كان يستخدمها سكان غابات أوربا الشمالية فى العصر الحجرى الوسيط الذين يطلق عليهم — للسهولة — سكان الغابات أو الماجلوموسيون . وقد ترك لنا هؤلاء كذلك أول دلائل مباشرة على وجود وسائل النقل — المجاديف والزحافات — كما نجد لديهم كذلك أقدم أدوات النجارة ذات الكفاءة المعقولة (الأزميل والفأس والمقوار من الحجر أو العظم) وأدلة إيجابية كذلك على وجود القوس وصناعة الفخار . ويبدو أن أول الأدوات المصنوعة بيد الإنسان هذه قد اخترعت فى مكان ما قرب الدانمارك . ولكن ذلك لم يتم قبل استخدام المزارعين الأول فى العصر الحجرى الحديث فى الجزء الأدنى من آسيا لها قبل أن توجد أية دلائل أخرى على وصول مستعمرين من ذلك الجزء من العالم إلى شمال أوربا . وفى الحقيقة فإن تكنيك المنطقتين متميز عن بعضه البعض تماماً .

أما بالنسبة للتجارة فإن الأدلة على وجودها فى مرحلة العصر الحجرى الوسيط هى من نفس نوع الأدلة على وجودها فى العصر الحجرى القديم ولو أنها أكثر فى الحالة الأولى . فالحرب ليست سوى أحد الاستنتاجات من عدة احتمالات ممكنة عند اكتشاف جثة رجل يخترقها سهم . ولكن صيد الرءوس قد استنتج بشكل معقول من وجود مجموعة من الجماجم بدون أجساد مدفونة تحت طبقة من تراب الحديد الأحمر فى كهف أو دفنت فى بافاريا ، وكان عددها ثلاثة وثلاثين ، عشرون منها لنساء ، وتسعة لأطفال مما يذكرنا بنوع الأسلاب التى كانت تفضلها بعثات صيادى الرءوس الأرشانيين دون الدخول فى معركة مفتوحة . كما ثبت وجود أكل لحوم البشر كذلك .

ولم تبق أية تماثيل أنثوية توحى بوجود مكانة عالية للنساء . بل قد يوحى الدفن المزدوج فى القرم وموربيهان كما سبق أن أشرت إلى الموقف المضاد .

وتبين مدافن تيفاك أن بعض الأفراد كانوا يحظون بتشريف خاص عند دفنهم دون الباقين . إلا أنه لم يكن هناك سوى اثنى عشر قبراً لم يتميز منها بهذا الشكل سوى ثلاثة تمتع ساكنوها بمكانة خاصة لا ندرى من أين أتتهم ولا الميزات التى كانوا يتمتعون بها . وكانت الزعامة الوراثية افتراضاً سابقاً لأوانه بالتأكيد .

ولقد استغرق العصر الحجرى الوسيط زمناً طويلا — حوالى ٥٠٠٠ عام فى شمال أوربا أو ما يقرب من الزمن الذى استغرقه التاريخ المسجل كله . وبالطبع يمكن تمييز تتابع الحضارات فيه ، ولكن فى معظم الحالات كانت مكونات هذه الحضارات تختلف عن بعضها البعض فقط فى صفات مصنوعاتها الحجرية . ولم تكن هذه التغيرات شاملة وذات معنى إلا فى السهل الشمالى لأوربا ، ويمكن تفسيرها هنا بالرجوع إلى البيئة ، إذ تغير توزيع البحر واليابسة والمناخ وتكوين الغابات بشكل كبير خلال تلك الفترة . وإذا استبعدنا التكيفات العامة لهذه التغيرات البيئية فإنه يمكننا استقراء بعض الاتجاهات العامة غير المؤكدة تماماً خلال المراحل الثلاثة التى يمكن تقسيم العصر الحجرى الوسيط إليها . فهناك ميل إلى تكاثر الحضارات المتمايزة يرجع أساساً إلى اختلاف التخصص خلال التكيف للظروف المحلية المتغيرة أو لمطاردة نوع معين من الصيد ، ويستحث هذا الميل الانعزال الناتج عن فيضان بحر الشمال ومنخفض البلطيق ، وكذلك الاتصال بشعوب ذات تقاليد حضارية مستقلة . وربما ازداد التأكيد على صيد الأسماك الذى صاحبته فى بعض الجماعات ازدياد العادات المستقرة . ففى المرحلة الأولى لا نجد سوى معسكرات صيفية لصيادى الرنة الذين ربما قطعوا مسافات شاسعة من مساكنهم الشتوية المجهولة . وفى المرحلة الثانية تزداد معرفتنا بالمعسكرات الصيفية المؤقتة التى تمارس صيد السمك والدجاج البرى ، كما تمارس صيد الحيوان وجمع الغذاء . وفى المرحلة الثالثة بينما كانت بعض المجتمعات تحتفظ بهذه الحياة شبه الرعوية استقرت بعض الجماعات الأخرى فى حياة مستقرة بجانب شواطىء البحار المرتجة

على الأجزاء المأمونة من الساحل . وفى البداية لم يكن هناك سوى هذه الجماعات الأخيرة ، المسماة أهل أريتبل التى تستخدم الفخار .

وبقيت حضارات صيد الأسماك والحيوانات هذه حتى بعد ظهور أول المزارعين بمدة فى الدانمارك وجنوب السويد ولمدة أطول فى شرق الباطيق . واحتفظ هؤلاء المتوحشون « epimerolithic »(١) بالحضارة القديمة ، وكثير من المهمات القديمة بلا تغيير ، عدا إضافة صناعة الفخار فى معظم الجهات . ولاشك أن التغيرات فى أساليب صناعة الفخار يحدد تتابعاً زمنياً للحضارات ، إلا أنه لا يمكن اكتشاف أية تغيرات اجتماعية عامة حالياً . ومن الناحية الأخرى فإننا إذا أخذنا مجتمعات « ما فوق العصر الحجرى الوسيط » ككل باعتبارها تمثل مرحلة واحدة فى شرق الباطيق ووسط روسيا فإنها تزودنا بمعلومات اجتماعية لها أهميتها عن المجتمعات الوحشية الموغلة فى القدم والتى ربما لم يتناولها التعديل إلا قليلا عن طريق الاتصال مع البرابرة منتجى الغذاء .

وقد اتضح من وجود مدافن بها مقابر يتراوح عددها ما بين ٨٠ (فى جوتلاند) ومائة وخمسين (فى بحيرة أونيجا) أنه فى ظل الظروف الحسنة تستطيع جماعات كبيرة نوعاً من صيادى السمك والحيوانات أن تعيش فى مساحة صغيرة تسمح لكافة أعضائها باستخدام مدفن واحد ، كما يحتمل أن تعيش جزءاً من كل عام على الأقل فى معسكر واحد ، إذ أنه فى جوتلاند كانت المقابر محفورة داخل مساكن الأحياء أو بينها . وبين المائة أو الخمسين قبراً التى اكتشفت فى أولنى أوستروف حول بحيرة أونيجا لم تكن القبور المزدوجة التى تحتوى على رجل وامرأة دفنا معاً فى وقت واحد « غير شائعة »

---

(١) epimerolitbic عبارة تطلق على الحضارات التى تحتفظ باقتصاد العصر الحجرى الوسيط (الصيد والجمع وصيد السمك) فى ظل العصر الحجرى الحديث وتوجد بها فى نفس الوقت بعض السمات التى تنتمى عادة إلى حضارات العصر الحجرى الحديث كصناعة الفخار والفئوس المصقولة .

بل وجد فى أحدها امرأتان مع رجل واحد . وهذا يشجع الاعتقاد أن هذه القبور تمثل نوعاً من « الساتى » ولكنه تحذير أيضاً ألا نفسرها كأدلة على الزواج الوحدانى . ومن الناحية الأخرى فقد وجدت تماثيل صغيرة غير محدودة الجنس بشكل واضح وإن كانت أميل إلى أن تكون لإناث ، مثلما وجد فى العصر الحجرى القديم . وقد وجدت خمسة قبور متسعة بشكل خاص تحتوى على هياكل لرجال مدفونين فى وضع رأسى فى حفر عميقة . ولابد أن هؤلاء كانوا شخصيات بارزة وكان بصحبة أحدهم أشياء ثمينة تمنحه بلا شك لقب « زعيم » الذى خلعه عليه المنقبون السوفيت .

وسوف أكمل هذا الوصف لمتوحشى العالم القديم بتلخيص لتتابع الحضارات التى كانت شديدة الصلة فى البداية مع هذه التى سبق ذكرها وذلك فى منطقة الغابات فى سيبريا حول بحيرة بايكال كما وصفها أوكلادينكوف عام ١٩٣٨ . ففى المرحلة الأولى « إيزاكوفو » كان الصيد بالسهم وقذف الرمح أساس الحياة .. وكان الموتى يدفنون ممددين وبصحبتهم أسلحتهم أو أدواتهم ، وحليهم ، وأوانيهم .. وفى الحضارة التالية « سيروفو » وجدت كذلك أدوات صيد الأسماك ولكن كان صيد الحيوان لا يزال هو المورد الرئيسى . واستخدم القوس المنغولى العظيم كذلك ، وكانت الأقواس تدفن حتى مع أجساد النساء اللائى قد يصاحبهن أطفال . وبعد ذلك فى حضارة « كيتوى » بدأ صيد السمك يصبح أكثر أهمية من صيد الحيوان . وأصبحت خطاطيف صيد السمك تدفن فى القبور بدون القسى كما أصبح هناك تنوع ملحوظ فى أثاث القبور . وعلى الأقل كان هناك قبر واحد فاخر الأثاث بشكل خاص حتى أن صاحبه ربما كان زعيماً ما . وكان وجود بعض المواد غير الموجودة محلياً فى الطبيعة ، أولى الدلائل على قيام نوع من التجارة . وفى بعض القبور كانت أجساد النساء توجد مع الرجال « الساتى » . وفى النهاية فى مرحلة « جلازكوفو » أصبح صيد السمك هو مصدر العيش الرئيسى . وأمكن الحصول بشكل غير منتظم

على أشياء مصنوعة من النحاس الأحمر ربما أتت مع غيرها من الواردات بطريق التجارة مع مزارعى الاستبس . كما ثبت الآن وجود الحرب وذلك عن طريق وجود الأسلحة وكذلك الدروع المصنوعة من العظام . وتباينت قبور الفقراء والأغنياء . وكان يوجد فى بعض مقابر الأغنياء هيكل آخر دون أدوات خاصة به يفترض أنه لعبد . وكان أحد قبور الأغنياء يحتوى على هيكل لامرأة تحمل طفلا بين ذراعيها . وكانت ترتدى ثياباً غالية ولكنها كانت مقتولة رمياً بالسهام . ويعتبر زملاؤنا من الروس هذا دليلا على وجود السادة والعائلة الأبوية فى الوحشية .

وهكذا لا يدهشنا أن نجد السجل الأركيولوجى ناقصاً بشكل مؤسف ، وذلك فيما يتعلق بالأدلة على وجود أو عدم وجود النظام الاجتماعى ، لدى عشائر الفترة الدنيا من العصر الحجرى القديم . ولا يمكننا الخروج بتعميمات من القشور التى لدينا . وفى المرحلة العليا من العصر الحجرى القديم . وكذلك فى العصر الحجرى الوسيط حيث يزداد امتلاء السجل نجد أن معلوماته أحادية الجانب فهو لا يقدم سوى صورة واضحة عن الاقتصاد والحضارة المادية المتكيفة مع أوربا عصر الجليد ومنطقة الغابات الشمالية فى أوائل ما بعد عصر الجليد . وهذا لا يعطينا أساساً للتعميم حتى بالنسبة لتطور التكنولوجيا داخل اقتصاد جمع الغذاء . بل إنه حتى الاستنتاجات الاجتماعية الضيئلة جداً الممكنة لا تبرر استقراءنا للمنظمات وأشكال النظام الاجتماعى التى تنتمى إلى الوحشية بشكل عام .

وعلى أى حال فإنه من الواضح أن صيد الرءوس ، وأكل لحم الإنسان وبعض أنواع السحر ، وكذلك تقديم بواكير الثمار كان يمارسها بعض المتوحشين الذين لم يكن من الممكن أن يتعرضوا للتأثير « المفسد » من المجتمعات الأرقى منهم مادياً . وعلى أساس القبور المزدوجة فإنه يبدو أن نساء الوحشية قد تعرضن لسيطرة الذكور مثلما تعرضت أخواتهن فى ظل البربرية والمدنية .

وفى النهاية فإن مدافن « ما فوق العصر الحجرى الوسيط » على بحيرة أونيجا تثبت وجود نوع من الزعامة بين المتوحشين الذين لا يبدو أنهم فسدوا كثيراً نتيجة الاتصال بالمزارعين من البرابرة . ونحن نعترف بانتماء هذا الدليل إلى مرحلة زمنية متأخرة ولكن ليس إلى مرحلة يمكن اعتبارها بوضوح متقدمة تكنيكياً عن مستوى العصر الحجرى الوسيط .

الفصل السابع

التتابع الحضارى فى المجتمعات البربرية
(غير المتمدينة)

١ — أوربا المعتدلة :

أدى الفحص المنظم الدقيق لبقايا وآثار ما قبل التاريخ فى عدة مقاطعات من منطقة الغابات المعتدلة فى أوربا إلى التعرف على تتابع محدد تماماً للمراحل الحضارية . وتقترب هذه التتابعات من الاكتمال فى وسط أوربا ، والدانمارك مع جنوب السويد ، والأراضى المنخفضة فى انجلترا ومرتفعات بريطانيا ، إلا أن عدد المراحل التى يمكن تمييزها يختلف من مقاطعة لأخرى . وفى معظم مراحل هذا التتابع توجد أدلة كافية للتمييز الدقيق نوعاً للنظام الإنتاجى ، والاقتصاد وبعض اللمحات عن مدى وشكل التنظيم الاجتماعى . وعن طريق المقارنة سيمكن تحديد مراحل فى التطور التكنولوجى والاقتصادى على الأقل تتضح معالمها بدرجة أو بأخرى على نطاق المنطقة كلها . إلا أننا سنجد أن التطابق بين المراحل فى المقاطعات الأربع التى سميناها بعيد عن أن يكون كاملا .

وهذه الانحرافات لا تدهشنا ، إذ أن المقاطعات الأربع تمثل بيئات مختلفة نوعاً فكلها فى الحقيقة تقع فى منطقة يتوزع فيها مستوى المطر السنوى بالتساوى وكلها مغطاة طبعاً بالغابات دائمة الخضرة ، ولكن المناخ والتربة يختلفان . فوسط أوربا هنا يعنى أساساً الأراضى الطينية الصلصالية الرملية المترسبة من عصر البليستوسين فى الأحواض العليا والوسطى لأنهار الدانوب ، والفستولا ، والأودر ، والألب ، والراين .. وهذه الأراضى تربة مثالية للزراعة حتى ولو كانت الأدوات بدائية جداً ، كما تنبت فيها الغابات « متساقطة » الأوراق .

والمناخ أقرب إلى أن يكون قارياً — صيف حار وشتاء ليس بارداً جداً . أما شمال أوربا فأرضه صخرية ذات درجات مختلفة من التربة لا تنمو على الأجزاء الفقيرة منها إلا الأشجار الصنوبرية . ونتيجة لارتفاعها فإن متوسط درجة الحرارة السنوى أقل من متوسط الجنوب ، ولكن لا تكاد تزيد برودة الشتاء — بفضل الأثر الملطف للبحر — على شتاء حوض الدانوب الأعلى وفى النهاية فإن مناخ بريطانيا بوصفها جزيرة معتدل عادة مع ميل إلى زيادة الأمطار فى المناطق العالية . أما فى المناطق المنخفضة من انجلترا فإن بعض المناطق شديدة الخصوبة تربتها صلصالية غير صالحة للزراعة بالأدوات البدائية ولكن المرتفعات الطباشيرية الواسعة والسطوح الجيرية توفر تربة لا تقل فى خصوبتها عن تربة وسط أوربا . أما المنطقة المرتفعة التى تشمل كورنوال وويلز والمقاطعات الشمالية وسكوتلندا ، فهى ليست وعرة وجبلية فحسب ولكنها مكونة كذلك من صخور قديمة حمضية ذات تربة غير خصبة إلا فى المناطق التى يغطيها صخور المورواين الحديثة .

ومن الأسهل أن نبدأ بوصف موجز لأهم سمات المراحل الحضارية المتتالية فى مقاطعة نعتبرها نموذجاً ، ثم نعيد ترتيب المواد بشكل أكثر تخطيطاً ، فلنأخذ الأراضى الخصبة فى وسط أوربا مع العناية بشكل خاص بحوض الدانوب الأعلى .

فى المرحلة الدانوبية الأولى كان الاقتصاد الريفى مؤسساً على زراعة القمح والشعير فى قطع صغيرة ، تفلح بالفأس . وكانت هذه القطع تترك حالما تستهلك . وتصاحب زراعتها دائماً تربية الماشية والخنازير وقليل من الغنم أو الماعز . إلا أنه يبدو أن تربية الماشية كانت تلعب دوراً ثانوياً . وبينما كانت الغابات المتساقطة الأوراق ملائمة للأبقار والخنازير فإنها لم تكن تساعد على التوسع فى تربية قطعان الغنم والماعز . كما يبدو أن مساهمة الصيد فى الغذاء كانت ضئيلة . وكان النقل والاتصال يتم بالطرق المائية ، ولا توجد دلائل على التخصص فى الصناعة داخل الجماعات أو فيما بينها إذ كانت تستطيع

صناعة كل أدواتها الأساسية من الخامات المحلية . ورغم ذلك فإن قطع الأحجار المنتقاة لصناعة الفئوس والرحى كانت أحياناً تنقل لمسافة مائة ميل أو يزيد ، وحتى الأوانى كانت تنقل حوالى خمسين ميلا عن مقر صانعها . وبالإضافة إلى تلك التجارة المتقطعة غير المنتظمة والقصيرة المدى ، كانت الأصداف والقواقع المستخدمة فى الزينة والتعاويذ تجلب من البحر الأبيض المتوسط .

ويبدو أن القرى المعروفة كانت تتكون من كفور تشمل الواحدة منها ثلاثة عشر منزلا (أو ربما ضعف ذلك العدد) . وبعضها متسع ٩٠ × ٢٠ قدما للدرجة أنه يسع عشيرة لا عائلة طبيعية واحدة . وكانت الحبوب تخزن فى صوامع ولكن علاقة هذه بالمساكن لا تسمح بأى فروض فيما يتعلق بحقوق ملكية أصحاب هذه المنازل للغلال المخزونة . ولا يبرز بين المساكن مسكن خاص بالزعيم كما لا تشير أثاثات المقابر إلى فروق فى المراتب . ووجدت تماثيل للنساء من الصلصال أو مرسومة على الأوانى الفخارية . ولم توجد أية مبان يمكن اعتبارها معابد ، وتنعدم أسلحة الحرب بشكل واضح .

وفى المرحلة الثانية(١) يبدو الاقتصاد الريفى أكثر توازناً بالنظر إلى ازدياد الاعتماد على تربية الحيوانات . وفضلا عن ذلك فقد استغلت المصادر الطبيعية للغذاء البرى إذ وجدت عظام حيوانات الصيد وأسلحة الصيد — أو ربما الحرب — فى القرى . ونشرت «التجارة —» بعض المواد كالأوبسيديان الهنغارى إلى أبعد من ٣٠٠ ميل عن مقره الطبيعى ، ولكن فى أحيان قليلة وبكميات صغيرة .

ويمكن استنتاج أحجام القرى من المدافن التى كانت تحتوى على عدد من المقابر يتراوح بين ٦٥ ، ٨٠ مقبرة ، والكفور التى كانت تشمل ٢٣ منزلا . وكافة المنازل المعروفة من هذه الفترة ذات حجم متوسط (٣٠ — ١٢ قدماً)

---

(١) خصوصاً فيما يسمى بحضارة بادن فى النمسا السفلى .

وتناسب عائلة طبيعية . ولا يبدو على أحدها أنه قصر للزعيم ، كما لا يبدو على أى قبر أنه « ملكى » . وقد وجد فى أحد المدافن قبران مزدوجان ، فى أحدهما جسد محاط بقرابين فاخرة وفى الآخر جسد لا يكاد يوجد معه شىء ويمكن اعتبار هذا القبر دليلا على ملكية العبيد والتضحية بهم . وفى عدة حالات أخرى دفنت نساء مع الرجال ، وإذا اتخذ هذا دليلا على العائلة الأبوية فإن التماثيل الصغيرة للنساء التى تشيع فى هذه المرحلة عنها فى المرحلة الأولى يمكن اعتبارها كذلك دلائل على الأموية . ووجدت كذلك نماذج للحيوانات والطيور ولكن لم يوجد أى تمثال لعضو التذكير أو شخصيات ذكرية .

وقد وجدت بعض القرى المحصنة ، وهذا يثبت بالإضافة إلى وجود الأسلحة ممارسة الحرب . كذلك يستطيع علماء ما قبل التاريخ أن يتعرفوا فى نفس الوقت على عدد من الحضارات كلها تشارك فى السمات التى سبق ذكرها مع اختلاف التقاليد فى صناعة الفخار وأشكال المنازل والحلى ، وحتى فى طقوس الدفن .

وفى المرحلة الثالثة نلاحظ كذلك تكاثر الحضارات . وبشكل عام ينتقل الاقتصاد الزراعى إلى التركيز على تربية الماشية والصيد بدلا من زراعة القمح . ولكن لا يحدث ذلك بنفس المستوى فى كافة المجتمعات . وفى الحقيقة يمكن للمرء الآن أن يتكلم عن « انفصال القبائل الرعوية عن كتلة البرابرة الزراعيين » على أن نتذكر أنه حتى « القبائل الرعوية » كانت تزرع الحبوب أيضاً . كذلك تكاثرت قطعان الغنم ، حتى توافر الصوف لصناعة النسيج المنزلية . وهناك من ناحية أخرى إشارات إلى أن الزراعة بالمحراث بدأت فى أن تحل محل فلح قطع الأرض بالفأس(١) . داخل بعض المجتمعات . ويجب الإلحاح على أن الرعوية كانت تعنى فى تلك المرحلة فى أوربا المعتدلة تربية الماشية والخنازير أساساً ، وأن هذا النوع من تربية الحيوانات لم يعد ملائماً ،

---

(١) لوحظ فى هولندا آثار المحراث فى التربة تحت قبة « البيكر » تعود إلى المرحلة الثالثة أو الرابعة .

إن لم نقل إنه أصبح أقل من أن يلائم حياة الرعى والبداوة تماماً مثل زراعة القمح بطريقة إحراق أشجار الغابات . ونجد مرة أخرى زيادة فى نسبة ما يؤكل من الحيوانات البرية عما يؤكل من الحيوانات المستأنسة مما يدل على الاستثمار الكامل للموارد الطبيعية وربما على المعالجة الاقتصادية لقطعان الماشية ولكنه على أى حال لا يعد « انتكاساً » إلى الوحشية .

وانضمت الخيل الآن إلى القطيع المستأنس وكان الاحتمال الأكبر أنها تستخدم فى النقل . فربما أسرجت فى الزحافات التى عرفت فى منطقة الغابات منذ العصر الحجرى الوسيط ، ولا توجد أى أدلة بعد على وجود العربات ذات العجلات .

وكان فى استطاعة الصناعات المعروفة عندئذ أن تستمر دون التخصص فى العمل داخل الجماعة ، ولكننا يجب أن نستنتج وجود التخصص بين الجماعات المختلفة من اكتشاف مصانع للفئوس فى مناطق استخراج الصخور الممتازة ومن ابتداء استخدام النحاس الأحمر الذى يفترض أنه كان يجمع بل ويستخرج ويصهر بواسطة جماعات متفرغة بعض الوقت ، وربما استعاضت بعض القرى الواقعة على البحيرات السويسرية عن موارد الغذاء المحلية بما يعود عليها من التجارة فى النحاس الذى كان يمكن شحنه فى السفن داخل الأنهار من هذه البحيرات . ويظن أن صناع أحد الحضارات الأركيولوجية — المسمون بـ « أهل البيكر » ، كانوا يتعيشون على التجارة . وعلى أى حال فإن تبادل المنتجات بين مختلف المناطق أصبح أكثر شيوعاً عن ذى قبل رغم أنه ما زال غير منتظم لدرجة لا يستحق معها أن نصفه بالتجارة . وفى نفس الوقت يمكن استنتاج وجود الاصطدامات الحربية من ظهور أسلحة الحرب . بينما كانت كافة القرى محصنة إما طبيعياً وإما صناعياً .

ولم تعرف بعض حضارات المرحلة الثالثة هذه إلا عن طريق القبور ، وكانت المدافن لا تبدو أنها تحتوى على أكثر من ستين قبراً . ومن الناحية

الأخرى ربما لم يزد عدد المنازل أو الأكواخ فى القرى على خمسين . ولم يكتشف ما يمكن أن يكون مقراً للزعيم فى أى قرية ، إلا أنه لدى أحد المجتمعات الأكثر رعوية ربما أمكن اعتبار المدافن ذات القباب قبوراً لزعماء.

وما زلنا نصادف رجالا ونساء مدفونين فى نفس القبر ، كما أنه لم تعد توجد تماثيل للنساء تتخذ أساساً للقول بوجود الأموية ، وحل محلها أحياناً نماذج للثيران والتيوس . وفى الحقيقة لقد شهدت المرحلة الثالثة نشوء نظام ميال لحرب رعوى يغلب أن يكون أبوياً ، ولكن المجتمع بالتأكيد لم يكن ينقسم إلى طبقات .

وتوافق المرحلة الرابعة الفترة « المبكرة » من عصر البرونز المحلى ، ولكنها لا تتميز عن المرحلة الثالثة بأى تغييرات جذرية فى الاقتصاد الريفى وإنما بإقامة تجارة منتظمة وبالتالى استخدام المعادن فى صنع الأسلحة والحلى وأدوات الحرفيين . وهذا يفترض وجود متخصصين متفرغين كل الوقت . إلا أنه يبدو أن هؤلاء كانوا تجاراً — صناعاً ، متنقلين أكثر من كونهم أعضاء مقيمين فى الجماعة . ويبدو أن توزيع المعادن فى وسط أوربا فى ذلك الوقت كان مرتبطاً بالتجارة فى غيرها من المواد ، وأشهرها الكهرمان الذى يثبت السجل الأركيولوجى وجوده بسهولة .

ومن الواضح أن تجارة الكهرمان على الأقل كانت « عالمية » فبعض الرواسب المتحجرة التى كانت تتجمع فى النهاية فى جوتلاندوساملاند ، كانت تجد سوقاً رائجة فى الدول المتمدينة مثل كريت واليونان وفى مقابلها كانت بعض مصنوعات المدنية — ولو أنها لم تزد على الخرز — تصل إلى البرابرة فى وسط أوربا . إذ أن مجتمعات البحر الأبيض المتوسط كانت قد وصلت إلى المدينة عندما حلت المرحلة الرابعة من البربرية الدانوبية . ولذلك فإنه من المعقول أن رأس المال اللازم لتنمية التجارة المنظمة وصناعة المعادن فى أوربا المعتدلة كان يأتى جزئياً على الأقل من فائض الإنتاج الاجتماعى المتراكم

فى الدول المتمدينة فى شرق البحر الأبيض . إلا أنه خلال المرحلة الرابعة كان المعدن لا يزال نادراً ومرتفع التكاليف فى شمال الألب . وكان يستخدم أساساً فى صناعة الأسلحة وأدوات الزينة وذلك فقط فى المجتمعات التى كانت توجد على طرق التجارة الرئيسية ، وكانت تتبع طبعاً وديان الأنهار .. أما القبائل الأكثر رعوية التى كانت تسكن الأراضى العالية فى منابع الأنهار فقد ظلت على وجه العموم فى مرحلة العصر الحجرى الحديث .

ولم يعلم عن وجود قرى خلال المرحلة الرابعة إلا على ضفاف التيزا ، ولكن المدافن قد تحتوى الآن على أكثر من مائة قبر . ولا يمكن التعرف على قبور خاصة بالزعماء ، إلا أن بعض القبور ما زالت تضم رفات رجال ونساء . وفى وادى سال فقط ، الغنى بالملح ، وخام المعادن ، وملتقى عدة طرق تجارية ، نجد عدداً قليلا من المدفونين فى المقابر المغطاة بالقباب ، يحوطهم أثاث جنازى فاخر ، كما يبدو أنه تصاحبهم قرابين بشرية . وهذه المقابر بالذات تكون أدلة منعزلة على قيام نظام الملكية الإلهى فى مجتمع بعينه ، كما أن هؤلاء الملوك لم يؤسسوا أسرات دائمة .

وتتميز المرحلة الخامسة (٥) بشيوع استخدام المعادن بين الرعاة وبين مزارعى الأراضى المنخفضة .

وخلال المرحلة السادسة (٦) اعترى الاقتصاد والصناعة الزراعيين تحول جديد . فقد حلت الزراعة بالمحراث أخيراً محل زراعة قطع الأرض وأفسح أسلوب إحراق الغابات وزراعة مكانها الطريق لأسلوب زراعة الأرض بالمحصول مرة وتركها لترتاح مرة أخرى .. واستطاعت الأغنام بذلك أن ترعى جذور النباتات المتروكة فى الحقول البور فازداد عددها بشكل كبير .

وازدادت سرعة النقل بشكل ملحوظ باستخدام العربة ذات العجلات التى استخدمت أيضاً أداة للحرب فى شكل العجلات الحربية التى تجرها الخيل ولم يكن استخدام الأدوات المعدنية قاصراً على الحرفيين فى أشغالهم الدقيقة

إنما استخدمها المزارعون كذلك فى إزالة الغابات والحصاد والمعدنيون فى تكسير الخامات .

وبالتالى فلابد أنه كان يوجد صناع برونز مقيمون فى معظم الجماعات ، وربما عدد قليل كذلك من الاختصاصيين الآخرين ، ومن الناحية الأخرى فلابد أنه كانت توجد جماعات كبيرة متفرغة كل الوقت منكبة على استخراج الملح والمعادن وربما غيرهما من المواد . واكتشف فى الألب الشرقية مناجم فعلية للملح وللنحاس بها أفران للتسخين والصهر . وكان العرق الرئيسى فى منجم ميتربرج يستخدم باستمرار حوالى ١٨٠ عاملا ، وينتج سنوياً حوالى ٢٠ طناً من النحاس ، ويستهلك فى أفران الصهر فقط أخشاباً تغطى مساحة ١٨ فداناً تقريباً وذلك غير الخشب اللازم لحفر الأنفاق والممرات .

وكانت التجارة المنتظمة تضمن توزيع الخامات والمواد المصنوعة كأكواب البرونز والأباريق والخوذات على نطاق المقاطعة ، ووصلت مصنوعات الدانوب إلى أوكرانيا واسكاندنيافيا وبريطانيا وإيطاليا . ويثبت الكهرمان وجود التجارة مع مجتمعات البحر الأبيض المتمدينة فى بداية هذه المرحلة منذ اليونان الميسينية ولكنها قبل نهاية المرحلة السادسة وجدت سوقاً متمدينة أقرب فى المستعمرات اليونانية والمدن الإتروسكانية فى شبه جزيرة أبنين .

ومثل هذه التجارة النشطة تتطلب اعترافاً اجتماعياً بمقاييس عامة ، وتبين الموازين الرصاصية التى مازالت باقية حتى الآن ، أن المعايير التى سبق الاعتراف بها بين المجتمعات المتمدينة فى شرق البحر الأبيض المتوسط قد تم الاعتراف بها على الأقل بين التجار فى أوربا البربرية ، ويحتمل أن الحلقات الذهبية قد استعملت كذلك وسيلة للتبادل . وكان استخدام مثل هذه المعايير ذات القيمة رمزاً لمفهوم جديد عن الثروة .

ومن الناحية الأخرى لا تزال الحرب شيئاً بارزاً فى السجل الأركيولوجى فمعظم القرى كانت محصنة تحصيناً قوياً ، كما كانت السيوف من أبرز منتجات

صانعى البرونز . وكانت هذه الأسلحة المعدنية وكذلك الدروع والخوذات المصنوعة من البرونز المطروق تكلف غالياً ، وكانت العربات الحربية التى يبدعها المختصون فى صناعة العربات وتجرها خيول مدربة تدريباً خاصاً ، لا تتاح إلا لقلة ممن كان بمكنهم تجميع فائض الإنتاج الاجتماعى ، الذى كان لا يزال ضئيلا . ومن هنا نتوقع ظهور الزعامة المدعمة ، كما فى اليونان الميسينية باحتكار الأسلحة الحاسمة والقوة الاقتصادية .

وكانت إحدى القرى فى بوشاو على نهر الفدريس فى فيرتمبرج تتكون أولا من ٣٨ كوخاً صغيراً ، ولكن قرية أخرى أقيمت بعدها فى نفس الموقع كانت تتكون من مجموعة من تسع دور ريفية كبيرة . وكانت كل دار تحوى إسطبلا ومخزناً للغلال أمدتنا أخيراً بالدليل النهائى الحاسم — والذى أكدته مصادر أخرى — على تربية الماشية داخل الحظائر وعلى وجود الملكية الخاصة للماشية ولمنتجات الحقول . وتوجد أدلة أفضل على التوسع فى القرى وهى المدافن التى كانت تحرق فيها جثث الموتى (وغالباً ما تدعى حقول الإحراق) إذا كانت تحوى من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ قبر .

وكان الدفن فى حقول الإحراق لا تصاحبه سوى أمتعة فقيرة ، وهذا قد يعنى أن الممتلكات كالأسلحة والأوانى البرونزية أصبحت تعتبر ثروة تورث بدلا من اعتبارها امتداداً لشخص مالكها . ويمكن اعتبار بعض القبور القليلة التى تحوى أمتعة فاخرة قبوراً للزعماء خاصة أنه فى القرى المعاصرة مثل بارشاو ، كان يوجد منزل أوسع وأفخر من الباقين بحيث يمكن بسهولة أن ننسبه إلى زعيم القرية . وعلى عكس « القبور الملكية » فى المراحل الثالثة والرابعة والسابعة فى اليونان ومصر وما بين النهرين ، كانت هذه القبور والمساكن لا تختلف فى حالة « العامة » إلا من حيث الدرجة لا النوع . وما زال الأثر منعدماً فيما يتعلق بوجود ملوك يتمتعون بأكثر من سلطة محلية خالصة .

ولما كان الدفن يتم بعد إحراق الجثة ، فلا توجد أدلة ذات وزن عن

مكانة النساء ووجود العبيد . ولا شك أن العمل فى الصناعات الاستخراجية كان منظماً ومحدداً ولكن لا توجد أدلة عما إذا كان يتم بطريق السخرة .

ولا يعرف شيء عن وجود معابد فى أواخر عصر البرونز . وكانت تستخدم بعض التعاويذ والتمائم ، كما كانت تدفن فى القبور ، كذلك جاءتنا أدق الأدلة على وجود أكل لحوم البشر من بوهيميا فى المرحلة الدانوبية السادسة .

وتلتقى المرحلة الدانوبية السابعة « ٧ » مع عصر الحديد الأول أو مرحلة هالشتات كما تسمى فى اصطلاحات الأركيولوجى . وتتميز عن المرحلة السادسة أولا بشيوع استخدام الحديد عن البرونز فى صناعة الأدوات وبعض الأسلحة . ولما كان خام الحديد أكثر شيوعاً من خامات النحاس والقصدير ، فإن الأدوات المعدنية أصبحت أرخص مما كانت وأصبح من الممكن استخدامها فى عمليات واسعة لتسوية الأراضى وتنظيم صرفها وبذلك أتاحت مساحات أكبر من الأرض للزراعة والرعى .

ولم يتبع ذلك توسع عام فى الصناعات الثانوية ، إلا أنه نمت صناعة استخراجية جديدة خصوصاً حول خامات الحديد فى مورافيا ، وسيليزيا وغرب ألمانيا واللورين . وكان المعدن ينقل فى شكل سبائك متعارف على حجمها حتى بين الآشوريين المتمدينين . ورغم أن خام الحديد أصبح شائعاً لدرجة أن أى جماعة كانت تستطيع تزويد نفسها به فإن التجارة فى وسط أوربا لم تقل فى الظاهر عن المستوى الذى حققته فى ظل المرحلة الدانوبية السادسة .

والسمة الحاسمة الثانية للمرحلة السابعة ترجع إلى تقارب الأسواق المتمدينة من بعضها البعض . فلم تكن المستعمرات اليونانية والدول الإتروسكانية فى وسط إيطاليا هم المشترون الوحيدون لمنتجات البرابرة — المعادن والملح والعبيد — فقد اقترب هذا السوق المتمدين حوالى سنة ٦٠٠ ق. م. من حواف المنطقة

المعتدلة و ذلك عن طريق ضم الدول الإتروسكانية لوادى نهر البو ، وتكوين مستعمرة يونانية (ماسيليا) فى مرسيليا . و نتيجة لذلك انساب تيار متزايد من « الكماليات » المدنية (أشغال المعادن ، وزهريات أتيكا . والنبيذ) عبر جبال الألب . وفى أعقابها ظهر فى النهاية معيار عام خالص للقيمة وكواسطة للتبادل (النقود) ولم يكن ذلك فى شكل عملة و إنما فى شكل أسياخ أو قضبان كتلك التى كانت شائعة بين الإتروسكانيين و لدى اليونان قبل ذلك .

وكان التجديد الثالث الذى يميز المرحلة السابعة هو استخدام الخيل للركوب . وأدى هذا إلى زيادة سرعة المواصلات وأدوات الحرب .. ولا ريب أن — سلاح الفرسان الجديد — كان أكفأ بكثير من العربات فى أرض مليئة بالغابات و الأخطار .

و يمكن استنتاج ازدياد عدد السكان زيادة كبيرة من المدافن التى أصبحت تضم الآن أكثر من ١٠٠٠ قبر او من المحلات التى أصبحت تغطى أكثر من ١٢ فداناً و من الحدود المحصنة تحصيناً ضخماً . و يمكن التمييز بين نوعين من القرى من الناحية العملية ، فبالإضافة إلى القلاع الكبيرة — المدن أو الأوبيدا (مقار محصنة القبائل تقام عادة فوق التلال) — التى سبق ذكرها يوجد عديد من المناطق الأصغر المحصنة كذلك تحتل كل واحدة حوالى خمسة أفدنة من الواضح أنها قرى أو دساكر . وكانت واحدة من هذه الفئة — (جولدبرج) تحتوى على ما يقرب من ١٢ داراً ريفية لكل منها اسطبل ومخزن للغلال كما كان بها صالة خشبية كبيرة محصنة فى وسط المساكن ، من الواضح أنها كانت حصناً للزعيم المحلى .. أما فى المدينة الكبيرة المحصنة فقد نتوقع وجود قصر لزعيم كبير أو ملك .

و يدعم السجل الجنائزى هذا التوقع . ففى كثير من المدافن كشف التنقيب عن ثلاث درجات من القبور — الأغلبية (فقيرة المتاع ، والدفن عادة بعد الحرق) قبابها صغيرة ، و عدد أقل من القبور ذات القباب الأكبر قليلا

بها عدد من الهياكل العظيمة الممددة يصاحب الذكور منها سيوف وغيرها من عدة الحرب وملابسه إلى جانب متاع فاخر دائماً ، وعدد قليل جداً من القبور المستطيلة أو منازل الدفن ذات القباب الضخمة وتحوى على جسد محارب مدفون فى نعش ذى أربع عجلات ويصحبه سرج حصان الحرب ، وكنوز من المعدن الثمين ، وواردات من البحر الأبيض ، وتمدنا هذه القبور الملكية بأول دليل حاسم على التوحيد السياسى للجماعات المحلية فى ممالك صغيرة.

وتكشف لنا المرحلة الثامنة « ٨ » وهى عصر الحديد الثانى المسمى غالباً لاتين « Laténe » — عن نتائج الاتجاهات التى سبق نشاطها فى فترة الهالشتات. فأصبحت الزراعة أكثر إنتاجية باستعمال المحراث ذى السلاح المعدنى وغيره من التحسينات فى الأدوات ، وكذلك عن طريق التقدم فى الأساليب كإطعام الماشية فى الحظائر بالعلف.

وأصبح فائض الإنتاج الآن يكفى لإعالة تشكيلة كبيرة من الحرفيين المتخصصين الذين يستطيعون صناعة الأدوات التى توفر الوقت كالرحى الدائرة. وكان الكثير من مراكز السكنى كبيرة بدرجة تسمح للمتخصصين أن ينتجوا الفخار على نطاق كبير باستخدام العجلة بدلا من ترك ربات البيوت يصنعن بمفردهن ما يحتجن إليه من أوان باليد. وأخذ الفنانون من الصناع يتجولون من بلاط إلى بلاط ينتجون آيات من المصنوعات المعدنية تحورت أشكالها وأهدافها الكلاسيكية لتناسب الأذواق البربرية(١).

واستمر التوسع فى التجارة فيما بين البرابرة أنفسهم وفيما بينهم وبين حضارات روما واليونان. واستخدمت أولا العملة اليونانية ثم قلدتها القبائل البربرية وأصدرت عملتها الخاصة.

وتغيرت التكنيكات الحربيـة فى بداية المرحلة باقتباس العربة من الإتروسكانيين ، وكانت حربة محسنة أخف وأكثر صلابة من سابقتها فى

(١) جاكوبشتال « الفن الكلتى القديم » ١٩٤٤ .

العصر البرونزى المتأخر . وتلا ذلك الأسلحة المقذوفة خصوصاً المقلاع ، التى تحسنت أيضاً بدرجة ملحوظة .

وفى البداية كانت المقابر الملكية أكثر اتضاحاً وفخامة عن أى وقت آخر ، ولكنها قاصرة على بداية المرحلة وعلى وديان الراين والدانوب الأعلى . ولكن الأكثر شيوعاً حتى فى بداية عصر الحديد الثانى هى المدافن التى تحوى عدداً قليلا من قبور العربات . وهذه الأخيرة رغم فخامة أثاثها تبدو كثيرة العدد — وجد منها ٧٤ فى تويزى على المارن — بحيث لا يمكن تسميتها « مقابرة ملكية » . فهى بالتأكيد تنتمى لطبقة حاكمة ، فالملكية المطلقة كانت تفسح الطريق لحكم الاستقراطية ، ويؤكد ذلك بالطبع ما حدث لقيصر . فمنذ زمنه فصاعدا لم تعرف حتى مقابر العربات . وفى الحقيقة فإن أفخم قبر فى عصر الحديد الثانى قبل الغزو الرومانى يبدو أنه لنجار وذلك يؤكد المكانة الاجتماعية العالية التى احتلها الحرفيون المهرة .

وبين المقابر الأربع والسبعين فى تويزى كانت ثمان وعشرون مقبرة على الأقل تحتوى على هياكل لنساء (بعضهن — وليس الأغلبية — صغار السن نسبياً) إلى جانب الرجل . وتوجد دلائل على « السائى » فى مقابر أخرى كذلك فإن السلاسل الجماعية (الحجلات) تمدنا الآن بدليل مباشر لا ينقض على وجود العبودية . وفى النهاية فقد أقيمت بعض الهياكل الصغيرة فى أواخر عصر الحديد الثانى ، إلا أنه لا يوجد ما يدل على أنها فى طريقها لتصبح مراكز لتجمع الثروة كتلك التى قامت فى بابل أو بلاطات الملوك الإلهيين .

ورغم كبر المساحة ووجود الحرفيين المتخصصين فإن مدن عصر الحديد الثانى ظلت فى الغالب بلداناً يسكنها الزراع أساساً أكثر من أن تكون مدناً بالمعنى المفهوم فى حوض البحر الأبيض المتوسط . فالمدن من هذا النوع الأخير فرضتها روما على أوربا المعتدلة بعد الغزو العسكرى . وكذلك فإنه رغم العلاقات الوثيقة بين برابرة عصر الحديد الثانى والاتروسكانيين

واليونان والرومان المتعلمين ، فإنهم لم يتركوا أى وثيقة تثبت أنهم استخدموا الكتابة لأى غرض عملى . وعلى أساس المحك الذى ارتضيناه هنا فلم يستطيعوا قط الوصول إلى المدنية بأنفسهم ، إذ أن التعليم والحياة الحضرية أدخلها الغزاة من الرومان .

وعلى سبيل المقارنة فلنستعرض بسرعة محلى ما قبل التاريخ فى انجلترا(١) . يسود المرحلة الأولى اقتصاد نيوليثى يختلف عن المرحلة الدانوبية الأولى فى زيادة تركيزه على تربية الماشية والخنازير والغنم مع استمرار قلة الاهتمام بالصيد ثانياً بوجود جماعات من معدنى الصوان الذين كانوا ولا ريب متفرغين بعض الوقت . ثالثاً بظهور بعض السمات الحربية — كعدد وفير من رءوس السهام وتحصين « المعسكرات » القائمة على التلال ، رابعاً بصناعة تماثيل لعضو التناسل الذكرى بالإضافة إلى العدد النادر من تماثيل النساء . وهناك شك فيما إذا كانت المعسكرات المقامة فوق التلال كانت سكناً دائماً ، إذ لم يمكن التعرف إلا على منزلين منعزلين ينتميان للعصر الحجرى الحديث . وكان بعض الموتى يدفنون تحت قباب تذكارية طويلة ، إلا أننا غير متأكدين مما إذا كانت هذه مقابر عائلية لعائلات الزعماء أم أنها كانت مقابر عامة . وعلى أى حال فإن الدفن الجماعى قد حرمنا من « الدليل » المعتاد على اتباع الزوجة لزوجها إلى القبر .

أما الفترة الثانية فى انجلترا فكانت تسودها حضارة البيكر ويمكن مقارنتها بالمرحلة الدانوبية الثالثة خاصة فى اقتصادها الريفى الذى يتميز عن « النوع الرعوى » الخاص بوسط أوربا . إلا أنه لم تظهر بعد أية إشارة عن استخدام المحراث أو استئناس الخيل . ومن الناحية الأخرى فإن حضارة البيكر تنتمى تقليدياً إلى « عصر البرونز المبكر » وهذا الاصطلاح له ما يبرره فيما يتعلق بالمعدن المستعمل فى صناعة الأسلحة والحلى . كما أن التجارة كانت أكثر انتظاماً واتساعاً مما يمكن مقارنته بالاكتفاء الذاتى للعصر الحجرى الحديث . وفضلا عن ذلك فإن أهل حضارة البيكر قد بدءوا فى إقامة « حرم » كبير

(١) تشايلد « مجتمعات ما قبل التاريخ فى الجزر البريطانية » ١٩٤٨ .

عبارة عن دوائر من الأحجار الكبيرة أو الأعمدة الضخمة مما يفترض التعاون ووحدة الطقوس إن لم تكن الوحدة السياسية لسكان مناطق تبلغ من الاتساع ما بين سهل ساليسبورى وتلال شمال ويلتشير بركشير . ويفترض أن تل ساليسبورى يغطى بقايا « ملك إلهى » لهذه المنطقة الأخيرة ، ولكنه إن وجد ، لم يؤسس أى عائلة مالكة ، ولا يقدم لنا السجل الجنائزى أية أدلة واضحة عن الزعامة ، بينما لم نستطع الوصول إلى أية قرى أو محلات تنتمى لحضارة البيكر . وقد وجدت قبور مزدوجة تضم رجلا وامرأة ، كما وجدت دلائل على أكل لحوم البشر(١) . ولم نجد بين من اكتشفنا من أهل حضارة البيكر سوى ٥٪ بلغوا من الغنى مبلغاً يستطيعون معه أن يدفنوا معهم أدوات معدنية .

وفى المرحلة الحضارية الرئيسية الثالثة ، تتفكك هذه الوحدة الاجتماعية التى قد تظهر لنا من سيادة حضارة أهل البيكر (ولقد كان هؤلاء أبعد ما يكونون عن التجانس) . فيصبح الاقتصاد رعوياً أكثر فأكثر ، ولم يكتشف ما يمكن أن يشبه قرية . ومن ناحية أخرى تنتظم التجارة على نفس الأسس التى انتظمت بها فى وسط أوربا ، فيزداد توزيع الصناعات المعدنية بواسطة تجار مخترعين متنقلين . وكما كان الحال فى المرحلة الدانوبية الرابعة والخامسة كانت هذه التجارة عالمية ، فوصلت المصنوعات البريطانية والإيرلندية إلى سكاندينافيا ووسط أوربا من ناحية وإلى كريت من ناحية أخرى وفى مقابل ذلك وصل كهرمان البلطيق وخرز بحر إيجة إلى بريطانيا .

وتتفق المرحلة الإنجليزية الثالثة فى الزمن مع النصف الأخير من المرحلة الدانوبية الرابعة والمرحلة الخامسة كلها ، وكذلك مع المرحلة المتأخرة المينوية والميسينية فى اليونان بعد ١٥٠٠ ق. م. ولكنها يجب أن تغطى جزءاً من أواخر عصر البرونز فى وسط أوربا .

---

(١) ويبدو من وجود مائة قبر من ذات القباب الفاخرة الأثاث على المراعى الكثيفة فى تلال وسكس أنها تنتمى إلى أرستقراطية من صغار الزعماء . ووجدت قبور مشابهة فى كورنوال كما وجد عدد نادر منها فى أجزاء أخرى من الأراضى الانجليزية المنخفضة ولم نجد سوى اثنى عشر قبراً مشابها فى كل سكوتلندا .

وهذه المرحلة الأخيرة تمثلها المرحلة الإنجليزية الرابعة فى جنوب انجلترا فقط . فهناك — مثلما حدث فى وسط أوربا — حل المحراث محل حرق الأشجار وزراعة مكانها مع ما ترتب على ذلك من نتائج بالنسبة للاقتصاد الريفى كله . ومن قبل ذلك مرت الصناعات المعدنية بنفس التوسع الثورى الذى حدث فى القارة ، إلا أن ذلك أثر فى الجزر البريطانية كلها .

ومن ناحية أخرى لم تكتشف أية قرى أو محلات فى انجلترا ولكن كل ما اكتشف هو حظائر منفردة ومرابط للماشية ، كما لا توجد بعد دلائل على وجود العربة ذات العجلات أو العجلات الحربية أو الزعماء .

وتتميز المرحلة الخامسة فى انجلترا باستخدام الأدوات الحديدية والتوسع الزراعى المترتب عليها . وتمثلت المساكن فى قرى صغيرة مفتوحة لم يتم الكشف قط عن واحدة منها بأكملها ومزارع كبيرة معزولة . ويبدو أنها كلها كانت مكتفية ذاتياً . ولا يوجد أية أدلة على التوحيد الواسع سواء سياسياً فى ظل زعماء أو اقتصادياً عن طريق التجارة الشاملة ، والحقيقة أن التجارة تدهورت بوضوح .

أما المرحلة السادسة فقد شهدت القيام التدريجى لنسخة فقيرة من حضارة عصر الحديد الثانى خلال سلسلة الغزوات التى قادها أولا راكبو العربات من المارن . ونموذج القرية الآن هو القرى الشديدة التحصين . وكانها أصغر من المدن الأوربية — من ١٠ إلى ١٢ فداناً فى المتوسط ، والشاذ ٦٠ — وتحوى عدداً أقل من الحرفيين المتخصصين ولم يستخدم صناع الأوانى الفخارية عجلاتهم فى انجلترا ، ولكن الصناع المهرة وجدوا حماية من بعض صغار الزعماء . ويمكن التعرف على هؤلاء مباشرة بواسطة وجود بعض قبور العربات اثنى عشر فى شرق يوركشير وزوج فى مكان آخر . ولم تستخدم العملة النقدية ولكن قضبان الحديد كانت تستخدم كنقود .

وفى النهاية فى القرن الأول ق. م. تم إدخال المحراث الثقيل على يد الغزاة من الغال البلجيكية الذى أمكن بواسطته لأول مرة استغلال التربة

الثقيلة الحصبة فى جنوب شرقى انجلترا ، وأقام الباجيات دولا ملكية مطاقة صغيرة كان أمراؤها يصدرون عملة معدنية لتحل محل القضبان الحديدية . ولكن حتى عاصمتهم كامولودونم (كولشستر) كانت أصغر من أن تكون مدينة . ولقد فرضت المدنية — الحياة الحضرية والتعليم — على بريطانيا ، كما فرضت على القارة بواسطة الرومان .

شمال أوربا

وفى النهاية فإن تتبع المراحل الحضارية البربرية التسعة فى الدانمارك وجنوب السويد التى تصل إلى بداية العصر المسيحى ، تمدنا بمقارنة مفيدة مع الدانوبية والبريطانية رغم أنها لا تصل بنا إلى فجر المدنية فى الشمال. والمراحل الثلاث الأولى — وكلها أقسام من العصر الحجرى الحديث المحلى — رغم طولها الكبير وتميزها عن بعضها البعض بسهولة عن طريق التغيرات فى أساوب بناء المقابر ، وأنواع الأسلحة والزخارف الفخارية ، لا تقدم لنا أية اختلافات واضحة فى الاقتصاد والنظام الاجتماعى . لذلك فإن المراحل ١ ، ٢ ، ٣ يمكن جمعها فى مرحلة واحدة ، كذلك يمكن جمع ٤ ، ٥ فى مرحلة واحدة . إلا أنه فى المراحل ٢ ، ٣ بل وفى ١ كذلك يمكن تمييز نوعين من مجتمعات العصر الحجرى الحديث متعارضى النظام الاقتصادى ، وكان النوعان متجاورين خلال المرحلتين ١ ، ٢ فى جماعات من صيادى الحيوانات والأسماك الذين كانوا محتفظين باقتصاد العصر الحجرى الوسيط الذى سبق ذكره .

وكان مزارعو العصر الحجرى الحديث الذين يدفنون موتاهم فى قبور ميجاليثية — وسموا لذلك بناءوا الميجاليث — يمارسون اقتصاداً ريفياً قائماً على إزالة الأشجار وزراعة مكانها مع التنقل من قطعة إلى أخرى ، كما كانوا يربون الماشية والخنازير وعدداً قليلا من الغنم أو الماعز مشابهين الإنجليز فى ذلك ولكن من المحتمل أنه كانت لديهم خيول لجر الزحافات كما كانوا يمتلكون بالتأكيد قوارب ملائمة للملاحة فى المضايق والخلجان هذا إن لم يكونوا

يستخدمونها فى عبور بحر الشمال و بحر البلطيق . و يفترض أنهم حصلوا بطريق التجارة فى مقابل الكهرمان على بعض الأسلحة المعدنية والأدوات من كل من وسط أوربا والجزر البريطانية وتمكنوا من صناعة نسخ مطابقة لها بمهارة من الحجر . وتدل الأسلحة الجديدة على أن هؤلاء المزارعين كانوا محبين جداً للحرب .

وكانت قراهم صغيرة وتظل خالية لسنين طويلة — وفى باركير فى جوتلاند وجد ٥٤ منزلا ينتمى إلى المرحلة أو كانت المقابر العائلية تستعمل لفترات أطول . وفى المرحلة ٣ كانت مثل هذه المقابر تحتوى على ما يزيد على ٩٨ جسداً . وهى بالتالى لا تمدنا بأى دليل على مراتب الناس . ولم تكن تماثيل النساء أو أعضاء التناسل الذكرية مصنوعة من مواد لا تبلى بحيث تدلنا على العلاقات بين الجنسين .

وفى مقابل بناءو الميجاليث وجدت قبائل رعوية كانت تشغل أولا المنطقة الرملية فى جوتلاند وأجزاء من جنوب السويد ، ولم يمكن التعرف عليها فى الجزر الدانمركية إلا فى المرحلة ٣ ، وكان هؤلاء « الرعاة » يقومون كذلك بالصيد وزراعة الحبوب ، وربما استخدموا المحراث ، إذ اكتشفت آثار الحرث تحت قبر من المرحلة ٤ ، ولذلك فلابد أن استخدام المحراث سابق على تلك المرحلة . وفى نفس الوقت كانوا أكثر ميلا للحرب من بنائى الميجاليث ، فقد كانت تصاحب جثة كل ذكر باطة قتال من الحجر . وتعرف الجماعات الرعوية بشكل خاص من مدافنها — قبور مفردة ذات قباب — وهذه القبور لا تمدنا بأية دلائل على وجود الزعامة ، كما نصادف أحياناً رجلا وامرأة فى نفس القبر .

وقبيل نهاية المرحلة ٣ كان يوجد صناع للمعادن يصيغون فى الدانمارك وجنوب السويد نماذج من الأسلحة والحلى الدانوبية والإنجليزية ملائمة للذوق المحلى ، إلا أن هذه الأشياء كانت من الندرة بحيث لم توضع فى القبور . وما إن حلت المرحلة ٤ حتى كانت التجارة قد انتظمت بدرجة تسمح

بالحصول على الكميات الكافية من البرونز تمكن الصناع المحليين من إنتاج أسلحة وحلى جميلة . وكما حدث فى بريطانيا يبدو عصر البرونز التالى على تلك المرحلة رعوياً بشكل أساسى ، وحلت ممارسة الرعاة لدفن موتاهم فرادى محل استعمال المقابر العائلية الميجاليثية .

وكانت قبور « أوائل عصر البرونز » فى المراحل ٤ ، ٥ مغطاة بقباب كبيرة دقيقة الإنشاء ومجهزة بثروة مدهشة من أسلحة وحلى البرونز ، وأحياناً مصنوعات من المعادن الثمين ، وخرز زجاجى مستورد من البحر الأبيض بل وأحياناً مقاعد ممكنة الطى — وغالباً ما كان المقعد علامة على علو المرتبة . ومثل هذه المقابر قد تعتبر فى مكان آخر « مقابر ملكية » ، إلا أنه توجد منها ٢٤٠٠ فى الدانمارك ، ولذلك فهى تنتمى على أحسن الفروض إلى طبقة حاكمة من كبار ملاك الأراضى أو المزارع ، ومن ناحية أخرى لم يمكن التثبت من وجود مدافن « للطبقات الدنيا » قط .

وفى أواخر عصر البرونز اختفت المقابر الفاخرة ذات القباب تماماً لتفسح الطريق لقبور الإحراق الفقيرة المتكررة بشكل ممل ، والتى كانت توجد فى حقول الإحراق وأحياناً داخل قبور قديمة . ونجد بدلا منها غالباً فى المناطق المتطرفة — قرب أبسالا وفى كيفيك على ساحل الباطيق فى سكانيا وفى سدين فى شمال النرويج — نجد ثلاث مقابر ضخمة ذات قباب تغطى مقابر ملكية فعلية ذات أثاث فاخر وقرابين بشرية . فهل قامت ثورة اجتماعية محت نظام السادة الهرمى القديم لتقيم محله ملكية مستبدة ؟ ومن ناحية أخرى كان البرونز موجوداً بوفرة عما سبق ، وكان يستخدم بكثرة فى الأغراض الصناعية وغيرها من الأعمال الخشنة كقطع الأشجار وذلك دون أن يحل محل الحجر تماماً حتى فى صناعة الفئوس — واستعملت العربة ذات العجلات ، وظهرت صور العجلات الحربية على ألواح القبور فى كيفيك وعلى الجدران الصخرية . كما ظهرت رسومات لعملية الحرث وللقوارب وللسفن التى يقودها

محاربون يرتدون دروعاً مستديرة من البرونز . وجلبت التجارة الأوانى البرونزية المصنوعة فى وسط أوربا أو فى إيطاليا ، وحبات الخرز من حوض البحر الأبيض والذهب من ترانسلفانيا . ولكن جانباً كبيراً من الثروة — خصوصاً الأوانى الذهبية —كان مودعاً فى المستنقعات كقرابين مقدمة للشياطين أو الأرواح .

وفى النهاية فقد كانت القبور فى عصر الحديد أفقر من أى عهد مضى ، فلم تعرف قبور ملكية ، وحتى التقدمات والقرابين كانت نادرة وفقيرة . ومع ذلك فقد كشفت الحفريات عن مزارع واسعة بها حظائر للحيوانات ومخازن للغلال . وتبين أنظمة الحقول ، التى مازال من الممكن رؤيتها ، أن الزراعة بواسطة المحراث كانت تمارس بشكل منتظم وأن نظاماً ملائماً لحرث الأرض قد حل محل نظام الزراعة المتنقل القديم . وفضلا عن ذلك فإنه بالإضافة إلى المحراث الخفيف استخدم محراث ثقيل ربما كان ذا عجلات وقادراً على قلب التربة ، وهو بذلك أداة صالحة فى ظل المناخ البارد الرطب الذى كان يسود الشمال حينئذ ، ولكنه لم يكن يلائم حوض البحر الأبيض أو ما حول المنطقة الاستوائية حيث يفترض بداية ظهور المحراث وزراعة الحبوب . إلا أن الأمر استغرق مع ذلك ألف عام تقريباً قبل أن يبزغ ما يشبه حياة المدنية فى شمال أوربا .

الفصل الثامن

المراحل الحضارية فى أوربا المعتدلة

إن التتابع الذى لاحظناه ولخصناه فيما سبق بشكل مجرد جداً بالنسبة لثلاث مقاطعات من المنطقة المعتدلة ، يمكن بمزيد من التجريد أن نركزه فى سلسلة تطورية واحدة .

١ — وسنتخذ أول أساس للتصنيف أسلوب الحصول على الغذاء ، وبعبارة أخرى : الاقتصاد الريفى . فخلال البربرية كان هذا الاقتصاد قائماً على زراعة الحبوب وتربية الماشية والخنازير والأغنام من أجل الغذاء . ولكننا يمكننا مؤقتاً أن نميز داخل هذه المرحلة ثلاث أو أربع فترات .

ففى الفترة التى يمكن أن نفترضها فى البداية ، ولنسمها « صفراً » التى تظهر — إن ظهرت — فى الأراضى الرخوة فى المرحلة الدانوبية الأولى ، كان مصدر الغذاء الرئيسى هو القمح والشعير اللذان كانا يزرعان فى قطع صغيرة من الأرض تفلح بالفأس وتترك حالما تستنفد ، ويكملهما منتجات تربية الماشية ، لا الصيد .

وفى الفترة « ١ » التى تمثلها المرحلة الدانوبية الثانية كانت الماشية والخنازير فى بريطانيا النيوليثية وكل الشمال المياليثى على الأقل تساوى الحبوب فى الأهمية ولكن كلا النوعين لم يكونا متكاملين بدرجة كافية ، فكانت الزراعة تعتمد على إزالة الغابات وزراعة مكانها بينما كانت مصادر الغذاء الوحشية لم تستغل بواسطة الصيد استغلالا كاملا .

وفى الفترة « ٢ » كان الصيد يتم بدقة أكبر وأصبحت تربية الماشية أكثر أهمية من الزراعة ، وأصبح من الممكن أن يطلق لفظ رعوى على بعض

المجتمعات فى كل مقاطعة ، رغم أن هذه المجتمعات لم تكف عن زراعة الحبوب ، وربما استخدمت المحراث ولكن دون نظام مرتب للحرث بحيث ظلت الزراعة متنقلة . وفى بريطانيا والدانمارك سادت مثل هذه المجتمعات الرعوية فى السجل الأركيولوجى لعصر البرونز ، ولكنها تتقاسمه مع الجماعات الزراعية فى وسط أوربا . ومن ناحية أخرى فإنه بينما يظهر مثل هؤلاء الرعاة متأخرين عن مزارعى المرحلة « ١ » فى وسط أوربا وبريطانيا ، فإنه يظن أنهم عاشوا جنباً إلى جنب مع المزارعين الميجاليثيين منذ البداية وتميزوا بوضوح فى الفترة « ٢ » .

وتتميز الفترة « ٣ » إذن بزراعة المحراث واستخدام الروث من الحظائر وفضلات الغنم لإعادة الخصب إلى الحقول المنهكة . وهكذا تكاملت زراعة القمح وتربية الماشية لتسمح بقيام نظام للحرث وتكاثر قطعان الغنم . وبينما ظهر هذا النظام أولا فى أواخر عصر البرونز وتدعم فى معظم المنطقة المعتدلة عند بداية عصر الحديد الأول ، كانت الأراضى الأقل خصباً المغطاة بالغابات الصنوبرية لا تزال تزرع بطريقة إزالة الغابات وكان عدد الخنازير لا يزال يفوق عدد الغنم .

٢ — وأساس ثان للتصنيف هو الأساس التكنولوجى ، ويمكن تحديده بسهولة عن طريق التخصص فى العمل . فجوهر اقتصاد أى « عصر حجرى » أن كافة الأدوات الأساسية يمكن أن تصنع من الخامات المحلية أو داخل المنزل دون حاجة إلى مزيد من تقسيم العمل . إلا أنه داخل العصر الحجرى الحديث يمكن اعتبار التخصص فيما بين الجماعات ، الذى يتمثل أركيولوجيا فى مناجم الصوان ومصانع الفئوس (التى ليس من الضرورى أن تدار بواسطة عمال متفرغين) مرحلة فرعية أ . ومثل هذه الجماعات من المتخصصين وجدت فى بريطانيا وعلى نطاق غرب أوربا منذ البداية ، بحيث أن الفترة « ١ » فيها يمكن اعتبارها « ١ » أ . أما فى وسط وشمال أوربا فإن الفترة « ١ » أ استنتاجية ، بينما ثبت وجود الفترة « ٢ » أ .

ويستحيل قيام عصر البرونز بدون متخصصين متفرغين كل الوقت ولذلك فإن عصر البرونز يبدأ مرحلة تكنولوجية جديدة « ب » . ويمكن اعتبار عصر البرونز المبكر فى أى مكان « ٢ » ب . ولكن يبدو أنه حتى ذلك الوقت كان صناع المعادن المتخصصون متنقلين فى الأساس ، وليسوا سكاناً دائمين فى أى قرية وبالتالى فمن المحتمل أنهم لم يكونوا مناجين فى التنظيم الاجتماعى المحلى .

أما « الانفصال الحقيقى بين الحرف والزراعة » فيبدأ على استحياء فى أواخر عصر البرونز عندما نجد أول دلائل الحدادين المستقرين . إلا انه فى معظم المناطق شهد أواخر عصر البرونز كذلك الاستخدام الفعال للزراعة بالمحراث بحيث يمكن تسميته الفترة « ٣ » ج ، إذا كانت « ج » تعبر عن المرحلة التكنولوجية الحديدة . وهذه الفترة تتفق مع تزايد الأدوات المعدنية التى أصبحت فى متناول الزراع والمعدنيين . وربما مع تخصص بعض الحرف الأخرى كحرف النجارة وصناعة العربات على الأقل .

وكان استخدام الحديد فى صناعة الأدوات والأسلحة من الأهمية بمكان بحيث أن عصر الحديد الأول يجب تمييزه بالفترة « ٣ » د . ولكن رغم أنه مكن الفلاحين من إفساح المجال لحقول جديدة وبالتالى زاد من كمية الغذاء فلم يحدث مباشرة تقسيما جديداً للعمل .

لم يظهر هذا التقسيم لأول مرة إلا فى عصر الحديد الثانى (لأمنين) ، الذى يجب تسميته بالتالى الفترة « ٣ » هـ . وهنا نصادف لأول مرة عدداً من المتخصصين الجدد المتفرغين كل الوقت — صناع الزجاج والخزف — وتقسيمات فرعية للحرف القديمة . وفى نفس الوقت ظهرت فى السجل الأركيولوجى لأول مرة أدوات جديدة كثيرة ومخترعات موفرة للجهد ، (كالملاقط ذات المحاور ، والمقصات ، والمناجل ، والرحى الدوارة) ..

٣ — ويجب الربط بين وسائل النقل ومراحل الاقتصاد الريفى والمراحل

التكنيكية ، ولكن السجل قاصر جداً فيما يتعلق بها بحيث لا يمكن اتخاذها أساساً مستقلا للتصنيف . ويمكن استنتاج استخدام النقل الذاتي في كل المراحل . وكانت الخيول تربى ويفترض أنها كانت تستخدم للحمل أو لجر الزحافات في الفترة « ٢ » في شمال ووسط أوربا ، ولكن يحتمل أنها لم تستخدم في بريطانيا حتى الفترة « ٣ » . وفيها أي في الفترة « ٣ » ج ، يفترض وجود العربات ذات العجلات في كل مكان .

٤ — ويجب إضافة حجم التجارة ومداها لإكمال تشخيص أي اقتصاد ولكن ما زالت تنقصنا المعلومات الدقيقة . ولقد سبق أن اكتشفنا في الفترة « ١ » وجود « تجارة » متقطعة وواسعة المدى في بعض الأدوات الكمالية كالأصواف كما كانت بعض المواد المنتقاة كحجارة الفئوس أو الرحى « تنتقل » إلى ما يزيد على مائة ميل . ومع نشوء التخصص فيما بين الجماعات لابد أن هذه التجارة المحلية قد أصبحت أكثر انتظاماً وشملت المواد المصنوعة وشبه المصنوعة . وكان ازدياد انتظام التجارة شرطاً لازماً بالنسبة « لعصر البرونز » ولذلك فهي من سمات الفترة « ٢ » ب ، وكانت التجارة حينئذ لا تقتصر على « المعادن » الصناعية ولكنها كانت تشمل المواد الكمالية السهلة الحمل كالكهرمان والذهب والكهرمان الأسود . كما عرفت الأشكال المقننة للسبائك « العقود ، والفئوس المزدوجة » في مجالات ضيقة . ولكن لم تعرف الأوزان المقننة ولا المعيار العام للقيمة — النقود — ومن الواضح أن تجارة الكهرمان لم تربط فقط المناطق الإنتاجية في جوتلاند وساملاند بالمناطق المنتجة للمعادن في بريطانيا ووسط أوربا ، بل ربطت الكل كذلك بكريت المينوية واليونان الميسينية ، أي بأقرب المراكز الحضرية التي يتركز فيها فائض إنتاج اجتماعي . ولذلك فإنه في المدى البعيد لم تعد كل أثمان المعادن والكماليات المستهلكة في الفترة « ٢ » ب تابع من فائض الإنتاج الاجتماعي المنتج محلياً بل كانت تسدد أثمانها جزئياً على الأقل من الفائض المتراكم في شرق البحر الأبيض . وفي الحقيقة فإن « عصر البرونز المبكر » أي الفترة (٢) ب لم يوجد إلا في البلاد المنتجة للمواد

المطلوبة فى شرق البحر الأبيض وعلى طول الطرق المؤدية إليه ، ولم يوجد فى شمال فرنسا والنرويج ومنطقة الغابات فى شرق أوربا .

وعلى العكس من ذلك فإنه فى عصر البرونز المتأخر أى الفترة « ٣ » ج انتشرت المنتجات المعدنية وزاد توزيعها ووصلت حتى إلى مناطق لم تكن قد تقدمت إلى أبعد من المستوى « النيوليثى » للفترة « ٢ » أ . وهذا يعنى وجود سوق داخلية حقيقية بعبارة أخرى فائض إنتاج اجتماعى محلى ناشىء عن زيادة العائد من الإنتاج الأولى . ومع ذلك فإن التجارة مع أسواق البحر الأبيض كانت لا تزال توالى الاقتصاد البربرى بالعون من فائض الإنتاج المتراكم فى المدنيات الحضرية . ومن هنا أتت الموازين التى تبنتها المجتمعات البربرية . وتظهر النقود فى شكل حلقات ذهبية تتقبلها مختلف الجماعات المحلية كواسطة للتبادل .

وبدخول الحديد فى الفترة « ٣ » د ، لوحظ تقلص نسبى فى التجارة وانتكاس نحو الاكتفاء الذاتى فى عدة مناطق خصوصاً انجلترا وشمال أوربا . ومن الناحية الأخرى كان لنشوء أسواق حضرية فى إيطاليا وجنوب فرنسا « مارسيليا » وحول شواطىء البحر الأسود أن ازداد الطلب على المواد الخام المنتجة فى المنطقة المعتدلة من أسواق قريبة منها بشكل لم يوجد من قبل . وهكذا ازداد تدفق تيار المصنوعات الحضرية ، التى ما زالت كماليات فى الأساس ، عبر ممرات الألب أو إلى مراعى الاستبس وترانسلفانيا ، وفى أثرها دخل الشكل المتعارف عليه للنقود « القضبان » .

وكان الانتقال من الفترة « ٣ » د ، إلى الفترة « ٣ » هـ ، حول الألب نتيجة مباشرة لهذه التجارة . وأدى استمرار توسعها هى والتجارة الداخلية إلى استعمال النقود المسكوكة .

٥ — ولقد سبق التثبت من وجود الحرب فى الفترة « ١ » — وليس فى

الفترة صفر — ولكنها لم تصبح نشاطاً اجتماعياً منتظماً وبارزاً لكافة المجتمعات فى أوربا المعتدلة إلا فى الفترة « ٢ » أ . وبالتالى ازداد ظهور الأدلة على وجود الحرب ، فيما عدا لدى زراع عصر الحديد المبكر فى الفترة « ٣ » د الذين تراجعوا إلى الاكتفاء الذاتى وضيقوا من علاقاتهم التجارية مع الآخرين إذ يبدو أنهم لم يقيموا أى علاقات عدوانية . ويجب أن نلاحظ أن البرونز استخدم أولا فى الفترة « ٢ » ب لصنع الأسلحة أساساً وكانت نادرة وغالية الثمن . لذلك لم يكن من الطبيعى أن يحصل على هذه الأسلحة الجديدة الحاسمة فى الفترة « ٢ » ب — وكذلك العجلات الحربية فى المرحلتين « ٣ » ج ، و « ٣ » هـ — سوى أقلية يتركز فى يديها فائض الإنتاج الضئيل .

٦ — ولا يمكن تقدير العدد الكلى للسكان الذى كان يعوله كل نوع من أنواع الاقتصاد فى أى منطقة من المعلومات الموجودة بأيدينا . إلا أن ازدياد عدد وحجم المدافن بانتظام من مرحلة لأخرى يبين ازدياداً مطرداً فى عدد السكان مما يبرر القول بأن كل مرحلة تمثل تقدماً عن المرحلة التى سبقتها . ويمكن على أى حال أن نقيم تقديراتنا لعدد الناس الذين كانوا يعيشون معاً فى جماعة محلية واحدة على أساس القرى أو المدافن التى يتم الكشف عنها فقط ، وذلك إما بالكشف عن العدد الكلى للمنازل أو المقابر ، وإما باستنتاج هذا العدد الكلى من نسبة المساحة التى تم الكشف عنها . على أن كلتا الطريقتين لا يمكن الإفادة منها فى حالة معظم « المجتمعات الرعوية » فى الفترات « ٢ » أ و « ٢ » ب إذ لم تعرف عنها أى قرى من هذا النوع ، كما أن أعضاءها كانوا يدفنون تحت قباب لا تغطى بالضرورة كل المرتى ، وهى على أى حال أقل قابلية للبقاء كمجموعات كاملة من القبور المسطحة المتجمعة فى مدفن .

ويبدو أن مزارعى العصر الحجرى الحديث فى وسط أوربا كانوا يعيشون فى قرى تشمل من ١٢ إلى ٣٠ منزلا . وفى الفترة « ١ » أ ، بلغ عددها من ٤٥ (فى هومولكا فى بوهيميا) إلى ٥٠ (قرية ألتيم فى جولدبيرج فورت).

وتنقصنا الأدلة المشابهة فى الفترة « ٢ » ب . وفى الفترة « ٢ » ج ، وجدنا فى نفس الموقع قرى بها ٣٨ منزلا صغيراً ثم ٩ منازل كبيرة . ووجدت قرى صغيرة تشمل اثنى عشر منزلا فى المرحلة «٣» د إلا أنها كانت محاطة بأسوار محصنة تغطى مساحة تزيد على ١٢ فداناً وكانت ولا شك تشمل عدداً أكبر من المنازل رغم عدم وجود الأدلة . كما يفترض أيضاً وجود مزارع منعزلة فى المرحلة « ٣ » هـ . وكان الحد الأقصى لعدد المقابر فى المدفن الذى ينتمى إلى قرية واحدة هى الآتى :

الفترة الأولى : ٦٥ — ٧٨
« الثانية : أ — ٥٠
« « : ب — ١٤١
« الثالثة : ح — ٢٤٠ (٣٢٠)
« « : د — ١١٠٠
« « : هـ —

وهذه الأرقام لا يمكن مقارنتها بدقة إذ لا يوجد دليل يمكننا من استنتاج عدد السنين التى استخدمت المدافن خلالها . لذلك فإن زيادة عدد المقابر قد يعنى دوام القرية بدلا من ازدياد عدد السكان .

٧ — وقد كانت بعض المنازل فى قرى الدانوب خلال الفترة « ١ » كبيرة للدرجة أنها تسع عشيرة صغيرة لا أسرة طبيعية واحدة . وكذلك فإن المقابر الكبيرة الجماعية التى تنتمى إلى نفس المرحلة فى بريطانيا وشمال أوربا ربما كانت لعشائر بدلا من أن تكون لعائلة واحدة ، أما بالنسبة لباقى الفترات ما عدا التجمع الموجود فى سكارابرى ، فإن الدلائل المعمارية والجنازية القليلة الموجودة ابتداء من الفترة « ٢ » أ فصاعداً تتفق وافتراض قيام العائلة الطبيعية كمؤسسة أو كوحدة اقتصادية .

٨ — ووجدت تماثيل صغيرة للنساء فى كل من وسط أوربا وبريطانيا فى هذه المرحلة فقط ، وفسرت على أنها تمثيل لإلهات الأمومة وبالتالى دليلا

على الانتساب للأم . ولكن فى غرب أوربا وجدت هذه التماثيل إلى جانب تماثيل لأعضاء التناسل الذكرية فى المرحلة « ١ » ، كما حلت تماثيل مشابهة محل التماثيل الأنثوية فى وسط أوربا فى المرحلة « ٢ » أ .

وقد وجدت القبور المزدوجة التى تحتوى على رجل وامرأة مدفونين معاً فى كافة الفترات وفى كافة المقاطعات ، كما سبق وجودها فى مرحلة الوحشية . ولقد تكررت كذلك ملاحظة أن المرأة كانت أصغر بكثير من رفيقها (مثل « قبر ملكى » ينتمى إلى الفترة « ٢ » ب ، وفى عدة مقابر لزعماء من الفترة « ٣ » هـ) . وكانت القبور المزدوجة فى الفترات « ٣ » ج - « ٣ » د ، « ٣ » هـ ينتمى معظمها لزعماء . وهى نادرة بشكل ملحوظ لدى الرعاة المحاربين فى المرحلة « ٢ » أ فى الدانمارك .

٩ — ويمكن استنتاج ملكية الأفراد أو على الأقل العائلة الطبيعية لوسائل الإنتاج فى شكل الماشيه خلال الفترة « ١ » من الحظائر التى يزعم وجودها ملحقة بالمنازل الصغيرة فى الدانمارك إلا أن هذا الدليل ما زال موضع شك . ولكنها — أى الملكية — ثابتة بما لا يدع مجالا للشك فى الفترة « ٢ » ب (أ) فى شتلاند من وجود حظائر واضحة للماشية ، وبعد ذلك فى الفترة « ٣ » ج ولقد استنتج « هات » وجود الملكية الفردية للحقول فى الفترة « ٣ » د فى الدانمارك إلا أن حججه ليست مقنعة .

١٠ — أما الزعماء الذين يظن وجودهم فى الفترة « ٢ » أ فإنهم يظهرون بشكل مؤكد لأول مرة فى الفترة « ٢ » ب ، وذلك فى وادى السال فقط حيث تثبت القبور ذات البناء والثراء الخاص مرتبة شاغليها . على أنه لا المدافن ولا الكشف الكامل عن مواقع لعدة قرى قد زودتنا بأدلة شافية عن اختلاف المراتب خلال الفترة « ١ » والفترة « ٢ » أ . وفيما بعد فى الفترة « ٢ » ب ، نجد أن القبور الفاخرة فى وسكس والدانمارك قد تنتمى إلى أرستقراطية تتكون من عدد كبير من صغار الزعماء إلا أن ذلك موضع شك . وفى الفترة « ٣ » ج يثبت تماماً وجود الزعماء فى وسط أوربا . وفى الفترة « ٣ » د يمكن التمييز

بين الزعماء الكبار أو الملوك وبين الزعماء المحليين أو الرؤساء على أنه فى انجلترا تنتمى أول قبور يمكن التثبت من انتمائها إلى زعماء إلى الفترة « ٣ » هـ .

١١ — ويمكن الاعتراف بوجود العبودية فى وسط أوربا منذ الفترة « ١ » إذا اعتبرنا القبور المزدوجة التى يوجد بها جثتان إحداهما تحوطها مظاهر الفخامة والأخرى مجردة منها دليلا على وجود هذا النظام . إلا أن مثل هذه الأدلة دائماً نادرة ومبهمة فيما عدا ما يتعلق منها بقبور الزعماء . فمثلا فى قبرين اسكتلنديين كانت الجثتين تنتمى إلى نفس النمط الفيزيقى أهل البيكر الذين يبدو أنهم غزوا بريطانيا فى نهاية الفترة « ٣ » هـ .

ومن المعروف أن الأدلة على وجود العبودية من الصعب اكتشافها فى السجل الأركيولوجى ، كذلك لا يمكن الحصول على أدلة تثبت عدم وجودها ومن المفيد فى هذا الصدد أن نبحث كيف كان يتم التجنيد « للأعمال العامة » . فمن المفروض أن العمل فى تحصينات القرية كان — مثله مثل الخدمة العسكرية — فرضاً على كل قادر من أعضاء الجماعة . وينطبق نفس الشرط على تعبيد الطرق ونجد ذلك فى قرى العصر الحجرى الحديث فى سكارابرى وفى المستنقعات حول جبال الألب . وإذا كانت القبور الميجاليثية حقيقة قبوراً جماعية فيمكن تفسيرها بنفس الطريقة ، بل يمكن تفسير أضخم قبور « عصر البرونز » كالتى وجدت فى أفبورى وستونهنج ، كما يمكن التذرع بالعمل الجماعى الاختيارى لتفسير التحصينات الضخمة فى عصر الحديد . إلا أنه يبدو أن إقامة حصن أو قلعة الزعيم داخل الموقع ، كما نجد فى جولدبرج فى الفترة « ٣ » د ، وفى القبور الملكية يتضمن شيئاً أكثر من ذلك ، يتضمن واجباً على الأتباع وهو أن يؤدوا خدمات عماية لزعيمهم . ورغم أن هذا الزعيم ما زال يعتبر ممثلا للمجموع ، إلا أنه يكمن هنا ، حتى فى البربرية ، بذور انقسام طبقى — واحد على الأقل — غير الانقسام الموجود بين الأحرار والعبيد .

ومن ناحية أخرى ، من الممكن — ولكن ذلك أقل احتمالا — أن هذا

النوع من العمل كان يقوم به العبيد — أى أسرى الحرب . و من رأى شوكة و برو شن(١) أن العمل الشاق فى المناجم فى الفترة « ٣ » ج و ما بعدها ، كان يؤديه مثل هؤلاء العبيد . إلا أنهما لم يوردا أية حجة إيجابية ، و اقترح بيتيونى مصادر أخرى لهذا العمل .

و ربما لاحظ القارىء أن العملية التى وصفناها فى الفترة الأولى لا تكشف عن مراحل فى تطور الاقتصاد الريفى فحسب ، بل إنها أميل إلى أن تكشف عن مراحل تكيف اقتصاد ريفى قائم على الحبوب المستوردة و الأغنام المستوردة مع بيئة منطقة الغابات المتساقطة . و بنفس الطريقة فإن التكنولوجيا التى عالجناها فى الفترة الثانية لم تنشأ فى أوربا المعتدلة و لكنها استعيرت من شرق البحر الأبيض و تناولتها يد التعديل كذلك .

و يبدو أيضاً أن التجارة المنتظمة التى وزعت المواد التى اعتمدت عليها التكنولوجيا فى عصر البرونز المرحلة « ب » إنما أقامها رسل من الأسواق المتمدينة . و من الواضح أن التقدم التكنيكى — الرحى الدوارة ، و البوصلة ، و سك النقود — الذى يميز الفترة « ٣ » هـ انتشر من المدن اليونانية ، و الإتروسكانية عن طريق نفس التجارة التى جلبت المواد الخام (المرجان ، و النبيذ) و المصنوعات (الزهريات المعدنية و الخزف) إلى المنطقة المعتدلة .. و يمكن افتراض ميكانيزم مماثل فى المراحل التى سبقت ذلك .

و من ناحية أخرى فإن الاقتصاد الريفى فى الفترة « ٢ » رغم أنه يبدو لأول وهلة أكثر « وحشية » ، فإنه كان فى الحقيقة أكثر إنتاجية من الفترة « ١ » و هذا هو السبب فى أنه أزالها و حل محلها . و فى الحقيقة يعتقد الكثيرون أن بعض القبائل الأكثر رعوية التى تظهر فى الفترة « ٢ » أ ، كانوا من المهاجرين الجدد فى وسط و شمال أوربا . مثل معاصريهم من أهل البيكر فى بريطانيا . و مع ذلك فإن سيطرة « الرعاة » خلال الفترة « ٢ » ب ،

---

(١) فينا ١٩٣٢ .

لا تثبت سوى تفرق اقتصادهم فى تلك المناطق المعينة (بريطانيا وشمال أوربا والهضبة الجيرية الرملية والمناطق الصنوبرية فى وسط أوربا) التى سيطروا عليها . وكذلك فإن التقدم فى الاقتصاد الريفى الذى تمثل فى استخدام المحراث فى الزراعة سار جنباً إلى جنب مع الافتراض التكنيكى المسبق وهو إمكانية حصول المزارعين على الأدوات المعدنية اللازمة لصناعة الأدوات الخشبية الدقيقة . ومع التضخم المترتب على ذلك فى العائد من الإنتاج الأولى ازدادت قدرة السوق المحلى على امتصاص المصنوعات المعدنية بنفس القدر .

ومن المحتمل جداً أن المنظمات الاجتماعية التى يمكننا تمييزها والتى نلاحظ ظهورها فى عدة مراحل أو فترات كانت بالمثل مستعارة أو منقولة من المجتمعات الأكثر تقدماً . وحتى إذا كان الأمر كذلك فمن الواضح أنها لاتستقر إلا بقدر تدعيم اقتصاد المنطقة المعتدلة لها . « فقبور الزعماء » الفاخرة فى وادى السال فى الفترة « ٢ » ب ، تبدو كما لو كانت نسخاً فقيرة من المقابر الملكية فى أبيدوس ، وأور ، أو انيانج ، بحيث إن زعماء عصر البرونز المبكر يمكن اعتبارهم ظلالا للملوك المقدسة فى مصر وما بين النهرين والصين . ولكن لما كانت مثل هذه القبور تظل قليلة فى المنطقة المعتدلة فى تلك المرحلة فإننا يمكن أن نستنتج أن فائض الإنتاج الاجتماعى المحلى كان لا يزال صغيراً ليعول مثل هذا النظام ، فالثروة المدفونة فى قبور السال يمكن اعتبارها جزءاً بسيطاً من فائض الإنتاج المتراكم فى الشرق حصلوا عليه فى مقابل المواد الخام وتكثر القبور الملكية لأول مرة بشكل كاف لإثبات وجود الملكية كنظام طبيعى فى الفترة « ٣ » د ، غير أن ذلك قاصر على وسط أوربا . وفى ذلك الوقت لم يكن من الممكن فقط إنتاج فائض اجتماعى أكثر ، بل أصبح فى الإمكان كذلك الحصول على وسائل جديدة للاتصال والسيطرة فى شكل العربة ذات العجلات والفرسان .

وهكذا يمكن أن نأمل فى اكتشاف بعض الارتباطات بين النظم الاجتماعية — السياسية ، والمراحل التكنيكية — الاقتصادية فى منطقة الغابات المتساقطة .

إلا أن المراحل التكنيكية — الاقتصادية هذه ليست عامة ولكنها مشروطة تماماً بالتربة والمناخ والظروف التاريخية . وإذا كنا نريد استخلاص تجريدات من البيئة الفيزيقية والإنسانية حتى نكتشف « قوانين » عامة فيجب علينا أن نفحص مقاطعات طبيعية أخرى ومختلف الظروف التاريخية ، ويمكننا اليوم أن نحصل على التتابع الحضارى فى منطقة الأمطار الشتوية بحوض البحر الأبيض وفى المنطقة تحت الاستوائية فى الاستبس وفى وديان الأنهار الرسوبية فى الجنوب والجنوب الشرقى .. فلنتجه الآن إليها .

الفصل التاسع

التتابع الحضارى فى المجتمعات البربرية

٢ـ منطقة البحر المتوسط

إن التتابع الوحيد الكامل الممكن قبوله فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ينطبق على نهايته الشرقية فقط – أى على السواحل الغربية وجزر بحر إيجه. فهذه المنطقة مثلها مثل باقى حوض البحر الأبيض يقتصر المطر فيها على شهور الشتاء بينما صيفها حار جاف. لذلك فمصادر المياه الثابتة قاصرة على الينابيع الدائمة وعدد قليل من الأنهار القصيرة التى تغذيها الثلوج، وأراضى كريت واليونان صخرية جبلية، ولكن التربة البركانية الجيرية رغم أنها حجرية، فهى صالحة لاستنبات الزيتون والتين والكروم وكذلك الغلال. وبينما تعوق سلاسل الجبال النقل الداخلى، فإن البحر، وهو هادىء عادة فى الصيف، يفتح أمام السواحل المتعرجة طرقاً مائية مغرية ويمدها بالأغذية البحرية. وكان يوجد بها فى الماضى كميات وفيرة من الغابات تفى بحاجة بناء السفن من الأخشاب، رغم أنها لم تكن فى استمرار ولا كثافة غابات المنطقة المعتدلة فى شمال الألب والبلقان. وفى النهاية فقد فتح البحر طريقاً إلى سواحل شمال أفريقيا وآسيا حيث كانت أقدم المدنيات الحضرية قد جمعت فيهما منذ ٣٠٠٠ ق. م كمية كبيرة من فائض الإنتاج الاجتماعى. وفى الحقيقة فإن معظم مرحلة البربرية فى بحر إيجه معاصرة للمدنية فى مصر وما بين النهرين.

وفى كريت وشبه جزيرة اليونان ومقدونيا يمكن تمييز خمس مراحل حضارية أساسية نطلق عليها العصر الحجرى الحديث، والعصر الإيجى المبكر والأوسط، والمتأخر، ثم عصر الحديد. ورغم أنها جميعاً معاصرة لبعضها البعض بشكل أو بآخر فى الأقاليم الثلاثة فإن حضارة كل إقليم فى المرحلة

الواحدة متميزة . ويمكن تقسيم المرحلة الأولى إلى « ا » و « ب » وذلك بالنسبة للأرض الأصلية فى شبه الجزيرة ، ولكن ذلك التقسيم لا ينطبق على جزيرة كريت من ناحية ، ويبدو أوضح ما يمكن فى مقدونيا وميشالى ، حيث المرحلة « ب » من العصر الحجرى الحديث معاصرة أساساً للإيجية المبكرة فى شبه الجزيرة . أما كريت فقد اكتسبت المدنية بشكل مقاقل فى العصر المينوى الأوسط (الإيجى الأوسط) ولكن تأخر ظهور المدنية فيما عدا ذلك حتى عصر الحديد ، وحتى فى كريت يفصل عصر مظلم من الأمية بين حضارة عصر البرونز المحلية وبين حضارة عصر الحديد الكلاسيكية . وتوجد مثل هذه الفترة المظلمة على اليابسة أيضاً ، ولكنها لم ترتد فى أى منهما إلى فقدان الأساليب التكنيكية الأساسية ووسائل النقل التى نشأت فى عصر البرونز ، أو إلى انقطاع التجارة تماماً .

وسيكون من المريح أن نتناول الفترات الخمس كما لو كانت مراحل وأن نتبع الترتيب الذى اتبعناه فى الفصل السابع . وسنصف التتابع فى شبه جزيرة اليونان أولاً ثم نوجز ما لوحظ فى كريت ومقدونيا .

(أ) شبه جزيرة اليونان :

١ — منذ بداية السجل يقوم الاقتصاد الريفى على الزراعة المختلطة مع وجود نظام للزراعة يسمح بالاحتلال الدائم لنفس الموقع . ورغم أنه لم يثبت وجود المحراث فإنه يبدو أن مزارعى العصر الحجرى الحديث المبكر فى اليونان قد وصلوا إلى مستوى الفترة « ٣ » فى البيئة الأقل تجانساً للغابات المتساقطة . وفى الحقيقة لا تستبعد ممارسة زراعة الحدائق . وفى نفس الوقت فإن المصادر الطبيعية للغذاء البرى كانت مستغلة تماماً بواسطة صيد الحيوانات وكذلك صيد السمك .

وثبت أنه ما إن حلت المرحلة الإيجية المبكرة (وتسمى الهيلادية) على اليابسة حتى كانت زراعة الكروم والتين وربما الزيتون قائمة كما استخدم

المحراث بالتأكيد . ولا توجد دلائل على انعزال القبائل الرعوية عن الزراعية ، رغم أنه قد يتم أحياناً نقل القطعان من الأراضى المنخفضة إلى المراعى الصيفية. ولابد أن الزراعة المتخصصة لإنتاج المحاصيل من أجل الأسواق قد بدأت على الأقل فى العصر الهيلادى المتأخر ، وذلك بالإضافة إلى الزراعة من أجل القوت . على أن الاحتمال الأكبر أن كافة الجماعات كانت تعتمد فى غذائها على القمح المزروع محلياً حتى القرن السادس.

٢ — ومن المفروض أن الأدوات فى العصر الحجرى الحديث كانت تصنع محلياً دون تخصص ، إلا أن معظم الجماعات فى العصر الهيلادى المبكر ، كانت تضم صانع برونز مقيم يصنع أدوات الحرفيين ، ثم الأدوات الزراعية كالمناجل فى العصر الهيلادى المتأخر . وازداد عدد المتخصصين بسرعة ، وبدأ الخزافيون المحترفون يعملون فى شبه جزيرة اليونان خلال العصر الهيلادى الأوسط ولابد أنه قد انضم إليهم متخصصون آخرون كالبنائين والنجارين وصناع العربات ، والصياغ ، وغيرهم . ولابد أن الحرف الكمالية قد عانت من تأخر خطير فى البدايات المظلمة لعصر الحديد وربما اندثر بعضها .. ولكن رغم تغير الأساليب وانحدار الفنون فإن معظم التكنيكات ، وبالتالى الأسر أو الطوائف التى تخصصت فيها قد بقيت .

٣ — ولقد ثبت وجود السفن البحرية(١) ذات المجاديف منذ العصر الهيلادى المبكر ثم السفن الشراعية من بداية العصر الهيلادى المتأخر . وفى ذلك كانت الخيل والعربات ذات العجلات قد أصبحت متوافرة للاستعمال فى النقل البرى ، وقامت بعض المحاولات لتعبيد الطرق وإنشاء الجسور فوق السيول . كما ثبت وجود فن ترويض وركوب الخيل منذ نهاية عصر البرونز .

٤ — وحتى فى العصر الحجرى الحديث كان الأوبسيديان — المجلوب بطريق البحر من ميلوس (أو ربما بطريق البر من الجزر) يستخدم عادة فى

(١) سفن عصر البرونز مارينااتوس — « عصر الحديد » كوهين .

تيسالى ، بينما كانت الأوانى الخزفية – بمحتوياتها طبعاً – يتم تبادلها بين المناطق البعيدة عن بعضها البعض . ولابد من افتراض وجود التجارة البحرية المنتظمة (١) فى فترة العصر الميلادى المبكر . وقد جابت هذه التجارة إلى جانب المواد الخام اللازمة للتكنولوجيا فى أى عصر برونزى (ربما وجد القصدير فى اليونان نفسها أما النحاس الأحمر فلابد أنه كان يأتى من نكسوس أو كريت أو ربما قبرص) المصنوعات والمواد التجارية من كريت ونقلت المصنوعات الميلادية إلى طروادة فى الدردنيل . وفى الحقيقة فإن تجارة العصر الميلادى المبكر قد وصلت بشكل مباشر أو غير مباشر إلى آسيا الصغرى ومصر ، من ناحية وإلى صقلية وسردينيا وربما أسبانيا من ناحية أخرى .

وخلال العصر الميلادى الأوسط كانت الواردات والصادرات أقل حركة رغم أن المدد من المعادن لم يتوقف . ولكن التجارة عادت فاتسعت بشكل ضخم فى العصر الميلادى المتأخر . فوصلت الزهريات الميلادية المملوءة – فرضاً – بالنبيذ أو زيت الزيتون إلى صقلية ومصر والشرق والأناضول ومقدونيا . وفى مقابل ذلك وجدت المصنوعات المصرية والسورية والحيثية طريقها إلى اليونان ، كما وصلها خرز الكهرمان من البلطيق ويحتمل الذهب الإيرلندى كذلك والنحاس والقصدير من أوربا المعتدلة ، ويجب أن نشير هنا إلى أنه بالنظر إلى المصادر الأدبية فإن التجارة والقرصنة كانتا شيئاً واحداً فى بحر إيجه . وفى الأركيولوجيا لا يمكن تمييز ما هو منهوب عما هو مستورد .

ولقد تدهورت التجارة مؤقتاً فى عصر الحديد وانتكست كثير من الجماعات إلى الاكتفاء الذاتى . ولكنها مع ذلك لم تصل إلى ما وصل إليه جنوب انجلترا خلال الفترة « ٣ » د . إلا أن تيار الكهرمان المتدفق على اليونان لم يتوقف كلية أبداً ، كما أنه منذ القرن العاشر كان الخزف التيسالى يصل إلى فلسطين . وما إن حل القرن السابع حتى كانت الآنية وغيرها من المصنوعات المنتجة بكميات كبيرة تصدر على نطاق لم يسبق له مثيل إلى أسواق

(١) واس و بلجن « صناعة الخزف كدليل على التجارة » .

البحر الأبيض . وفى بداية المرحلة ربما كانت مثل هذه التجارة تتم بواسطة سفن غريبة (فينيقية) إلا أنه بعد ذلك استبعدت هذه السفن بواسطة كبار ملاك الأراضى الذين كانوا يجمعون بين التجارة والقرصنة ، ثم أصبحت تتم بعد ذلك على أيدى تجار محترفين كانوا يستعملون سفن الصيد بعد تحويلها إلى مراكب تجارية ثم بنوا بعد ذلك سفناً خاصة للشحن أصبحت منذ عام ٦٥٠ ق. م. متميزة عن السفن المعدة أصلا للحرب والقرصنة .

ولقد تم الاعتراف بالأوزان والمقاييس المقننة منذ العصر الإيجى المبكر . وفى العصر الإيجى المتأخر كان الثور هو معيار القيمة المعترف به وتمت موازنته بما يعادله من الذهب (التالنت) ، إلا أن السلع (كالأباريق ، والحوامل أو القدور البرونزية) ظلت وسائل التبادل(١) . وفى عصر الحديد انضمت هاتان الوظيفتان فى عملة واحدة معترف بها هى القضبان التى حل محلها منذ عام ٧٠٠ ق. م عملات من المعادن الثمينة فى العمليات التجارية الكبيرة .

٥ — ولا توجد دلائل على وجود الحرب فى العصر الحجرى الحديث أ إلا أن بعض قرى العصر الحجرى الحديث « ب »كانت محصنة وكذلك بعض المدن الساحلية المعاصرة لها فى العصر الهيلادى المبكر . كما أن القبور والقرى فى العصر الهيلادى الأوسط تبدو بلا شك حربية الطابع . أما فى العصر الهيلادى المتأخر فكانت الحرب بلا شك داء متوطناً . وفى ذلك الوقت كانت السيوف البرونزية الغالية والعجلات الحربية الباهظة التكاليف هى الأسلحة الحاسمة . وقلل الحديد من تكاليف أسلحة العدوان وأفسحت العجلات الحربية المجال للفرسان ثم للمشاة . وكان واضحاً أن سفن عصر الحديد كما بدت فى الرسوم على الزهريات معدة أساساً للاستخدام فى القرصنة أو الحرب .

٦ — وكانت القرية المعتادة فى اليونان النيوليثية عبارة عن مجموعة من المنازل الصغيرة التى يتكرر بناؤها فى نفس الموقع وتكون بقاياها تلالا بيضاوية

---

(١) سلتمان « العملات الاغريقية » .

الشكل يبلغ طرلها عادة ١٢٠ قدماً وعرضها ١٠٠ قدم وتصل أحياناً إلى ٢٢٠ قدماً × ١١٥ قدماً . وعلى السهل الصغير الساحلى الواقع بين لاريسا وخليج فرلو وجد ما لا يقل عن ٥٠ من هذه القرى . وكانت القرى الهيلادية صغيرة المساحة فى الداخل على الأقل ، ففى مالتى فى مسينيا مثلاً كان سور القرية يحيط مساحة قدرها ١٣٨ × ٨٢ قدماً .

وعلى أي حال فغالباً ماكانت تلك المساحات الصغيرة مزدحمة بالمبانى المركبة التى تفصلها حوار ضيقة . وفى الفترة الهيلادية المتأخرة نجد بالإضافة إلى ما سبق قلاعاً محصنة أو « أكروبولات » تغطى الواحدة منها مساحة من ٥ إلى ١١ فداناً وتحيط بها خارج أسوارها قرى مكشرفة معتمدة عليها . ويحتل الجانب الأكبر من الحصن قصر عظيم بملحقاته . على أنه لا القرى المكتظة فى العصر الهيلادى المبكر ولا الحصون فى الهيلادى المتأخر يمكن اعتبارها مدناً حتى من وجهة نظر الحجم الفيزيقى ، فالمدينة الإغريقية الكلاسيكية قد تغطى مساحة تبلغ من ١٠٠ فدان (برين) إلى ١٢٠٠ فداناً « أولينثرس »(١) . ولكن متى وصلت المدن إلى هذه المنطقة الحرجة ؟ أمر ما زلنا غير متأكدين منه .. فلم يتم اكتشاف كامل لمواقع من عصر الحديد المبكر . ومن الناحية الأخرى فلا شك أنه كان يسكن « المدن »(٢) الأولى فلاحون كادحون ولو أنه كان يختلط بهم دائماً — كما هو الحال فى عصر البرونز — حرفيون . ولا تمدنا نسبة العناصر التجارية والصناعية إلى المزارعين بأساس صالح لتقييم المدنية عن المحك الذى سبق اتخاذه أى الكتابة .. ووفق أحدث الأدلة لم تستخدم الكتابة فى أتيكا إلا حوالى عام ٧٥٠ ق.م.

٧ — ولا تمدنا القرى النيوليثية — حيث لا يعرف عدد الموتى — بأى دليل عن شكل الوحدة العائلية . ففى العصر الهيلادى المبكر كان الدفن الجماعى فى مدافن عامة هو القاعدة . ولكن إذا وجد مدفن دائم به حوالى عشرون

---

(١) هافرفيلد « تخطيط المدينة القديمة » — دوبنسون « حفريات أولينثوس » .

(٢) يرفض هيكلهم اعطاء اسم مدينة لأى محلة (بوليس) يونانية قبل عام ٦٥٠ ق . م

قبراً ملحقاً بقرية متواضعة فمن المحتمل أنه كل حفرة تحتوى بقايا الأجيال المتتالية لعائلة طبيعية واحدة . ومن الواضح أنه كان هذا هو الحال فى العصر الهيلادى المتأخر عندما كانت المقابر المنحوتة فى الصخر هى ببساطة « قبور » عائلية » كالموجودة اليوم . إلا أنه غياب الأدلة الفيزيقية الكبيرة عن وحدة العشيرة لا يدحض حيوية النظام ، الذى ثبت وجوده فى الواقع حتى فى الأزمنة الكلاسيكية المبكرة ، وكذلك فى عصر البرونز البطولى الذى نسميه الميسينى أو الهيلادى المتأخر . وفى هذا العصر الأخير ، كما سبق أن لاحظنا ، كان تجمع المقابر العائلية فى عدة مدافن صغيرة حول القلاع الميسينية يشير إلى أن كل مجموعة من المقابر تنتمى إلى عشيرة لا إلى الجماعة المحلية كلها .

٨ — وكانت تماثيل النساء أكثر شيوعاً فى اليونان النيوليثية عنها فى المرحلة الدانوبية « ١ » ، إلا أن صناعة هذه التماثيل استمرت خلال عصر البرونز وعصر الحديد الإيجى . وكانت فى هذا العصر الأخير تمثل بوضوح الإلهات . كذلك ظهرت رموز لعضو التناسل الذكرى فى عصر البرونز الإيجى وجاء فى هومر والكتابات الأدبية الأخرى التالية أن الإلهات كانت تتعايش بل وكانت خاضعة للآلهة .

ووجدت قبور مزدوجة تحوى رجالا ونساءاً منذ العصر الهيلادى الأوسط ولم توجد قبل ذلك — كما وجدت كذلك فى القبور الملكية فى العصر الهيلادى المتأخر (ولا يمكن الاعتماد على القبور الخاصة فى تلك الفترة حيث أنها كانت قبوراً عائلية) .

٩ — وكانت الأختام تستخدم فى العصر الحجرى الحديث « أ » ، ولو أنها كانت نادرة . وذلك لتمييز السلع باعتبارها ممتلكات شخصية لمالكها . وكان هذا الاستخدام للأختام أكثر وضوحاً فى العصر الهيلادى المبكر وما بعده . وفى ذلك الوقت أيضاً كانت التجارة النشطة تتضمن مفهوماً عن السلع باعتبارها ملكية شخصية . فكانت تعتبر غير قادرة بل وبعيدة عن أن تنتج ربحاً . ولكن بالنسبة لوسائل الإنتاج — كالماشية والأرض والسفن — لا توجد أدلة

واضحة . فحالما أصبح الثور معياراً للقيمة بالنسبة للتبادل التجارى يمكن افتراض قيام الملكية الخاصة للماشية . وقد حدث هذا قرب نهاية العصر الهيلادى المتأخر ، ولا يحتمل أن تكون فكرة معادلة الثور بكميات من الذهب أو النحاس حينئذ فكرة جديدة . أما بالنسبة لملكية الأرض فليس لدى الأركيولوجيا ما تقوله .. ففى العصر الهومرى أو أواخر العصر الهيلادى ربما كانت ملكية الأرض من حق الملك أو الأمير ، ولكن باعتباره فقط ممثلا للجماعة . وفيما بعد عند اندثار الملكية فى عصر الحديد عادت الأرض لا إلى ملكية الجماعة بل إلى الأفراد . وحتى لدى هومر نجد أن الملك كان له ملكية بعض الأراضى المحيطة بقصره (الدومين) . وعلى مثل هذه الأراضى فقط كان يمكن للإنتاج من أجل السوق أن يبدأ .

ويحوط نفس الغموض مسألة استخدام السفن . إذ يبدو أن السفن الكبيرة التى كان يمكن استخدامها فى الحرب أو القرصنة أو التجارة كانت مملوكة للملوك فى أواخر العصر الهيلادى . ولكنه من الواضح من القصص الهومرية وما يعادلها من الدلائل الإثنوجرافية أن مكانة الملك على السفينة كانت حقاً وليست فرضاً على « زملائه » الذين يكونون « البحارة » . وفى الفترات الأولى من عصر الحديد كانت سفن القراصنة الذين كانوا تجاراً كذلك مملوكة لكبار ملاك الأراضى ، إلا أن صغار الملاك كان من الممكن أن يملكوا قوارب للصيد تستخدم فى نقل البضائع ، ولكن من كان يملك السفن الكبيرة ذات الثمانية أو الإثنى عشر مجدافاً فى بداية العصر الهيلادى المبكر ؟ ..

١٠ — تحتوى قريتان محصنتان من قرى العصر الحجرى الحديث قرب خليج فولو فى ثيسالى على ما يشبه قصراً الزعيم . ولكن لم يرد بعد هاتين الحالتين الشاذتين أية دلائل على تركز الثروة فى أيدى الأمراء أو الشخصيات المقدسة إلا فى العصر الهيلادى المتأخر ، فرأينا فى الفصل الرابع كيف أثبتت القبور الفخمة والقصور وجود حكم « الملوك المقدسين » فى عدد من البلدان

الصغيرة . وتلاشت هذه « الملكيات المقدسة » فى عصر الحديد . وحلت المعابد محل قصور عصر البرونز القديمة . ولكن لا توجد أية دلائل على أن سكانها المقدسين كانوا يزيدون من ثرواتهم بالاشتراك فى التجارة أو القرصنة كما كان يفعل أسلافهم ، أو حتى أنهم استبدلوا الضرائب على الأرض التى استمروا فى ملكيتها بمعنى « لاهوتى » بحت ، استبدلوها بالعشور التى تدفع للإنفاق على الكهنة والأماكن المقدسة . وكانت القبور الملكية القديمة تتحول أحياناً إلى هياكل تمارس فيها عبادة البطل ولكن لم يبن غيرها . وعلى العكس فقد وجدت فى المدافن « الهندسية » بعض القبور التى تختلف عن الباقى فى ثراء متاعها ولكنها تشبهها فى التكوين والطقوس . وهى قبور الطبقة الحاكمة الجديدة – أرستقراطية كبار ملاك الأراضى الذين فاق عددهم بكثير ملوك عصر البرونز – التى تركز فى يدها فائض الإنتاج الاجتماعى المتضخم الناتج عن استعمال أدوات عصر الحديد . وقد ظهرت لنا هذه الطبقة فى أشعار هسيود ومن تلاه من الأدباء . على أن تحول بربرية العصر الهندسى إلى مدنية اليونان الكلاسيكية لم يكن من صنع الثروة المتراكمة فى يد هذه الطبقة بقدر ما كان من صنع طبقة جديدة من التجار .

١١ – ولم توضح لنا أى وثيقة أركيولوجية وجود العبودية قبل العصور الكلاسيكية إلا أن الأشعار الهومرية تثبت لنا وجود العبيد فى العصر الهيلادى المتأخر ، مع أن التجديف فى السفن – مثلا – كان يقوم به رفاق أحرار لقائد السفينة . ونجد لدى هسيود أنه حتى المزارع الصغير كان يحتفظ بعبد .

ولنا أن نتساءل عمن بنى التحصينات حول مدن العصر الهيلادى المبكر والأسوار الضخمة للقلاع الميسينية . ويمكن اعتبار تحصينات القرية – كما رأينا عملا جماعياً يشارك فيه كافة أعضاء الجماعة كما يفعلون فى عمليات الدفاع الحربية . إلا أنه ليس من الواضح أن هذه هى الحال مع الأسوار السيكلوبية المحيطة بالقلاع التى لم تكن تحتوى إلا على قصر الأمير والقبور الملكية المحيطة به . فمن غير المحتمل أن تكون قوة العمل الضخمة اللازمة لهذه الأعمال الهائلة

مكونة من العبيد والأسرى فقط ، أو من « البروليتاريا » وهم الأجراء المتخصصون الذين كان الأمير يعولهم من فائض الإنتاج المتراكم لديه .. بل الاحتمال المساوى أنهم كانوا يجندون بطريق السخرة من بين صغار المزارعين الذين كان عليهم أن يؤدوا مثل هذه الخدمات إلى مالك الأرض . فإذا كان الأمر كذلك فهو يعنى شكلا من الاستغلال والانقسام الطبقى رغم أن الحاكم المستغل ما زال يعتبر ممثلا للجماعة ومن ثم لا يحس العمال بالاستغلال الواقع عليهم .

(ب) مقدونيا :

لا ريب أن السهل الساحلى وو ديان غرب مقدونيا(١) توفر مساحة أوسع من الأراضى الصالحة للزراعة . ولكنها أبرد مناخاً وأكثر قارية وأقل ملاءمة من ناحية الموقع للتجارة كسواحل وسهول شبه جزيرة اليونان . ولذلك فإن التتابع الحضارى فيها يتناقض مع ما سبق تلخيصه تناقضاً يفيدنا ولا يدهشنا ، ولكننا يجب أن نعترف مقدماً أن هذا التناقض قد يبدو مبالغاً فيه وذلك بسبب عدم دقة المعلومات .. إذ لم يتم الكشف عن أى قرية مقدونية بنفس الاتساع الذى تم به فى شبه جزيرة اليونان — فالتتابع السيراميكى (الخزفى) قد أقيم بناء على حفريات ضيقة وحفر فى التلال المختلفة عن القرى — ولم تظهر أى مدافن قبل عصر الحديد .

وتشبه مرحلة العصر الحجرى الحديث فى مقدونيا مثيلتها فى شبه الجزيرة ما عدا أن زراعة أشجار التين لم يثبت قيامها بوضوح إلا فى المرحلة الثانية ب وتظهر الفروق فى عصر البرونز الإيجى . فمع أن الاقتصاد الريفى واحد إلا أنه تنقصنا الأدلة على تخصص العمل وعلى التجارة . كذلك لم تخل الفئوس

---

(١) «مقدونيا ما قبل التاريخ » هيرتلى » .

المعدنية وغيرها من الأدوات محل الفئوس الحجرية وغيرها ، لذلك لا يمكننا افتراض وجود حدادين مقيمين ولا خزافين متفرغين حتى عصر الحديد. ولكن أسلحة الحرب تظهر فى المرحلة المقدونية المبكرة ، كما أن هرية مقدونية كانت محصنة فى العصور المقدونية الوسطى ، وفى نفس الوقت تظهر الرموز التناسلية الذكرية دون أن تلغى تماثيل الإناث . وخلال عصر البرونز ظلت القرى المقدونية ريفية الطابع مكتفية اكتفاءاً ذاتياً لا تزيد على قرى العصر الحجرى الحديث كما لا تتميز اقتصادياً عنها . ويتضح لنا عند ظهور الخزافين المحترفين لأول مرة فى عصر الحديد فى بعض المراكز مدى ازدياد عدد السكان الذى يرجع بلا شك إلى استخدام الأدوات المصنوعة من الحديد والتى كان يمكن الحصول عليها دون تضحية كبيرة بالاكتفاء الذاتى . وتظهر فى ذلك الوقت كذلك بعض الدلائل على انفصال الجماعات الرعوية عن الجماعات الزراعية .. كما فعلت بعض الجماعات التى لم تهجر الزراعة نهائياً وتخصصت فى تربية الماعز .

(ج) كريت :

تتمتع كريت (١) باعتبارها جزيرة تقع إلى الجنوب بمناخ أدفأ وألطف من أراضى اليونان ؛ ومع أنها أقل مساحة إلا أنها لا تقل خصوبة ، وكانت تنمو عليها غابات تكفى لمدها بالأخشاب اللازمة لبناء السفن . وهى أقرب من شبه الجزيرة إلى مراكز الحضارة القديمة وتساعدها الرياح والتيارات فى الفصول المعينة على إرسال الرحلات إلى مصر من ناحية وإلى الأناضول وقبرص والشرق من ناحية أخرى .

ولا تختلف حضارة العصر الحجرى الحديث فى كريت — على قدر ما نعرف — عن مثيلتها فى أراضى اليونان . ولكن حضارة عصر البرونز المسماة المينوية والمقسمة إلى مبكرة ووسطى ومتأخرة نمت بسرعة أكبر

---

(١) بندلبورى « أركيولوجية كريت » لندن ١٩٣٩ .

١ — لا يختلف الاقتصاد الريفي فى الأساس، ولكنه تخصص فى الزراعة وأنتج زيت الزيتون وربما النبيذ وغيره من المنتجات بقصد التصدير منذ العصر المينوى الأوسط.

٢ — كذلك انفصلت الحرف عن الزراعة بسرعة. ففى العصر المينوى المبكر ربما لم يكن المعدن أكثر شيوعاً مما كان عليه فى أرض اليونان. ولكنه فى العصر المينوى الأرسط أصبح يستخدم فى صناعة المطارق الثقيلة، وربما صناعة الأباريق وما شابهها، واستخدم فى العصر المينوى المتأخر فى صناعة المناجل على الأقل. كما ثبت وجود النجارين المحترفين والصياغ والجواهرجية وغيرهم من المتخصصين بالإضافة إلى الحدادين إما عن طريق منتجاتهم وإما عن طريق الأختام التى تحمل شعارات مهنهم. وخلال العصر المينوى الأوسط بدأ الخزافون المحترفون فى إنتاج الزهريات على نطاق كبير بمساعدة العجلة كما انضم إليهم غيرهم من المتخصصين المتفرغين بما فيهم الكتبة.

٣ — وكان النقل الذى يتم بواسطة سفن تستخدم المجاديف منذ العصر المينوى المبكر، وبلغ طول سفن العصر المينوى الأوسط ٧٠ قدماً، وكانت أحياناً تستخدم الشراع لتساعد المجدفين. وتظهر فى صور العصر المينوى المتأخر سفن ذات أسطح يبلغ طولها ١٠٠ قدم. واستخدمت العربات ذات العجلات منذ بداية العصر المينوى الأوسط، إلا أنه لم يمكننا العثور على أثر للخيل قبل العصر المينوى المتأخر، وقبل ذلك كانت الطرق والجسور تشيد وكذلك بعض أعمال الموانى.

٤ — وحملت « تجارة » ما وراء البحار الأوبسيديان إلى كريت منذ العصر الحجرى الحديث. كما جلبت فى العصر المينوى المبكر الذهب والفضة والليباريت والرخام وغيرها من المواد الخام والأشياء المصنوعة فى الجزر والأراضى اليونانية ومصر. وكانت التجارة البحرية من الأهمية بمكان حتى أن جزيرة قاحلة صغيرة مثل كريت أصبحت بفضل مينائها المريح ومياهها

المواتية مقراً لمجتمع نشط متحرك . ومن خلال تلك التجارة تمكنت كريت من امتصاص فائض الإنتاج المتراكم فى مصر وفى مدن ما بين النهرين . وفى العصر المينوى الأوسط كانت ترد إلى كريت الأختام البابلية الأسطوانية والمصنوعات المصرية . وكانت صادرات الجزيرة تشمل الخزف (الذى وجد فى مصر وقبرص وسوريا والأراضى والجزر اليونانية) والمنسوجات ، (وردت فى نصوص من « مارى » على نهر الفرات) والزيت بلا شك وكذلك الأصباغ والنبيذ . ووصلت التجارة المينوية إلى قمتها فى العصر المينوى المتأخر ما بين ١٥٠٠ ، ١٤٠٠ ق. م. عندما كان كهرمان البلطيق وذهب إيرلندا يصلان إلى الجزيرة . ثم عانت بعد ذلك من تأخر حاد منذ أن استطاع الميسينيون أن يشقوا طريقاً مباشراً إلى سوق مصر . ولكنه حتى فى عصر الحديد ظلت كريت متقدمة على بقية اليونان .

٥ — وكانت القرى المينوى عادة غير محصنة ، ولا تظهر الأسلحة بشكل بارز فى السجل الأركيولوجى ، كما تظهر فى أراضى اليونان فى العصر الهيلادى الأوسط والمتأخر . ومع ذلك فإن الحراب والخناجر توجد فى قبور العصر المينوى المبكر ، ومنذ بداية الفترة التالية تظهر « الأسلحة الملكية » (وهى سيوف رفيعة وطويلة من البرونز) . وتمثل إحدى الصور الفريسكو من العصر المينوى المتأخر جيشاً منظماً يحتوى على فرقة من المرتزقة السود .

٦ — وكان الناس فى العصر المينوى المبكر يعيشون فى قرى مبنية متلاصقة كالتى وجدت فى العصر الهيلادى المبكر . ولم يتم قط الكشف عن أى قرية بكاملها ، وحتى التى تم الكشف عنها فى المرحلة المينوية المتأخرة كانت تغطى ٦ أفدنة فقط . كما وجدت فى العصر المينوى المبكر والأوسط جماعات ريفية صغيرة ومزارع كبيرة معزولة . ووجدت كذلك فى الغالب تجمعات أكبر حول قصور العصر المينوى الأوسط والمتأخر ، ولكن تنقصنا الأدلة التى يمكن الاعتماد عليها بالنسبة لحجمها . وفى عصر الحديد كان توجد

قرية للاجئين على هضبة لاسيتى المنعزلة القاحلة من المحتمل أنها كانت تضم حوالى ٣٥٠٠ شخص .

٧ — ويجب اعتبار بعض القبور الجماعية فى العصر المينوى المبكر مقابر عائلية لنفس السبب الذى سبق ذكره فى حالة المقابر الميلادية المبكرة ، ولكن يبدو أن بعض القبور الأخرى المنعزلة أو الموجودة فى جماعات من اثنين أو ثلاثة وتحتوى على أعداد كبيرة من الجثث أميل إلى أن تكون مقابر عامة لأعضاء الجماعة الكبيرة ، وتفتقد مثل هذه الأدلة الملموسة على تضامن العشيرة فى الفترات التالية .

٨ — وتوجد تماثيل صغيرة لإلهة أنثى مقدسة كذلك توجد رسوم لها على الآثار فى العصر الحجرى الحديث وخلال العصور المينوية حتى عصر الحديد . ووجدت كذلك تماثيل لعضو التناسل الذكرى فى قبور العصر المينوى المبكر ، وتظهر « الإلهة الأم » فيما بعد أحياناً فى الرسوم وبصحبتها زوجها الشاب ، ومن المعروف أن كريت مشهورة بأنها موطن ولادة زيوس كبير الآلهة . وفى القصور المينوية تبدو الأجنحة المخصصة « للنساء » أليق بسكنى ملكة واحدة عن أن تكون مخصصة لحريم .

٩ — ويبدو أن استخدام الأختام التى تحمل رموز الحرف منذ العصر المينوى المبكر تحمل معنى حقوق الملكية للصناع فى منتجات أعمالهم وبالتالى فى أدواتهم ، وتسرى حقوق مشابهة على محتويات الجرار المختومة أو اللفائف أما من الذى كان يملك الماشية أو الأرض فلا يوجد دليل عليه ، كما يعتبر ملكية السفن مشكلة كما كان الحال على أرض اليونان . وكان ظهور رسم للسفينة على أحد الأختام يدل على أن صاحب الختم يملك السفينة كذلك . ويكون عندئذ تاجراً محترفاً أو قرصاناً ، ولكن كيف كان يتم اختيار البحارة ؟

١٠ — ولا توحى القبور ولا القصور بوجود زعماء فى العصر المينوى المبكر ، ولكن منذ أن بدأ تشييد القصور الفخمة فى وسط كريت فى العصر

المينوى الأوسط إتضح أن السلطة والثروة بدأت تتركز فى أيدى الأمراء أو الملوك ، وكانت أكبر خمسة قصور تقع فى وسط كريت حيث تستفيد من تجارة الترانسيت بين مصر فى الجنوب وإيجة فى الشمال ، وكانت كنوصوص تهيمن على الطريق الرئيسى عبر الجزيرة .

وتبين ألواح الحسابات فى أرشيفات القصور ، والمخازن الفسيحة الملحقة بها والتى كانت تحتوى ضمن ما تحتوى — جراراً ضخماً من الزيت أو النبيذ تبين أن الحكام كانوا يستخدمون فائض إنتاجهم فى التجارة الخارجية . وفى هذه البلاطات كان يعمل معظم الحرفيين الموهوبين فينتجون المصنوعات الفنية كالخزف اللطيف الذى كان يصدر بعضه إلى مصر وسوريا . وكانت الكتابة فيما يبدو قاصرة على البلاط وتستخدم أساساً — إذا حكمنا على أساس ما فى أيدينا من وثائق — فى تسجيل الحسابات .

ويبدو أن بعض الأبنية الملحقة بالقصور كانت أليق ما تكون بالمعابد ، ولا تعرف معابد سواها على أى حال . ومن هنا فقد كان الأمراء إما كهاناً كذلك ، وإما « ملوكاً مقدسين » — وهو الأكثر احتمالا — ممثلين دنيويين لزوج « الإلهة الأم » .

ومنذ البداية كان قصر كنوصوص أغنى وأكثر أبهة من الأربعة الباقية . إلا أن هذا لا يستتبع أن سادة هذه القصور الأخيرة كانوا دائماً سادة لكنوصوص كذلك . ويبدو أنه لمدة نصف قرن على الأقل — من ١٤٥٠ إلى ١٤٠٠ ق. م — أن « مينوس » ملك كنوصوص كان « ملك الملوك » وحاكماً مطلقاً للجزيرة كلها . إلا أن الملكية سقطت فى عام ١٤٠٠ ق. م . ونهب قصر كنوصوص وخرب ، ولم يقم بعد ذلك أبداً . ولم تقم الوحدة السياسية مرة أخرى ، ولا يختلف التاريخ الاجتماعى التالى بجزيرة كريت ، على قدر ما يمكننا استنتاجه ، عن تاريخ بقية اليونان .

١١ — ولا توجد دلائل عن وجود العبودية فى كريت أكثر مما توجد

على أراضى اليونان ، إلا أن مشكلة مصادر العمل على الجزيرة أكثر صعوبا . فبناء القصور يعنى استخدام كمية كبيرة من قوة العمل الإنسانى فى استخلاص الأحجار وقطع الأشجار وحمل المواد وإقامتها لمصلحة الأمير أو الملك . فإذا استثنينا عدداً محدوداً من البنائين والنجارين والرسامين المحترفين ، فلابد أن هذا العمل كان جزءاً من الخدمات المعتادة التى تقدمها عدة أسر تعيش أصلا بطريق الزراعة التى تكفى حاجتها . وإذا كان الملك يملك أراضى خاصة لزراعة بعض المحصولات المعينة فلابد أنها كانت تدار بنفس الطريقة .

١٢ . — وكانت الأختام ، ورسوم الحوائط ، والتماثيل ، والمصنوعات المعدنية ذات الأشكال المختلفة ، ورسوم الزهريات توضح قيام نوع من الفن الطبيعى ابتداءاً من العصر المينوى الأوسط ، إلى العصر المينوى المتأخر . وقد صور هذا الفن بنجاح ووعى النباتات والحيوانات البحرية وحتى الأشكال الإنسانية . وهذه الطبيعية تناقض بحكم تكويناتها المتعمدة ونجاحها فى تصوير الشكل الإنسانى ، تناقض الطبيعية الحية لفن العصر الحجرى القديم ، كما تناقض بوضوح أكبر الأسلوب الهندسى للبربرية . ولقد استخدم الفنانون المحليون فى ميسينا — والفنانون الكريتيون فى العصر المينوى المتأخر بعد سقوط كنوصوص — الوحدات النباتية والبحرية فى الزينة ، ولكنهم كانوا يعالجونها دائماً بطريقة تقليدية ، أما فن عصر الحديد الأول فهو يسمى دائماً وبحق فناً « هندسياً » .

الفصل العاشر

التتابع الحضارى فى المجتمعات البربرية

٣ ـ وادى النيل

لا تعتبر المنطقة تحت الاستوائية فى شرق البحر الأبيض أكثر حرارة من السواحل الشمالية فحسب ، وإنما أكثر جفافاً كذلك . فالشريط الضيق من الاستبس الذى يحظى بأمطار شتوية لا يعتمد عليها سرعان ما ينحصر أمام حزام من الصحراء عديمة الأمطار . ورغم أن نهر النيل ينشأ داخل حزام الأمطار الموسمية فى الجنوب إلا أن مجراه الأساسى يخترق تلك الصحراء لذلك وصف ويلسون(١) الجزء الأساسى من مصر بأنه « اندفاقة خضراء من الحياة الجياشة تخترق الصحراء القاحلة » . ومصر من الناحية العملية عديمة الأمطار ، ومياه النيل هى المصدر الوحيد لكل أنواع الحياة فلا تعيش عليها الأسماك والطيور المائية فحسب ، وإنما الحيوانات والنباتات المزروعة والمراعى (عند بداية السجل الأركيولوجى فى البربرية) ربما كان الحد الفاصل بين الحياة وانعدام الحياة أقل حدة مما هو عليه الآن(٢) ، فكانت مصر السفلى على الأقل محاطة بحزام من الاستبس ، وكانت الصحراء الممتدة جنوبأنها قاة نادرة من المراعى ترعاها قطعان الأغنام والغزلان والأبقار الوحشية ، ولم تنشأ الزراعة إلا فى الوادى .

وهناك نشأ تتابع من أربع فترات قبل تاريخية يطلق عليها على التوالى

---

(١) فرانكفورت ، ويلسون ، وغيرهما «المغامرات العقلية للإنسان القديم» شيكاغو ١٩٤٦ .

(٢) موند ومايرز « مدافن أرمنت » ١٩٣٧ . فى عصر حضارة البدارى كانت الوديان ـ الجافة الآن ـ التى تخترق حواف الصحراء بالسهل الفيضانى للنيل تمتلىء بالمياه كل عام .

البدارية(١) Badarian ، والعمرية(٢) Amratian والجرزية (٣)Gerzean والسماينة(٤) Semainian . وتصل بنا الفترة الجرزية إلى أول فترة من فترات معرفة القراءة والكتابة وهى المسماة بعصر الأسرات الأولى. بينما تسبق الفترة البدارية فترة سابقة عليها تسمى التاسية(٥) Tasian لم تحدد معالمها بعد فى وادى النيل(٦) ، ولكن يعتقد عموماً أنها تتمثل فى إحدى القرى المسماة « مرميدة » فى غرب الدلتا ، وعدة مواقع أخرى فى منخفض الفيوم(٧) . ولقد تعرض هذا الرأى لنقد معقول ، ولذلك رغم أننا سنعتبر هنا الفيوم ومرميدة دلائل على مرحلة الحضارة التاسية فيجب على القارىء أن يتذكر أن هذه الدلائل يحوطها الشك .

١ — كان الاقتصاد الريفى موسساً فى طول البلاد وعرضها على الزراعة المختلطة . ففى كل من الفيوم ومرميدة كان القمح والشعير يزرعان وتربى الماشية والأغنام والخنازير . أما كيف كانت تروى الحقول فأمر مازلنا غير متأكدين منه . ولكن الأغلب أنها كانت تروى رياً طبيعياً ، فتبذر الحبوب على الأرض الطينية المبتلة المتخلفة عن الفيضان السنوى ، أو بعد فيضان البحيرة أو العواصف الشتوية الممطرة فى الفيوم ، ويفترض نفس النظام بالنسبة للعصور البدارية والأمراشية ، ولم تتسع الأراضى المزروعة بواسطة

---

(١) البدارية : (حضارة البدارى) نسبة إلى البدارى قرب أسيوط . (المترجم)

(٢) العمرية : (حضارة العمرة) نسبة إلى العمرة فى محافظة جرجا قرب أبيدوس.(المترجم)

(٣) الجرزية : (حضارة جرزة) نسبة إلى جرزة فى محافظة بنى سويف . (المترجم)

(٤) السماينة : (نسبة إلى السماينة) فى محافظة جرجا . (المترجم)

(٥) التاسية : (حضارة تاسا) نسبه إلى دير تاسا قرب البدارى فى أسيوط . (المترجم)

(٦) تشايلد « أضواء جديدة على الشرق الموغل فى القدم » ١٩٣٥ — هذه التقسيمات وضعها بترى « مصر ما قبل التاريخ » ١٩٢٠ كيف صنعت مصر ١٩٣٩ —ولكنها تعرضت للنقد وخصوصاً أن السماينة لا تمثل حضارة متميزة تماماً إذ لا يفصل بينها وبين الجرزية أى فاصل يمكن مقارنته بما بين العمرية والجرزية (كانتور . المرحلة الأخيرة فى حضارة ما قبل الأسرات) .

(٧) ولكن بومجارتل فى كتابة « حضارات مصر ما قبل التاريخ » ١٩٤٦ يعتبر الفيوم تنتمى إلى العصر العمرى وأن مرمدة أقدم منها .

القنوات التى توزع مياه النهر إلا فى عصر الأسرات الأولى على الأقل ،.
ويحتمل أن يرجع هذا النظام إلى العصر الجرزى ، ويصدق نفس الشىء على الزراعة بالمحراث التى ثبت وجودها منذ عصر الأسرات الأولى ولكن يشك فى وجودها قبل ذلك .

وبعد عصر البدارى اختفت عظام الخنازير من فضلات الطعام إلا أن تشكيلة الحيوانات التى تربى والمحاصيل التى تزرع زادت بشكل كبير . وكان الأسلوب الوحشى فى صيد الحيوانات والأسماك والدجاج البرى . وجمع الغذاء يساوى الزراعة فى الأهمية بوصفه مصدراً للغذاء وذلك فى مرميدة والفيوم ، ولم تقل مكانته عن ذلك فى البدارية والأمراشية . وبعد ذلك أصبحت الزراعة هى الشاغل الرئيسى للمنتجين الأولين فى مصر . وما إن حل عصر الأسرات الأولى حتى أصبح صيد الحيوانات رياضة ملكية . أما صيد الأسماك فظل محتفظاً بأهميته فى كل العصور .

٢ — ومع أنه كانت تمارس أنواع مختلفة من الحرف حتى فى الفترات التاسية والبدارية إلا أن أياً منها لم يكن يحتاج لمتفرغين متخصصين . واستخرج الصوان لأول مرة فى المرحلة الأمراشية ، وهذا يفترض وجود التخصص بين الجماعات ، إلا أنه لم يكن من الضرورى أن يكون معدنو الصوان اختصاصيين متفرغين أكثر مما كان نظراؤهم فى انجلترا فى المرحلة « أ » . كذلك كان يتم أحياناً تصنيع النحاس بالطرق على البارد فى المرحلة البدارية وبشكل أكبر فى المرحلة الأمراشية . إلا أن ذلك لم يكن يتطلب متفرغين كذلك ولكن يجب افتراض وجود مثل هؤلاء المتفرغين فى حالة إنتاج الأسلحة المصنوعة من المعدن المصهور والأدوات غير الشائعة التى وجدت فى بعض قبور المرحلة الجرزية ، والتى زاد عددها بعد ذلك فى مرحلة الأسرات الأولى إلا أنه حتى ذلك الوقت كانت تلك الأدوات تشمل أساساً الأسلحة ، وأدوات الحرفيين ، وبعض الكماليات ، وكان على الفلاحين وجموع الناس التى تعمل فى الحقول واستخراج الأحجار والبناء أن تعمل بأدوات « ميوليثية » مصنوعة منزلياً من الحجر ، أو العظم أو الخشب ، وحتى المعادن لم تكن مغنما لجماعات متفرغة تماماً من المعدنين . إذ كانت كتل النحاس

المستخرجة من سيناء مثلا يتم استخراجها بواسطة بعثات دورية ترسل من وادى النيل وتجند من بين الفلاحين الذين يعيشون أساساً على الزراعة .

وتضاعفت أنواع الحرف خلال حضارات جرزية والسمانية حتى كانت قائمة المتخصصين فى مختلف الحرف فى عصر الأسرات الأولى تزيد على مثيلتها فى العصر الهيلادى المتأخر فى اليونان أو العصر المينوى الأوسط فى كريت . إلا أن معظم هؤلاء المتخصصين كانوا فى خدمة الملك (فرعون) ثم أمرائه من الإقطاعيين ..

٣ — والنيل طريق متحرك يمدنا بوسيلة اقتصادية نسبياً للنقل تصلح حتى للكتل الكبيرة . وتظهر القوارب الصالحة للملاحة النهرية منذ عصر البدارى وكانت تسير بالمجاديف المبططة المستديرة . وتظهر صور القوارب الشراعية لأول مرة فى مناظر حضارة السمانية وهى من نوع جديد(١) . ولا ريب أن السفن البحرية كانت معروفة فى عصر الأسرات الأولى .. أما على اليابسة فربما استخدم الحمار للنقل منذ حضارة العمرة ، وثبت ذلك قطعاً فى بداية عصر الأسرات الأولى . ولم تستخدم العربة ذات العجلات إلا بعد ذلك بألف وخمسمائة عام وظهرت أولا بوصفها عجلات حربية .

٤ — وتظهر الواردات الكمالية مبكرة فى قرى الفيوم وقبور البدارى فى شكل الأصداف البحرية والخرز الملون والبخور . وتزداد أشكال وأعداد هذه الواردات كما تزداد المسافات التى قطعتها بانتظام بتوالى العصور ؛ فبدأ اللازورد مثلا يصل إلى مصر من بادكشان — على ما يظن — فى شمال أفغانستان منذ العصر الجرزى . ولم تظهر واردات مصنوعة فى الخارج (زهريات خزفية من فلسطين أو سوريا ، وأخرى حجرية من إيجة) قبل عصر الأسرات الأولى . ولكن بعض المصنوعات الأولى التى تم صنعها فى مصر (كالأختام الجرزية الأسطوانية وبعض مناظر العصر السمانى)(٢)

(١) فينكلر « رسومات الصخور فى جنوب مصر العليا » .

(٢) ديسود « سوريا » ، فرنكفورت « الأختام الأسطوانية » .

فسرت على أنها تقليد لأصول موجودة فى بلاد الرافدين . ولابد أنه فى عصر الأسرات الأولى قام نوع من التجارة المنتظمة حمل إلى مصر مئونة دائمة من أخشاب البناء والتوابل والمعادن وغيرها من المواد الأجنبية التى أصبحت تعتبر عندئذ من الضروريات ، إلى جانب مختلف الكماليات الأخرى.

٥ — ولقد وجدت الأسلحة (السهام والبومرانج ورءوس الحراب) بانتظام فى قبور العصور التاسية ، والبدارية ، والعمرية ، إلا أنه يغلب على الظن أنها كانت لاستعمال الصيادين لا المحاربين ، ونستدل على ذلك من اختفائها فى عصر الجرزى ، ومن القبور الخاصة التالية له ، واحتوى عدد قليل من القبور الجرزية سكاكين ذات حد من النحاس يمكن استخدامها فى القتال . وظهرت صور معارك فعلية فى وثائق العصر الجرزى ، بينما كانت صور الانتصار فى الحرب شائعة فى عصر الأسرات الأولى . وظهرت كذلك صور القرى المحصنة ، وأثبتت الوثائق المكتوبة وجود نظام الجيش الدائم .

٦ — وكانت قرية « مرميدة » تشكل حوالى سنة أفدنة ، ينتشر عليها سبعة وعشرون كوخاً صغيراً — لم تكن كلها بالتأكيد آهلة بالسكان فى وقت واحد — ومائة وخمسة وعشرون قبراً . وأغلب الظن أن قرى العصر التاسى والبدارى فى مصر الوسطى كانت تجمعات متساوية الحجم تقع على حافة الصحراء فوق الوادى الفيضانى وعلى حواف وديان صغيرة كانت لا تزال تمتلىء بالمياه فى كل عام(١) . ولم يتم اكتشاف قرى بكاملها تالية على ذلك الوقت ، كما أن سرقة القبور الموجودة منذ ما قبل التاريخ تصاعداً قد أفسدت معظم المدافن بحيث أصبحت الإحصاءات المستخرجة منها غير ذات قيمة . إلا أنه من المعروف أن بقايا موقع نقادة(٢) وهو من مواقع ما قبل التاريخ كان يغطى ما يزيد على خمسة وعشرين فداناً ، وكانت المدافن

---

(١) برنتون « حضارة البدارى » ١٩٢٩ — « المستجدة » ١٩٣٧ .

(٢) بترى (النقاد والبلاس) : كانت بقايا « مدينة الصقور » فيما قبل التاريخ تغطى حوالى ١٣ فداناً — برنتون — « مدينة هيراكونوبوليس فيما قبل الأسرات » .

المحيطة به و معظمها ينتمى إلى حضارتى جرزة والعمرة ، تحوى ٢٢٠٠ قبر . ور بما كانت المواقع الأخرى لا تقل عنه كثيراً . ولكن لا بد أن القرى الصغيرة كانت كثيرة العدد . ففى الأزمان التاريخية كانت توجد عواصم للمقاطعات بجانب العاصمة الرئيسية ، ولا ريب أن تاريخ هذه القرى يرجع إلى ما قبل التاريخ ، ولا يمكننا تقدير عدد السكان فيها فى أى وقت .

٧ — وفى العصور التاريخية كانت المقاطعات التى ينقسم إليها أرض مصر تتخذ شعارات لها من الحيوانات ، أو النباتات ، أو المظاهر الطبيعية مما يشبه الطواطم لدى متوحشى وبرابرة اليوم . وتظهر كثير من هذه الشعارات قبل ذلك منذ العصر الجرزى إن لم يكن قبل ذلك . ور بما كانت هذه الشعارات تمثل طواطم — الأجداد أو الحماة المقدسين — جماعات القرابة التى كونت المجتمعات المحلية فى العصر السمانى أو قبله . وفى فجر التاريخ كان الملك أو الفرعون تجسيداً غامضاً لأحد هذه الطواطم وهو الصقر (حورس) . والمفروض أن غيره من الطواطم قد تجسد كذلك فى زعماء قبل أن يغزو ا زعيم حورس مصر كلها ويخضع الطواطم الأخرى وممثليها الدنيويين .

٨ — وظهرت تماثيل النساء فى قبور مرميدة والبدارى كما عادت إلى الظهور فى كافة الفترات التالية . كذلك ظهرت تماثيل للذكور فى حضارة العمرة وما تلاها . وكانت تماثيل بعض النساء فى تلك الفترة تحمل جراراً كما لو كن إماء ولسن أمهات آلهة ، وفى العصور التاريخية ظهرت صور الإلهات والآلهة فى البانثيون المصرى . ولكن إله الأسرات كان دائماً من الذكور .

ولم نعرف عن دفن رجل وامرأة فى قبر واحد إلا مرة واحدة خلال عصر البدارى ونادراً خلال الأمراشى (١) . ودفنت ملكتان زوجتا « زير »(٢)

---

(١) راندال ماكيفر وماس « العمرة » ١٩٠٢ (فى القبر هـ ٢٠ كان جسد الأنثى يحتل المركز الرئيسى) — ايرتون ولوث « المحسنة » ١٩١١ .

(٢) ويزنر « تطور القبر المصرى » ١٩٣٦ .

و« زيت » — وهما من أوائل الفراعنة — مع زوجيهما فى نفس الغرفة ، وفى نفس الوقت (سبقت إحداهما زوجها وهى مرنيت زوجة زير)(١) . أما من تلاهما من الملكات فكن يدفن فى مقابرهن الخاصة محاطات بكل الطقوس الملكية . وكان الفراعنة يمارسون تعدد الزوجات منذ البداية وحذا حذوهم النبلاء ، وكانت الملكة عادة أخت زوجها الملك ، وهو أمر كان قاصراً على الأسرة المالكة .

٩ — وكانت الأشكال المحفورة على أوانى حضارة العمرة تفسر عادة على أنها علامات ملكية تدل على الملكية الخاصة للأوانى وما تحويه بالتالى . ومنذ العصر الجرزى استخدمت الأختام لتحفظ الملكية وكانت كلاب الصيد أحياناً تدفن مع أصحابها فى العصر الأمراشى ، وهكذا نجد أنه حتى وسيلة الإنتاج هذه كانت ملكية شخصية . وتعد نماذج الماشية المستخرجة من قبور نفس العصر دليلا على الملكية الشخصية للماشية إذا اعتبرنا هذه النماذج بدائل سحرية للثيران الحقيقية . ويدل نموذج لمنزل مستخرج من قبر من العصر الجرزى — قياساً على ذلك — على وجود الملكية الخاصة للمساكن .

وكانت مخازن الغلال فى الفيوم توجد مجتمعة بجانب الحقول على مبعدة من المساكن . ولكن فى مرميدة كانت مخازن الغلال متجمعة فى أفنية الأكواخ كما لو كان إنتاج الحقول تمتلكه عدة عائلات ملكية فردية . ويبدو أن ذلك كان هو المتبع فيما بعد . ولكن لما كان الفيضان السنوى يمحو كافة العلامات بين الحقول ، كانت أراضى القرى يعاد توزيعها كل عام بين أسر المزارعين . ولكن فى العصور التاريخية كانت الأرض الصالحة للزراعة « مملوكة » لفرعون الذى كان يقطع الإقطاعيات بمن عليها من المزارعين ، للأفراد أحياء أو أمواتاً .

وكانت القوارب المرسومة على زهريات العصر الجرزى تحمل الشعارات الطوطمية للمقاطعات ، ولذلك فقد كانت وفق الافتراض الذى سبق ذكره

---

(١) وكان يصحبها صناع ومعهم أدواتهم .

فى « ٧ » ، إما مملوكة ملكية جماعية لعدة عشائر ، وإما مملوكة ملكية فردية لزعيم العشيرة بوصفه ممثلا لها . ويبدو أن أول سفن بحرية كانت مملوكة « الفرعون » .

١٠ - وكانت بعض القبور حتى فى عصر البدارى أفخم أثاثاً من غيرها وأصبحت الفروق فى فخامة متاع القبور أكثر وضوحاً فى العصور التالية . وارتبطت بدرجات التوسع فى القبر نفسه . ولكنه حتى فى حضارة السماينة تدرجت الفروق فى الأثاث والبناء ، حتى أن المرء ليتردد فى تقدير أى ذئة فى القبور تنتمى إلى الزعماء وأيها تنتمى إلى العامة . ولكن منذ بداية عصر الأسرات الأولى كانت قبور الفراعنة تبرز واضحة بوصفها قبوراً ملكية فى مقابل بقية القبور لا من حيث الحجم والبذخ فى تأثيث القبر فحسب ، بل ومن ناحية تقديم القرابين البشرية . ولقد لوحظت هذه الظاهرة فى ظل أول الفراعنة ووصلت إلى قمتها فى حكم « زير » و« زيت » اللذين دفن معهما حريم كامل وكافة الإداريين والموظفين بحيث بلغ العدد ٦٨ شخصاً فى قبر « زير » ، وحوالى ١٢٣ شخصاً فى قبر « زيت » . وفيما بعد استبدلت بالكائنات الإنسانية تماثيل أو رموز سحرية . ولقد منح الفراعنة نبلاءهم وكبار موظفيهم الحق فى بناء مقابر لهم على نفس النمط وكان بعضها مزوداً بأتباع من البشر . إلا أن هذه القبور من السهل تمييزها عن القبور الملكية وعن حفر العامة .

وهكذا نجد أنه منذ عصر الأسرات الأولى ينقسم المجتمع المصرى بوضوح إلى طبقات ، فمن ناحية الفرعون وحاشية ضيقة نسبياً من الموظفين ورجال الحاشية ، ومن ناحية أخرى جموع الفلاحين . ولقد وجدت أولى الوثائق المكتوبة فى قبور الملوك . وكما يقول « ريزنر » إن احتياجات أول إدارة تسيطر على البلاد كلها كانت ولابد أن تفضى إلى اختراع نظام للكتابة ، وهكذا التحمت المدنية فى مصر بتوحيدها فى ظل ملك واحد . ويتضمن عاينا

التواريخ المسجلة ، والتي تتفق الأدلة الأركيولوجية التي بأيدينا معها تماماً ، أن توحيد مصر جاء نتيجة لغزو الشمال بواسطة ملك من الجنوب هو زعيم عشيرة الصقر التي كانت عاصمتها أبيدوس . وقبل ذلك كانت البلاد منقسمة إلى مملكتين وعائلتين ملكيتين . إلا أن هؤلاء الملوك الأوائل السابقين على الفراعنة لا يمثلون شخصيات هامة سواء في السجل الأركيولوجي أو الأدبي . ولا يوجد سوى زوج من الآثار الموغلة في القدم والتي تحمل بعض النقوش وبعض المقابر في أبيدوس ينسبها « زيزنر » إلى الأسرة « صقر » مما يدل على وجود ممالك ما قبل التاريخ في مصر العليا . وهذا يجعل من الصعب بيان إلى أي حد كان المركز الفريد الذي ناله فرعون في — أو إذ شئت فرق — المجتمع المصري ثمرة للانتصار العسكري .

وكان الفرعون بالطبع إلهاً(١) ، إلا أن أسلافه فيما قبل التاريخ قد حصلوا على القداسة بوصفهم تجسيداً للطوطم . ولا توجد الآن — على أي حال — أية أدلة أركيولوجية على وجود مثل هذا التجسيد — أي احتكار السلطة الاقتصادية والروحية بواسطة أحد أفراد العشيرة — قبل الأسرة صقر . ولكن لابد أن هؤلاء الملوك الغامضين السابقين على الفراعنة كانوا « ملوكاً على مصر العليا » كما كانوا زعماء لعشيرة الصقر . فقد استطاعت تلك القبيلة فرض سيطرتها بالقوة العسكرية على ما يظن على مصر العليا قبل أن يصبح زعيمها ملكاً . ومن هنا فإنه حسب الأدلة الأركيولوجية — عندما استطاعت جماعة محلية أو جماعة قرابة أن تبسط سلطانها العسكري والسياسي على جيرانها حصل زعيمها مهما كانت مكانته السابقة على هذه السلطات — وهي روحية واقتصادية في نفس الوقت — التي جعلت منه ومن ورثته زعماء أو آلهة معترفاً بهم . وعندئذ فقط بدأ الملك المقدس في تركيز الثورة التي مكنت لقيام المدنية وجعلت الكتابة ضرورة .

١١ — ولم يثبت وجود العبودية في السجل الأركيولوجي لمصر في ما قبل

(١) موريت ، النيل والحضارة المصرية ١٩٢٧ .

التاريخ ، وحتى فى العصور التاريخية المبكرة ، رغم استخدام النوبيين والأسرى كعبيد ، فلم يكن لهؤلاء العبيد أهمية حقيقية فى الاقتصاد المصرى . إلا أنه فى المراحل المتأخرة كشفت لنا المصادر المكتوبة والمنتجات الواقعية للعمل الإنسانى فضلا عن التصوير الحية فى المقابر ، كشف لنا كل ذلك عن وجود قوة عمل هائلة تقودها أسواط المشرفين ، وتستخدم فى قطع الأحجار ونقلها وبناء المقابر والقصور ، وأعمال التعدين ، وصناعة الأدوات ، والزهريات ، والحلى ، والكماليات ، والزراعة المتخصصة ، والأعمال المنزلية عند الفرعون ونبلائه . ويكاد يكون من المؤكد أن هؤلاء العمال لم يكونوا اختصاصيين متفرغين يعملون بالأجر ، أى يتعيشون كلية من فائض الإنتاج الاجتماعى المتركز فى يد الفرعون . ورغم أنهم كانوا فى الأغلب يأكلون ويلبسون على نفقة المستخدم طيلة وجودهم لديه — وهذا ثابت من واقع المكتوب فى الألف الثانية — إلا أن معظمهم كانوا من الفلاحين ويعملون إما لفترة من كل عام وإما لعدة سنين ، ويتعيشون بقية حياتهم من زراعة الأرض . وكان عليهم أن يؤدوا عدة خدمات فى مقابل حق زراعة الأرض . ولم يوجد جهاز قانونى كما لم تنشأ حاجة لقيامه لمنع الفلاحين من الهرب إلى الصحراء حيث كانوا أحراراً فى الموت جوعاً .

ونستطيع أن نستنتج كيف نشأ هذا الجهاز رغم أننا لا نستطيع أن نسجل المراحل المفترضة لتطوره . فاستغلال وادى النيل يحتاج بشكل خاص إلى تعاون اجتماعى وثيق . ففى كل عام يمحو الفيضان حامل الخصب كل المزروعات وربما المنازل والماشية . وفى كل عام كان يجب استعادة الأرض من قبضة الصحراء والمستنقعات . وتبعاً لذلك كان على كل عضو قادر من كل جماعة أن يشارك فى حفر القنوات والمصارف الواقية للسيطرة على الفيضان ، وتجفيف المستنقعات ، وتوزيع الماء اللازم . وكان مثل هذا العمل إجبارياً واختيارياً فى نفس الوقت كالخدمة العسكرية . فكان العمل فى بناء المنازل للآلهة أو المعبودات بالنسبة للبرابرة ضرورياً وطبيعياً كتقديم « الثمار

الأولى » أو دفع العشور على المحصول الزراعى أو محصول الصيد . ولذلك فإنه إلى الحد الذى أصبح فيه القائد أو الزعيم الإنسانى تجسيداً للطوطم ، وتشخيصاً للمجتمع صار العمل من أجله لا يفترق عن العمل من أجل المجموعة ككل أو من أجل جدها المقدس أو الإله . ولذلك فأياً ماكانت العملية التى أدت بالفرعون إلى أن يكون إلهاً ، فقد أعطته الحق فى الحصول على خدمات شعبه وعلى فائض إنتاجهم ، ويستطيع هو بالتالى أوتوماتيكياً أن يسبغ نفس الحق على هؤلاء الذين يفوضهم فى تنفيذ وظائفه المقدسة ، وهى إدارة أملاكه الدنيوية .

وهكذا ففى ظل ظروف مصر تحول التعاون الاختيارى بين رجال العشيرة البربرية بواسطة مراحل غير محسوسة إلى السخرة — أى العمل الإجبارى من أجل الدولة المشخصة فى فرد من أجل كبار موظفيها .!!

الفصل الحادى عشر

التتابع الحضارى فى المجتمعات البربرية

٤ – ما بين النهرين

يجرى كل من دجلة الفرات على عكس نهر النيل ، خلال سهل واسع ينحدر انحداراً بسيطاً نحو الجنوب من سفوح الجبال الأرمينية والإيرانية . ويقطع الجزء الأخير فقط من هذين النهرين – حيث يقترب مجراهما كثيراً – صحراء عديمة الأمطار بالفعل . وتسقط على المنطقة الشمالية من بلاد ما بين النهرين – سوريا وأشور – وهى حزام عريض جنوبى سلسلة الجبال مباشرة – أمطار شتوية تكفى لإنبات المراعى فى الربيع ولرى محاصيل الحبوب .. وفضلا عن ذلك فإن هذا الحزام الذى يمتد من سلسلة جبال لبنان الشرقية (أنتى لبنان وأمانوس) إلى سفوح الهضبة الإيرانية لا يعبره فقط هذان النهران الكبيران الصالحان للملاحة بل تعبره كذلك روافد النهرين ، البالخ والخابور والجهجهة تغذى الفرات ، والزاب الأكبر ، والأصغر ، والديالى تغذى الدجلة من الشمال الشرقى . وكما هو الحال مع نهر النيل فإن الجزء الأدنى من النهرين التوأمين يفيض بالماء الآتى من الروافد ويمر بمنطقة – بابل – التى لولا فيضانهما السنوى لكانت صحراء جرداء ، ولكنها مع ذلك ما زالت سهلا فسيحاً وبه مستنقعات لا تتخلله كثيراً المرتفعات الصخرية الوعرة .

وشمال ما بين النهرين بالتالى منطقة استبس لم تكن جرداء كما هى اليوم(1) شتاؤها قصير وبارد يكثر فيه الثلج والصقيع ، وحتى فى شمال بابل – أكاد القديمة – يكون صقيع الشتاء قاسياً . ولا يكون المناخ استوائياً بالفعل إلا فى جنوب بابل المسماة قديماً سومر (وفى الكتاب المقدس شينار) .

---

(1) مالوان « العراق » ١٩٤٧ .

وهناك ينمو النخيل بكثرة وروعة معطياً محصولا ثابتاً من الثمار ذات القيمة الغذائية العالية . أما سوريا وأشور وسفوح الجبال المجاورة فكانت على العكس بيئة ملائمة للحبوب البرية وأشجار الفاكهة والكروم . ولا تزال أنواع الأغنام البرية التى انحدرت منها الأصناف المستأنسة ترتع فى هذه التلال بينما اعتادت الحمر الوحشية أن ترعى فى الاستبس .

وتبين لنا الطبقات المتتالية فى التلال العديدة بتفصيل مدهش مراحل التطور من البربرية إلى المدنية . ولكن الذين بنوا هذه المواقع كانوا مزارعين مستقرين تماماً وعلى دراية منذ البداية بالمعادن إن لم يكن بصبها وصهرها . أما المراحل المبكرة أو الفترات الحضارية التى يستطيع الأركيولوجى أن يطلق عليها ميزوليثيك أو نيوليثيك فلا تظهر إلا فى موقعين(١) . وحتى هذان لا يقدمان إلا نتفاً مبعثرة لا تفيد فى الدراسة الحالية . أما الجزء المتيسر من السجل الأركيولوجى(٢) فينقسم إلى أربع « حضارات » متتالية تمثل أيضاً فترات زمنية متتالية ، وسميت بأسماء مواقعها النموذجية حلف(٣) والعبيد(٤) ، وأوروك(٥) ، وجمدة نصر(٦) وتلتها مباشرة فى باب أول مرحلة من مراحل المدنية المتعلمة والمسماة عصر الأسرات الأولى . وكانت أول حضارة ، حضارة تل حلف ، تمتد من شواطىء البحر الأبيض فى سوريا حتى أشور . كما كشف حديثاً ما يشابهها فى سومر على الشواطىء السابقة للخليج العربى فى أريدو ، إلا أن خير مثال عليها هو التلال الموجودة على طول أنهار البالخ

---

(١) تل حسونة فى آشور (لويد وسافار ١٩٤٥) ومواقع أسبق اكتشفها بزيلووه ١٩٤٨ .

(٢) تشايلد « أضواء جديدة على الشرق الأقدم » ، بيركنز « الاركيولوجيا المقارنة للفترة المبكرة فى ما بين النهرين » .

(٣) تل حلف .

(٤) العبيد .

(٥) أوروك (الوركاء) .

(٦) جمدت نصر .

والخابور والدجلة فى أشور . وتتمثل حضارة العبيد فى سومر كما تتمثل فى الشمال . ولكن المراحل التالية أوروك وجمدة نصر لم تصل إلى شكلها الكلاسيكى - وهو الشكل الوحيد الذى يظهر فى التتابع — إلا فى الجزء الأسفل من ما بين النهرين « بابل » حيث كانت الزراعة وكافة أشكال الحياة الأخرى تعتمد على الأنهار .

١ — كان الاقتصاد الريفى للجماعة الحافية قائماً على زراعة الحبوب وتربية الماشية والأغنام والخنازير ، وذلك فى قرى مستقرة . ولما كانت القرى تقع على طول الأودية المليئة بالمستنقعات للروافد والأنهار فمن المحتمل أن الرى الطبيعى أو الصناعى كان يعتمد عليه لرى محاصيل الحبوب ، وربما الحدائق والكروم كذلك . وكان صيد الأسماك والحيوانات وجمع الغذاء مناشط هامة . وخلال التتابع لابد أن الزراعة — فى الجزء الأدنى من ما بين النهرين على الأقل — اعتمدت كلية على الرى . وما إن حل عصر الأسرات الأولى حتى كانت القنوات العديدة قد شقت لتوزيع المياه وتصريف المستنقعات وربما للملاحة كذلك ، إلا أن مراحل هذا التطور لا يمكن تحديدها بأدق من ذلك حتى الآن .. ومن المؤكد على أى حال أنه فى عصر حضارة أوروك كانت المحاريث تستخدم فى حرث الحقول(١) ، وتكشف السجلات الأدبية عن وجود مزيد من الجماعات الرعوية جنباً إلى جنب مع المزارعين فى القرى أو المدن . ولكن النصوص المهمة نادراً ما ترجع إلى أبعد من ٢٠٠٠ ق. م. وبالتالى فلا تمثل هذه المجتمعات فى السجل الأركيولوجى ، لذلك فنحن نعلم بالفعل كيف حدث الانفصال المبكر للقبائل الرعوية فى بلاد ما بين النهرين .

٢ — ولقد بدا من كمال صناعة الفخاريات وغيرها من حرف حضارة تل حلف أن صناع الفخار المتخصصين والصياغ وغيرهم استقروا فى كل قرية إلا أن هذا الأمر غير مؤكد . ويمكن على أية حال استنتاج وجود

---

(١) ظهرت فى الكتابات . فولكنشتين « نصوص قديمة فى الأوروك » .

التخصص فيما بين الجماعات وذلك لشيوع استخدام الأوبسيديان فى معظم قرى خضارة تل حلف ومن وجود قرية حلفية فى موقع هو أقرب المصادر الطبيعية لذلك المعدن قرب بحيرة فان ، ويحتمل أن الحلفيين قد عرفوا النحاس ولكن الأغلب أنهم عرفوه كمعدن محلى يستخدم فى صناعة الحلى ، لذلك ليس من الضرورى افتراض وجود النحاسين . ولكن مثل هؤلاء الصناع اشتغلوا فى عصر العبيد بصب الفئوس النافعة وغيرها من الأدوات . غير أن هؤلاء المعدنين كانوا فى الغالب متنقلين ، كما استنتجنا بالنسبة للمرحلة « ب » غرب أوربا البربرية ، ولا توجد أدلة على وجود حرفيين مستقرين فى مرحلة العبيد زيادة عما وجد فى حضارة تل حلف . وفى حضارة أوروك استخدمت العجلة بواسطة خزافين محترفين فى مختلف أنحاء بلاد ما بين النهرين بينما انفصل التعدين وغيره من الحرف — خصوصاً فى سومر — عن الزراعة . وفى الحقيقة فإنه قبل نهاية عصر حضارة أوروك كان الكتبة يسجلون الحسابات فى سومر . وجاء فى الوثائق المكتوبة لعصر الأسرات الأولى أن النحاسين والنجارين وصناع الفضة والنحاسين والصباغين والغزالين والحفارين وصانعى الجعة والخبازين وغيرهم كانوا يتقاضون أجوراً أو رواتب من المعابد .

٣ — وكما كان الحال فى مصر كانت أنهار بلاد ما بين النهرين طرقاً متحركة ، وفى العصور التاريخية كانت القنوات الكبيرة فى بابل لها نفس الأهمية بالنسبة للنقل والزراعة . وتظهر نماذج القوارب منذ فترة حضارة العبيد وكانت فى الأغلب تتحرك بالشراع أو بالمجاديف . ولكن النقل البرى على السهل الواسع كان بالطبع أكثر ضرورة منه فى وادى النيل ، وكان من السهل الاتصال بين مراعى الإستبس المكشوفة الواقعة بين الأنهار . وتظهر صور الحمير أو الخيل كثيراً على الزهريات الحلفية ، ولكننا لم نتأكد بأية حال من استئناسها واستخدامها فى النقل . كما لا يوجد ما يؤكد استخدام العربة ذات العجلات فى تلك المرحلة ، مع أن أحد الرسوم الموجودة على إحدى الزهريات المكسورة فسر على أنه يمثل نوعاً من العربة ذات العجلات ..

ولكن من الواضح أن مثل هذه العربات كانت تستخدم هى والزحافات منذ عصر الأوروك ويبدو أن العجلات الحربية ظهرت صورها كذلك منذ ذلك العصر . وكانت الثيران تستخدم فى جر الزحافات والعربات بينما كانت العجلات الحربية تجرها الحمر البرية وأحياناً الخيل ، وذلك ابتداء من مرحلة « جمدة نصر » ويفترض أن الحمير استخدمت فى النقل فى تلك المرحلة ، ويجىء ذكرها بعد ذلك فى كثير من الوثائق .

٤ — وقد بدأ وصول الأوبسيديان من أرمينيا إلى أشور من قبل العصر الحلفى ووصل إلى سومر بكميات كبيرة فى عصر حضارة العبيد . ومن الناحية الأخرى انتقلت الأصداف من الخليج العربى إلى وادى الخابور فى شمال سوريا فى العصر الحلفى . وفى ذلك الوقت كذلك كانت تستورد الحلى الصغيرة المصنوعة من النحاس . ووصل المعدن بكميات كافية إلى سومر فى عصر حضارة العبيد لاستخدامه فى صناعة الأدوات والأسلحة ، ولو أن ما بقى لنا فى الحقيقة هو نماذج خزفية للسكاكين والفئوس النحاسية . وما إن حل عصر حضارة أوروك حتى كانت شحنات النحاس وكذلك الرصاص والفضة والذهب تصل بانتظام . وفى مقابل ذلك وصلت الأختام المصنوعة بأسلوب جمدة نصر إلى تركيا ومصر وبحر إيجة حيث كانت تقلد(١) . ومن المعروف أنه فى بداية العصور التاريخية كانت سومر تستورد المعادن من عمان على الخليج العربى ومن الهضبة التركية (الأناضول) ويبدو أنه من المؤكد أن هذه التجارة البعيدة المدى كانت قد استقرت منذ عهد جمدة نصر إن لم يكن منذ الأوروك . كذلك وصل اللازورد المستخرج من شمال أفغانستان إلى سومر منذ عصر جمدة نصر ، وكان يستورد بكميات كبيرة فى بداية عصر الأسرات ولا ريب أن اللازورد الذى كان يصل إلى مصر أتى من نفس المصدر ، لذلك لابد أنه كان يمر فى بلاد ما بين النهرين . وهكذا أصبحت بابل مركزاً للتجارة العالمية بعيدة المدى منذ ما قبل التاريخ . وما إن هل عصر الأسرات

(١) فرنكفورت « الأختام الأسطوانية » .

حتى كانت المواد الخام كالمعادن والأخشاب من لبنان أو أمانوس والأحجار من عمان ترد إلى بابل . بل وكذلك الأختام وأدوات الزينة التى يصنعها الحرفيون الحضريون بعيداً فى وادى نهر الهندوس(١) . وتبين السجلات الأدبية فيما بعد أن منتجات صناعة النسيج فى بابل كانت تصدر إلى الهضبة التركية فى مقابل المعادن ، ويفترض تصدير المصنوعات المماثلة فى نهاية عصر ما قبل التاريخ وبداية عصر الأسرات .

وجاء ذكر التجار المحترفين(٢) فى بعض الوثائق الأولى التى أمكن حل رموزها ، ويفترض أنها تعود على أقل تقدير إلى حضارة أوروك . وكان هذا التبادل الواسع الذى ثبت وجوده يتطلب الاعتراف الاجتماعى بمعايير للأوزان ، ولقد تأكد وجود أوزان من الهيماتيت . وتبين لنا الوثائق المكتوبة فى نهاية تلك الفترة استخدام مقاييس مقننة لقياس حجم السوائل وربما لكيل الحبوب كذلك . ويبدو أن وحدات الوزن كانت مبنية فى البداية على معايير من الشعير ، وكانت الوزنة منه تعتبر كذلك مقياساً للقيمة . ولكن فى بداية عصر الأسرات استخدمت الوزنة من الفضة معياراً لكافة المعاملات المهمة . ولم تتقدم مجتمعات بلاد ما بين النهرين أبعد من ذلك فى ترجمة معايير القيمة من الحبوب إلى المعادن فلم تصل إلى إيجاد عملة مصكوكة خلال تلك الفترة .

٥ — ولا يبدو أن ترى حضارة تل حلف كانت محصنة ، وكان السلاح الوحيد الذى وجد فيها حجارة تستخدم فى المقلاع تلائم الصيد أكثر من الحرب . ولكن ظهرت فى مرحلة العبيد بعض الفئوس الحجرية أو النحاسية تبدو كأنها « باطل القتال » أكثر منها أدوات . وعلى أى حال ففى فترة الأوروك وجدت المدن المحصنة ، كما وجدت صور للمعارك على الأختام تظهر فيها العجلات الحربية والأسرى المقيدون . وكانت بابل فى فجر التاريخ مقسمة إلى عدد من « المدن — الدول » المستقلة التى كانت غالباً فى قتال مع بعضها

(١) معهد الدراسات الراقية . شيكاغو « مراسلات » .

(٢) شنيدر .

البعض . وكان المراطنون جنوداً مسلحين بالفئوس النحاسية والرماح والخناجر والخزذات ومنظمين للقتال فى تشكيلات حربية مرتبة . وكانت العربات التى تجرها الحمر البرية أو الخيل ، تستخدم كأدوات حربية ولو أنه ليس من المؤكد أنها كانت تلعب دوراً حربياً — وبالتالى اجتماعياً — حاسما ، كما كان الحال مثلا فى اليونان فى العصر الميلادى المتأخر .

وتشير بعض النصوص الحديثة إلى « حملات » ترسلها المدن — الدول — للحصول على المعدن أو الحجر أو غيرها من المواد الخام ، ولكن يوجد شك كبير حول مسألة ما إذا كانت المواد المطلوبة للصناعة الحضرية والأسلحة كان يتم الحصول عليها بطريق النهب أو بطريق الجزية .

٦ — ومواقع القرى النموذجية التى نراها اليوم فى شمال سوريا وأشور تتميز بتلال بيضاوية الشكل يتراوح حجمها من ٤٠٠ × ٣٠٠ متر إلى ٢٣٠ × ١٥٠ متراً . ولم يتم الكشف عن موقع كامل ولا نشر شىء كامل عنه بحيث يمكن تقدير مساحة ماكان مبنياً من الموقع بشكل دقيق خلال أى فترة من الفترات . وأكبر رقم معروف (ويساوى ٣٠ فداناً تقريباً) يرجع إلى موقع لم يسكنه أحد بعد حضارة تل حاف ، ولكن التلال المتبقية عن القرى العادية فى العصور التاريخية فى تلك المنطقة ليست أكبر من ذلك . أما فى جنوب ما بين النهرين فإن المساحات المحصنة فى بداية عصر الأسرات كانت أكبر بكثير ، فكانت خفاجة على نهر الديالى تغطى مساحة ١٠٠ فدان ، وأور ١٢٠ فداناً ، وبلغت مساحة أرش حوالى ميلين مربعين . وحتى فى عصور ما قبل التاريخ ، كانت وحدة السكن فى السهل أكبر من مثيلتها فى المراعى الشمالية . ولا توجد فى الحقيقة أرقام مضبوطة ، ولكن أحد المعابد فى حضارة العبيد فى أريدو فى سومر كان يغطى مساحة تبلغ ٣٣٧ ياردة مربعة (٧٧ × ٣٩ قدماً) وبلغت مساحة أحد المعابد من نفس الفترة فى جاورا فى أشور ٥٧ × ٤٢ قدماً ، وكان أحد ثلاثة مذابح تشغل مع فناء بينها مساحة ٧١٧ ياردة مربعة . وقرب نهاية حضارة أوروك بلغت مساحة معبد

واحد فى إرش ٢٤٥ × ١٠٠ قدم . وعلى وجه العموم لا توجد أدلة على أن القرى المبكرة فى سومر كانت أكبر جداً من تلك التى وجدت فى منطقة الاستبس فى الشمال ولكن التوسع الأساسى لابد أنه قد بدأ فى المرحلة التالية حضارة أوروك .

٧ — وحتى فى « تل حسونة » وهو موقع يرجع تاريخه إلى ما قبل حضارة تل حلف ، كانت المنازل تتكون من عدة غرف متجمعة حول فناء الوسط ، وظل هذا النموذج هو الشائع حتى يومنا هذا . ولا ضرورة لافتراض أنه كان يشغل هذه المساكن جماعات أكبر من « العائلة الطبيعية » . وهذا لا يعنى بالطبع أن القرية فى بلاد ما بين النهرين كانت مجرد تجميع من المنازل التى لا رابطة بينها . على العكس فإننا نجد فى بداية التاريخ أن معظم مواطنى لاجاش مقسمون إلى عشرين منزلا مقدساً ، وتسمى كل مجموعة منهم باسم الإله الذى تنتمى إليه .

٨ — وتوجد تماثيل للنساء من قبل حضارة تل حلف ويستمر صنعها فى كافة المراحل التالية . ولاشك أن بعض هذه التماثيل فى العصور التاريخية تمثل عشتروت أو غيرها من الإلهات . إلا أنه فى ذلك الوقت المبكر كانت الإلهة تعبد أيضاً كما كانت الأسرة عادة أبوية سواء بين الناس أو بين الآلهة . وحتى فى حضارة العبيد نادراً ما تظهر تماثيل الذكور .

ونادراً ما تحتوى قبور حضارة العبيد على رجل وامرأة مدفونين معاً . وفى أحد المقابر من هذا النوع فى أرپاشيا كان الجسدان متعانقان ، ولكن لوحظ فى المدافن الكبيرة فى أريدو أن نفس القبر كان يستخدم عدة مرات .

٩ — وكان القمح فى تل حسونة يختزن فى المنازل ، كما لو كان إنتاج الحقول ملكاً خاصاً للأسرة التى تزرعها . وفى حضارة تل حلف كانت الأختام تطبع بالضغط على السدادات الطينية للجرار ، كما لو كانت تشير إلى حق الملكية لمحتوياتها . وحلت الأختام الأسطوانية محل الدمغ فى حضارة

أوروك. ولكن فى بداية العصور التاريخية كانت معظم الأراضى حول مدينة مثل لاجاش مملوكة للإلهة ، رغم أنها كانت تستغل بواسطة أفراد من « شعب الله » وكان الإله يملك أيضاً أدوات معدنية ومحاريث وحيوانات لجر المحاريث وزراعة الأرض ، رغم أنه ليس من المؤكد أن الأفراد الذين كانوا يملكون الأرض كانوا يملكون كذلك أدوات الإنتاج هذه . ومن المحتمل أن بعض الحرفيين فى ذلك الوقت كانوا يملكون أدواتهم . ولكنهم لم يكونوا يملكون مخزوناً من المواد الخام أو ينتجون من أجل السوق ، بل كانوا يعملون بالطلب وبالمادة الخام التى يقدمها العميل . وكان « العميل » الوحيد للمصنوعات المعدنية فى ذلك الوقت هو « الرب » أو « الدولة » وحتى التجار كانوا يعملون كوسطاء « للرب » ولهم حصة فى أراضيه ولكن يبدو أنهم استطاعوا أن يجنوا لأنفسهم ربحاً . ومن الناحية الأخرى فمن المحتمل أن أراضى المدن ومبانيها كانت مملوكة ملكية فردية ، ويمكن التخلى عنها بالبيع أو التوريث .

١٠ — ويبرز فى قرى حضارة تل حلف فى شمال الاستبس بناء يختلف عن بقية المبانى من حيث حجمه ومظهره بوصفه مذبحاً أو معبداً . وفى حضارة العبيد فى سومر كان المبنى الرئيسى فى أريدو معبداً يتكرر بناؤه على مستويات متزايدة الفخامة ، حتى وصل من حيث الشكل والحجم إلى الشكل العام المألوف للمعبد السومرى التاريخى . وقبل نهاية عصر حضارة الأوروك وصلت مثل تلك المعابد فى سومر — وليس فى سوريا أو أشور — إلى الأحجام الهائلة التى سبق ذكرها فى « ٦ » . ومن الواضح أن إقامة وتأثيث مثل هذه المعابد يفترض وجود فائض إنتاج اجتماعى ضخم وتركزه فى يد الرب . وعند بداية التاريخ المكتوب نجد المعبد يدار بواسطة هيئة من الكهنة وتمتلىء خزائنه لا من القرابين المعطاة عن طيب خاطر فحسب ، ولكن من العشور والخدمات التى يؤديها أفراد شعب الرب الذين يمتلكون حصصاً فى أراضيه أو يعملون فيها كمؤاجرين أو حصادين .

وهكذا أصبح من الواضح أن المعبد فى مرحلة الأوروك ، وربما قبل ذلك ، كان مركزاً لتجمع فائض الإنتاج الاجتماعى . ولكى يسجل الكهنة الذين يديرون المزارع دخل الرب ومصروفاته اخترعوا وباركوا نظاماً من العلامات المتفق عليها أى من الكتابة . والوثائق المكتوبة الوحيدة من حضارتى الأوروك وجمدة نصر هى فى الحقائق أقراص للحسابات أو قوائم من العلامات . وهكذا كان تراكم فائض إنتاج اجتماعى ضخم فى خزائن المعابد — أو مخازن غلالها على الأصح — هو الظرف الذى أدى إلى التقدم الحضارى الذى اعتبرناه محكاً للمدنية . وأدى فى نفس الوقت إلى أنواع أخرى من التقدم ، فلم يستخدم فائض الإنتاج فى الإنفاق على الكهنة فقط ، الذين كان لديهم من الفراغ ما مكنهم من اختراع الكتابة وإتقان علوم الحساب والفلك ، ولكنه استخدم كذلك فى الإنفاق على مختلف الصناع والحرفيين المهرة كالغزالين والنساجين الذين كانت تصدر بعض مصنوعاتهم للحصول على المعادن والمواد الخام فى مقابلها .

ويمكن اعتبار الإله ممثلا أو امتداداً للمجتمع ، ويكون الكهنة الذين يقومون بخدمته خداماً للمجتمع كذلك ، رغم أنهم كانوا ولا شك أفضل دخلا من بقية شعوب الرب . ولا توجد لدينا أدلة إيجابية حتى مرحلة جمدة نصر عن وجود أى سلطة دنوية تتركز فى يدها السلطة الاقتصادية والسياسية . وبعد ذلك نصادف أبنية أقرب إلى القصور منها إلى المعابد ، وابتداء من فجر عصر الأسرات الأولى تكشف لنا الأدلة الأركيولوجية والأدبية عن وجود حاكم مدنى وقائد عسكرى لكل مدينة .

وكان لهذا الحاكم ألقاب مختلفة فى كل مدينة — لوجال « أمير الحرب » سانجو « مدير المعبد » ، أن « زوج إلهة المدينة » ، وغالباً ما كان يدعى « إيشاكو » أو « انسى » . ولقد أورد جاكوبسون أدلة أدبية ليثبت أن مركز القائد الحربى كان فى الأصل بالانتخاب ، ولكن يبدو أنه فى فجر التاريخ المكتوب كانت وظيفة محافظ المدينة تمارس بالوراثة . ومع ذلك

فقد كان المحافظ يبدو وثيق الصلة بالمعبد ، وفى المخطوطات التى ما زالت باقية يعترف بأنه ليس إلا خادماً أو وكيلا لرب المدينة ، إلا أنه فى لاجاش كان « الإبشاكو » كبير كهنة الرب نينجرسو فى الوقت نفسه ، يسيطر على مخازن الغلال الوحيدة فى المدينة ، وبالتالى على غذاء السكان . ولم يكن للآلهة الأخرى مخازن للغلال ملحقة بمعابدها رغم أنها كانت تملك ضياعاً ومنازل كالتى يملكها كبير الآلهة نينجرسو . ومن الناحية النظرية البحتة ، كان محافظ المدينة خادماً للآلهة وللمواطنين . وعندما بدأت مدينة معينة فى فرض سيطرتها على المدن الأخرى بالقوة العسكرية أصبح لحاكم المدينة المنتصرة سلطان على الرعايا — سكان المدينة المهزومة أولا — يمكن مقارنته بما كان يتمتع به الفراعنة الأول .

١١ — وتتحدث الوثائق الأولى لعصر الأسرات عن مزارعين يملكون حصصاً متفاوتة المساحة من أرض الرب ومستأجرين يعملون فيها مقابل حصة من الإنتاج ، وعمال أحرار يعملون كمزارعين بالأجر ، وعبيد . ومن المحتمل أنه كان على الفئات الأولى كذلك أن تقدم خدمات عملية للحفاظ على القنوات وبناء المعابد ، كما كان الحال بالنسبة للخدمة العسكرية . ويمكن أن نفترض أن مثل هذه الخدمات هى التى وفرت الأيدى العاملة اللازمة لبناء المعابد التى تم اكتشافها والقنوات التى كان من المحتم وجودها فى عصور ما قبل التاريخ ومنذ عصر الأوروك على الأقل وجدت رسوم لأسرى يفترض أنهم كانوا عبيداً . ولكنه من غير المحتمل أن العبيد والأسرى كانوا عنصراً أساسياً فى قوة العمل التى كانت تقوم بالأشغال العامة .

الفصل الثانى عشر

نتائج

لخصت لنا الفصول الخمسة السابقة بطريقة موجزة جداً الخطوات المتتالية التى مرت بها الحضارات البربرية فى طريقها إلى المدنية ، وذلك فى بيئات طبيعية متناقضة . فلنقارن بينها إذن لنرى ما إذا كانت تظهر وحدة أم تواريا فيما بينها ، وما إذا كانت تمثل مراحل عامة فى طريق التطور .

ولقد كانت النتيجة النهائية : أى المدنية — مختلفة بالطبع فى كل حالة إلا أنها كانت تعنى فى كل مكان . تجمع عدد كبير من السكان فى المدن ، وتمايز هؤلاء فيما بينهم إلى منتجين أوليين (صيادين ، ومزارعين) ، وحرفيين متخصصين متفرغين كل الوقت ، وتجار ، وموظفين ، وكهنة ، وحكام ، تركز فعال للسلطة الاقتصادية والسياسية ، واستخدام رموز مصطلح عليها لتسجيل ونقل المعلومات (الكتابة) ، ومعايير للأوزان ولمقاييس الزمان والمكان ، مما أدى إلى نوع من العلم الرياضى والعلم بالتقويم . كما تشابهت نقاط البدء فى كل سلسلة — على الأقل فى المجال الاقتصادى — نظراً لأن كافة الحضارات البربرية الأولى التى درسناها كانت قائمة على زراعة نفس الحبوب وتربية نفس أنواع الحيوانات .

ولكن خطوات التطور لا تظهر حتى توازيا مجرداً . ولنستعرض الاقتصاد الزراعى .. ففى حضارتى البدارى وتاسا فى مصر كانت الزراعة على أحسن الفروض على قدم المساواة — إن لم تكن أقل — مع نشاطات جمع الغذاء كصيد الأسماك والحيوانات وجمع الثمار ، وفيما بعد قلت الأهمية النسبية للصيد بسرعة . أما فى أوربا المعتدلة فقد رأينا العكس ، ففى وسط وغرب أوربا كان الصيد أقل أهمية نسبياً فى العصر الحجرى الحديث المرحلة « ١ » ،

عما كان عليه فى المرحلة التالية « ٢ » . وفى اليونان كما فى آسيا العليا ومصر كان أول اقتصاد زراعى محدد منظماً بحيث يسمح بزراعة مستقرة حقيقية ، أى بالاستغلال المستمر لقطعة من الأرض بواسطة سكان قرية ثابتة .. وفى أوربا المعتدلة كانت الزراعة المتنقلة هى القاعدة خلال العصر الحجرى الحديث ومعظم عصر البرونز . (ومن الواضح أن هذا التناقض يتضمن اختلافات جذرية فى البناء الكلى لهذه المجتمعات) وقد لاحظنا فى أوربا المعتدلة انفصالا بين الجماعات الأكثر رعوية والجماعات الأكثر زراعية . ولم تكشف لنا الأركيولوجيا عن أى توازن فى مصر أو فيما بين النهرين ، (ثبت وجود هذا الانفصال من الوثائق المكتوبة فيما بين النهرين ولكن بعد ظهور المدنية بفترة) .

وهكذا نرى أن التطورات الملاحظة فى الاقتصاد الزراعى لا تتوازى ، لذلك فلا يمكن استخدامها لتعريف مراحل مشتركة بين كافة التتابعات التى درسناها . ولا شك أنه فى العالم القديم ، حلت الزراعة بالمحراث فى كل مكان محل الزراعة بالفأس قبل ظهور المدنية ، إلا أنه من العدل أن نذكر أن المحراث لم يكن معروفاً لدى المايا المتمدينين الذين لم يكن لديهم فى الحقيقة أى حيوانات مستأنسة . ومن هنا لم يمكن استخدام المحراث لتعريف مرحلة ضرورية فى الطريق إلى المدنية حتى ولو أمكن معرفة عمره بدقة فى مختلف مناطق العالم القديم . وفى النهاية فإن تطور الاقتصاديات الريفية فى البربرية فى مختلف المناطق التى فحصناها ، لا يبين لنا توازياً بل اختلافاً من ناحية ، والتماء من ناحية أخرى . فأما الخلافات فيمكن تفسيرها بدقة بأن نقول إن ما تكشف لنا الأركيولوجيا عنه هو أوجه التكيف المختلفة التى يتخذها الاقتصاد الزراعى فى مختلف البيئات الطبيعية . أما ظاهرة الالتقاء فسنعود إليها فيما بعد .

ولقد بين لنا الفصل الثانى لماذا لا يمكن لمختلف المحكات التكنولوجية التى يستخدمها الأركيولوجيون عادة — المواد المستخدمة فى صناعة الأدوات

القاطعة والأسلحة — أن تمدنا بأساس صالح لتعريف مراحل عامة فى التطور الحضارى . كما أن التمعن فى الفصول السابقة سيبين لنا مدى اختلاف أساليب استخدام المعادن خلال عصر البرونز المبكر مثلا . ويظهر لنا الآن كذلك أن وسائل النقل لا تصلح هى الأخرى ، ففى كريت وأوربا المعتدلة كما فى آسيا العليا كانت العربات ذات العجلات تستخدم قبل الوصول إلى المدنية ، ولكن على ضفاف النيل لم تعرف تلك العربات قبل مرور ١٥٠٠ عام على قيام المدنية ، وهنا أيضاً نجد اختلافاً لا توازياً ، ولكن تعدل هذا الاختلاف إلى التمام فيما بعد فى العالم القديم ، واستعملت مصر فى النهاية العربة ذات العجلات .

وتقدم لنا التجارة الخارجية بالفعل نوع التوازى الذى نبحث عنه ، إذ يزداد حجمها ومداها باضطراد فى كافة المناطق التى درست . إلا أن هذا التوازى لا يساعدنا كثيراً . فمن ناحية يستحيل علينا تقدير التجارة الخارجية بدقة فى حدود المعلومات التى لدينا ، ومن ناحية أخرى ، فحتى فى حدود ما يمكن تقديره ، نجد أن أول ازدياد ملحوظ فى التجارة الخارجية لأوربا المعتدلة وحتى فى بحر إيجه كانت مع المدنيات أى مع المناطق التى تراكم فيها فائض إنتاج اجتماعى كبير . وعلى هذا الأساس لا يكون نمو التجارة نتيجة للتطور الداخلى للمجتمعات البربرية وإنما نتيجة لتطور المحيط الاجتماعى أى علاقاتها بالمجتمعات الأخرى .

أما السجل الملىء بالفجوات لتطـور المؤسسات الاجتماعية فى مختلف التتابعات — وفى حدود ما يمكننا فهمه منه — فلا يكشف لنا عن تواز أكبر مما سبق . ففى مصر وكريت ولدى قبائل الكلت فى أوربا المعتدلة كانت المدنية تالية على ارتقاء الزعماء إلى مرتبة الملوك المقدسين الذين يتركز فى أيديهم الفائض . وكان الأمر فيما بين النهرين على العكس فقد قام بتلك الوظيفة — تجميع الفائض — معبد الكائن فوق الإنسانى المقدس ، ولقد قام بها

على خير وجه حتى إنه كان لابد من اختراع الكتابة ، وهكذا دشنت المدنية فى مرحلة أوروك ، ولم تظهر أية دلائل على وجود أمير دنيوى إلا فى المرحلة التالية ، مرحلة جمدة نصر حيث تشير بقايا قصر مفترض إلى احتمال وجوده ، بينما لم تظهر « القبور الملكية » وهى الأدلة الأركيولوجية المعتادة على وجود هذه الشخصيات ، إلا فى مرحلة تالية أيضاً قرب نهاية عصر الأسرات الأولى والواقع أنه لم يظهر فى السجل الأدبى لبلاد ما بين النهرين ملك له من القداسة والسلطة ما كان لفرعون منذ تأسيس المدنية المصرية إلا فى « العصر الإمبراطورى » بعد عام ٢٣٥٠ ق. م.

وفى بحر إيجه بينما كان هناك عصر البرونز البربرى « ملوك » لهم فى حدودهم الضيقة نفس جلال ووظيفة الملك الشرقى ، نجد أنه حل محلهم فى معظم المدن « الدول اليونانية » جمهوريات أوليجاركية من ملاك الأراضى أو التجار ، وذلك قبل قيام المدنية . (ولقد تم تعويض هذا الانحراف على المدى الطويل بقيام المملكيات الهيلينية ثم الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك) . وحتى بين قبائل الكلت فى أوربا المعتدلة نجد أن نوع الملكية الذى تمثل فى المرحلة الأخيرة من الهالشتات ، وفى قباب مرحلة « لاتين » المبكرة قد ذبل قبل الغزو الرومانى . وكان على الغزاة أن يتعاملوا عموماً مع شكل أو آخر من الدول « الجمهورية » .

وعلى أى حال فإن السجل الأركيولوجى يتركنا فى حيرة حول ما إذا كانت كافة المجتمعات البربرية التى تناولناها هنا قد بدأت طريقها إلى المدنية فى ظل حكم زعماء أو بوصفها « ديموقراطيات بدائية » ويبدو لنا أنه على الأقل فى وسط أوربا تستبعد الزعامة فى حالة المجتمع النيوليثى المبكر — وهو المجتمع الدانوبى فى كولن — ليندنتال . ومن ناحية أخرى فإن القبور الميجاليثية والقباب المستطيلة فى غرب أوربا قد تمثل قبوراً لعائلات الرؤساء . كما أوردنا فى الفصل الرابع أدلة إيجابية على قيام هذا النظام فى المجتمعات

التى لم تصل إلى مرتبة البربرية على الإطلاق ، إلا أن الحالات التى يمكن الاعتماد عليها أكثر من غيرها وردت من المجتمعات التى لم تكن موغلة فى القدم بحيث يمكن استبعاد أى تأثير من المجتمعات البربرية المجاورة .

ويحيط غموض مشابه مسألة الحرب ، فكافة المجتمعات المتمدينة المعروفة مارست هذه اللعبة المدمرة . بينما على العكس من ذلك تركت لنا بعض المجتمعات البربرية النيوليثية المبكرة — كالدانوبيون — انطباعاً سلمياً واضحاً. ومع ذلك فإن المزارعين الأوائل فى شمال أوربا كانوا يحملون أسلحة حربية كما كان مزارعو أوربا الغربية يحصنون قراهم فى انجلترا ، وفضلا عن ذلك فقد ثبت وجود قتل الإنسان وأكل لحوم البشر بين المتوحشين فى العصر الحجرى القديم .

وبالنسبة لمركز المرأة ، فإن نفس الأدلة التى يعتمد عليها الإثبات وجود الزواج الوحدانى والساقى (بما فى ذلك خضوع المرأة للرجل) فى مجتمعات عصر البرونز فى اليونان وأوربا المعتدلة يمكن الحصول عليها أيضاً فى الحضارات الوحشية فى القرم فى أثناء العصر الحجرى الوسيط حتى المرحلة المتأخرة من العصر الحجرى فى سيبريا ، وهكذا فإنه على العموم لا تحمل لنا الأركيولوجيا أملا كبيراً فى ربط المؤسسات الاجتماعية بمراحل التطور الحضارى ، كما يعبر عنها اقتصادياً .. وعلى أى حال فقد رأينا أن تلك المراحل ، فيما عدا الحالات الرئيسية الثلاث ، هى نفسها صعبة إن لم تكن مستحيلة التعريف . إذ أنه داخل مرحلة البربرية على الأقل لا يسير التتابع الحضارى الملاحظ فى خطوط متوازية .

والآن فإنه لا يدهشنا فى قليل أو كثير أن نلاحظ أن نمو المجتمعات فى مختلف أجزاء العالم القديم — إذا لم نذكر الجديد — أميل إلى إظهار الاختلاف عن التوازى . وهذه النتيجة لا تعنى عدم صحة استخدام تعبير « التطور » لوصف النمو الاجتماعى ولا المشابهة المتضمنة فى المقارنة بين التطور الاجتماعى والعضوى . فعند « لامارك » و « داروين » تعنى كلمة (تطور) العملية التى

تبزغ بواسطتها أنواع جديدة ، أى عملية اختلاف وتمايز . كما نجد أن التطور العضوى لا يمثل أبداً (فى الصور) بحزمة من الخطوط المتوازية بل بشجرة ذات فروع تنبثق من الجذع بينما يموج كل فرع بالغصون . ولا تكشف لنا الصورة الأركيولوجية عن عملية مشابهة للتطور العضوى إلا بالقدر الذى يمكن تمثيلها فيه بهذه الشجرة . وفى الحقيقة فإن التمايز — أى انقسام الحضارات الكبيرة المتجانسة إلى كثرة من الحضارات المحلية المتميزة — سمة واضحة فى السجل الأركيولوجى .

إلا أن مقارنة التتابعات التى سبقت لا يكشف لنا فقط عن اختلاف وتمايز ، وإنما كذلك عن التقاء وتجميع . ومن الصعب أن نجد شبيهاً لهذه العملية فى التطور العضوى . ولا شك أن الانتخاب الطبيعى يحدث نوعاً من التجميع فى منطقة ما عن طريق استبعاد عدد كبير من الأصناف داخل النوع أو الجنس الواحد . فعندما تتنافس عدة جماعات مختلفة الجنس داخل النوع الواحد على مصادر الغذاء الطبيعية المحدودة فى منطقة ما ، فإن أحسنها توافقاً هو الذى سيستطيع بمضى الزمن أن يستبعد بقية منافسيه ، وهذا النوع من العمليات له ما يشبهه بالطبع فيما قبل التاريخ وما بعده بين المجتمعات أو الحضارات الإنسانية . ففى أوربا ما قبل التاريخ مثلا رأينا أن حضارة البيكر حلت محل حضارة العصر الحجرى الحديث الغربية فى بريطانيا ، فاختفت من الجزيرة تماماً طقوس الدفن ، والاقتصاد الزراعى القديمة لتخلى الطريق أمام مظاهر حضارة البيكر . ومن الواضح أن هذا هو شبيه ما يحدث فى الحالات المسجلة لدينا عندما يبيد شعب أو قبيلة شعباً أو قبيلة أخرى أو يستعبدها أو يحتل أراضيها . كما احتل الأوربيون استراليا وشمال أمريكا .

إلا أن مثل هذا الاستبدال الكامل لقبيلة أو لحضارة ليس الشكل النموذجى للالتقاء ، كما أنه ليس الطريق المؤدى إلى المدنية . كما نلاحظ عامة .. فقد تتشابه حضارتان دون أن تفقد أى منهما فرديتها المميزة ، وقد يظهر نفس الاختراع فى وقت واحد فى حضارتين متميزتين ، أو يظهر أولا

فى واحدة ثم فى الأخرى بعد ذلك ، و بالتالى يزداد تشابه الحضارتين ، وهكذا أصبحت حضارات مصر واليونان أكثر شبهاً بحضارات آسيا العليا عندما ازداد ثراء أسلحتهما بإضافة العجلات الحربية ، التى استخدمت فى بلاد ما بين النهرين قبل استخدامهما لها بألف عام . ولما كانت الحضارة هى كل عضوى فإن كافة عناصرها تؤثر بشكل كبير أو قليل فى بعضها البعض .

و بنفس الطريقة فإن روسيا واليابان أصبحتا أكثر شبهاً بانجلترا و ببعضهما البعض عندما بدأتا فى مد واستخدام السكك الحديدية ، فالسكك الحديدية اليابانية والروسية لا ترمز لغزو إنجليزى أو قهر للساموفار ، والمسيحية الأرثوذكسية مثلا ، أو للريكشا والشينتوبزم(١) . كما لم تمثل العجلة الحربية فى مصر أو أوربا غزواً بابلياً أو قهراً للمؤسسات أو العادات والتقاليد والأساليب الفنية المصرية أو المينوية أو الميسينية . وذلك لا يغير من الحقيقة التاريخية أن السكك الحديدية اخترعت فى انجلترا ، وأن ما صنع فى روسيا كان تقليداً معتمداً للأسلوب الإنجليزى ، بل وتحت إشراف مهندسين إنجليز . ويكاد يكون من المؤكد كذلك أن العجلات الحربية المصرية كانت نقلا عن الأسيوية . ويحتمل أن يصدق نفس الشيء على كريت واليونان ، وفى المدى البعيد على العجلات التى استخدمت فى أوربا المعتدلة رغم أن النماذج التى استخدمت فى أوربا كانت منقولة مباشرة عن اليونان الميسينية أو ربما الأتروسكانية .

ونحن فى كل من هذين المثالين إنما نتناول الاقتراض الحضارى بين مجتمعات متميزة سياسياً وحضارياً . وهذا هو ما يسمى بالانتشار الحضارى فمعظم حالات التمثل التى يثبت فيها أسبقية شهور سمة عامة جديدة فى مجتمع ما يجب تفسيرها على أساس الانتشار . أما حيث لا يمكن التأكد من ظهور السمة الجديدة فى حضارة ما قبل ظهورها فى بقية الحضارات فيصبح الوضع شائكاً . فلا يمكن إطلاقاً أن نستبعد مسبقاً إمكانية وصول عدد من الحضارات

(١) الشينتويزم ديانة يابانية .

إلى الابتكار الجديد بشكل مستقل ، بل يجب الاعتراف بها فى بعض الحالات فقد بدا لنا فى عام ١٩٥٠ أنه من المؤكد أن صناعة الخزف قد ظهرت فى شمال أوربا قبل أن يقترب أى فلاح (من العصر الحجرى الحديث) من الشمال لينقل هذا الفن إلى المتوحشين المحليين ، ولكنها كانت متأخرة فى نفس الوقت عن أن تكون السلف لصناعة الخزف المصرى أو فيما بين النهرين . وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا الاكتشاف — أو الاكتشافات — قد حدث مرتين وتتخذ صناعة الخزف عادة محكاً حاسما لدى الانتشاريين . ولكن ما يصدق على الاختراعات أو المكتشفات المادية ينطبق بنفس القدر على الأقل على التجديدات فى المؤسسات والطقوس والفنون .

والآن ، كما أن الانتقاء يميز التطور الاجتماعى عن العضوى ، فإن الانتشار خاص فقط بالتكيف الاجتماعى — أى بالتطور ، لذلك فالانتشار هو الحضارة . لأن الحضارة بالطبع تمثل الوسيلة التى تتكيف بها المجتمعات مع بيئاتها حتى تبقى وتتكاثر ، وذلك بدلا من التعديلات الجسمية والغريزية التى تقوم لدى الحيوان بنفس العمل . وهذه الخاصية هى بالتالى وظيفة الأسلوب الذى تنشأ به الحضارة وتنتقل .

ويمكن تلخيص ميكانيزم التطور العضوى الذى تنشأ بواسطته أنواع جديدة فيما يلى : لأسباب مجهولة (لذلك نقول بالصدفة أو بشكل عشوائى) تحدث دائمة فى واحد أو أكثر من المورثات لدى فرد من نوع ما . وتنتقل عن طريق التكاثر الجنسى إلى بعض أبنائه . فإذا كانت هذه الطفرة مفيدة فإن من يرثونها وتظهر لديهم الصفه الجديدة ، ستكون لديهم فرصة أكبر للبقاء عن بقية النوع ، والأرجح أنهم سوف يعيشون أطول ويلدون أكثر . وبعد عدة أجيال سنجد أنهم قد حلوا محل كافة منافسيهم فى مجتمع محلى معين . (إذا كانت تلك الميزة الناشئة عن السمة الجديدة تبلغ ١٪ فإن ذلك التبديل سيستغرق خمسمائة جيل فى مجموعة من عدة آلاف) وهكذا يستقر نوع جديد فى منطقة محلية معينة .

وتحدث التغيرات الحضارية بشكل أسرع ، فإذا اكتشف أو اخترع فرد ما ، من مجتمع أداة جديدة ، أو نمطاً ، أو أغنية ، أو طقساً جديداً ، يستطيع أن ينقله مباشرة عن طريق الشرح أو التمثيل إلى غيره من أعضاء المجتمع فإذا أقنعهم بمزاته أو فوائده أى إذا وافق المجتمع على التجديد ، فسوف يستخدم على نطاق المجتمع الذى ستثرى حضارته ، وبالتالى تتغير بنفس القدر ، ولذلك فإن التغير الحضارى يمكن إقامته داخل المجموعة الإنسانية بأسرع من انتشار الطفرة فى مجموعة سريعة التكاثر كالفئران إذ أن التجديد الحضارى يمكن أن يتبناه مجموع الناس فى أقل من جيل واحد . ويتعلم كافة أعضاء الجيل الجديد بمجرد نموهم من أسلافهم كيف يؤدون الطقس الجديد أو الاختراع ، وهكذا يتم الاحتفاظ به فى التراث الاجتماعى للمجتمع .

ولكن العملية لا تقف عن هذا الحد ، فالاختراعات يمكن أن تنتقل من مجتمع لآخر ، وهذا هو بالضبط معنى الانتشار .. وهذا هو بالضبط أيضاً ما يستحيل على التطور العضوى. فلا توجد وسيلة ممكنة يستطيع بها نوع ما أن ينقل لآخر الطفرة التى ثبت نفعها ، ولو كان الإثنان يسكنان نفس المنطقة . وكل ما يمكن أن يحدث أن الاختيار الطبيعى يستبعد تدريجياً النوع الذى تنقصه الطفرة . وفى رأيى أن عملية الانتشار هى التى تميز التطور الاجتماعى عن التطور العضوى أكثر من غيرها ، وتفسر مختلف المنحنيات التى تظهر فى التمثيل التخطيطى للعملية .

ومن المعترف به أنه لا يمكن تفسير كافة الالتقاءات بهذه الطريقة ، كما أن الانتشار لا يمكن إثباته أركيولوجيا . ولكن عالم الآثار يمكنه أن يثبت التفاعل — أى وجود فرصة الانتشار — بين مختلف المجتمعات ، فانتقال الأشياء المادية من جماعة لأخرى عن طريق الإنسان هى واقعة يمكن ملاحظتها ولقد سبق ذكرها فى الفصول السابقة تحت اسم « التجارة » وكان يمكن استخدام كلمة « تفاعل . لأنه إذا كان من الممكن انتقال الأشياء المادية من مجتمع لآخر ، فذلك ممكن أيضاً بالنسبة للأفكار ، ومن الممكن ملاحظتها كذلك.

ومن الطبيعى أن الأفكار لا تتحجر ولكن يمكن إدراكها فى الأفعال التى تترك آثاراً دائمة على السجل الأركيولوجى . ويكفينا هنا مثالان لتوضيح كيف أن انتقال الأفكار بين المجتمعات التى سبق أن بينا ارتباطها « بالتجارة » من المعقول استنتاجه .

ففى الفصل السابع ظهر لنا أن المجتمعات النيوليثية « الدانوبية » فى وسط أوربا حصلت على القواقع عن طريق « التجارة » المباشرة أو غير المباشرة مع حوض البحر الأبيض المتوسط . وبعد مدة أخذ « الدانوبيون » فى هنغاريا ومورافيا بين الحين والآخر يصنعون مكعبات غريبة الشكل من الخزف ، أحد أوجهها مجوف فى شكل الفنجان وفى أركانها ثقوب للخيط . . وهو شكل سخيف لإناء من الخزف ، ولكنه نسخة طبق الأصل من أوانى الأصباغ أو الدهانات الحجرية التى كانت شائعة فى كريت ومصر وما بين النهرين خلال الألف الثالث ق. م. ، وهى ذات شكل متماثل لطيف يسهل صنعه من الحجر . ويمكننا أن نستنتج باطمئنان أنه لما كان الدانوبيون فى العصر الحجرى الحديث غير مهرة فى صناعة الأوانى الحجرية فقد صنعوا من الخزف آنية تشبه أوانى الأصباغ الحجرية فى بحر إيجه والشرق الأدنى ، وبتعبير آخر فقد استعاروا الفكرة من الشرق ولكنهم ترجموها إلى المواد المحلية والأساليب القومية .

ثانياً ، كان بين المصريين فى مرحلة حضارة جرزة والسومريين فيما بين النهرين فى مرحلة حضارة أورورك علاقة « تجارية » إذ أن الاثنين كانا يستوردان اللازورد ، وهذه المادة من المعروف أنها تستخرج من أفغانستان ، ولابد أن تمر بسهل الدجلة والفرات فى طريقها إلى النيل . وعند نهاية مرحلة حضارة جرزة ، وجدنا أن الفنانين المصريين بدءوا —واستمروا لفترة قصيرة فقط— فى استخدام الموتيفات والرسوم التى كانت شائعة لمدة طويلة فى بلاد ما بين النهرين —وهى حيوانات ذات رءوس فى طرفى أجسامها ، وكائنات مخيفة ذات رقاب ملتوية على بعضها البعض ، جماعات متناقضة .. وهكذا .

كذلك بدأ المصريون فى نفس الوقت فى صناعة أختام اسطوانية مزينة بصفوف من الحيوانات تشبه الأختام الأسطوانية فى مرحلتى أوروك وجمدة نصر فيما بين النهرين ، ولو أنها كانت دائماً تعالج بأسلوب مصرى . ولقد ظل الختم الأسطوانى مستعملا بعد ذلك على الدوام فى ما بين النهرين ، ولكنه استبدل به أشكال قديمة من ختم الضغط فى مصر فى العصور التاريخية . ويجب أن نعترف هنا أيضاً أن المصريين استخدموا الموتيفات الفنية ومبتكرات ما بين النهرين ولكنهم تخلصوا منها بعد ذلك .

ومن السهل إيراد أمثلة كثيرة ، ولكن هاتين الحالتين تكفيان لتبينا أن الأفكار كانت تنتقل بالفعل من مجتمع لآخر وأنها كانت فى كل حالة تتحور لتتفق مع الحضارة الجديدة . وفى كلا المثالين تم التخلص من الأفكار المقترضة فيما بعد . ولقد اخترناهما فى الحقيقة لهذا السبب ، إذ أن رفض جانب لفكرة ما ، فى النهاية واحتفاظ الجانب الآخر بها يساعد الأخير مادياً على إثبات دعواه فى اختراع التجديد . ولكن يجب ألا نفترض أن الرفض كان المصير الطبيعى للفكرة المقترضة — فالعكس هو الصحيح . وتوضح لنا هاتين الحالتين نقطة هامة أخرى : فالانتشار ليس عملية أوتوماتيكية كانتقال العدوى . فالمجتمع لا يقترض فكرة — اختراعاً تكنيكياً ، أو نظاماً سياسياً ، أو طقساً خرافياً ، أو دافعاً فنياً — إلا عند ملاءمتها للنمط العام لحضارة المجتمع ، وبعبارة أخرى عندما يكون المجتمع قد نما إلى مرحلة تسمح بقبول الفكرة .

وهذا واضح جداً فى حالة التقدم التكنيكى . فعجلة الخزاف مثلها مثل العربة ذات العجلات ، وصلت إلى وسط أوربا بطريق الانتشار ، ولكنها لم تستعمل إلا بعد عدة قرون من استعمال العربة ذات العجلات ، وذلك عندما تطلبت أو سمحت التطورات التكنيكية أو السياسية الأخرى بتركيز السكان فى تجمعات كبيرة نسبياً ، إذ أن الخزاف المحترف لكى يكسب عيشه لابد له من وجود عدد كبير من الزبائن يعيشون بالقرب منه ، أما انتشار الحديد فعلى عكس هذه الحالة . فرغم أن صناعته كانت تمارس فى فلسطين

وبحر إيجه منذ حوالى عام ١٠٠٠ ق.م. إلا أن التكنيك الجديد ومنتجاته لم تستعمل فى وادى النيل إلا بعد حوالى ذلك التاريخ بأربعمائة عام. فحتى ذلك الحين لم يكن التجديد يشبع حاجة « يوافق عليها المجتمع » فى الحضارة المصرية ، فالمؤسسات الاقتصادية والسياسية الراسخة ، كانت عقبة لا شعورية فى وجه استخدام الحديد الرخيص.

وللمثال الثانى الذى أوردناه لإثبات انتشار الأفكار دلالة أخرى ، فعندما بلغ التفاعل بين مصر والجزء الأدنى من ما بين النهرين وبين غيرهما من المجتمعات درجة من الشدة حتى أصبحت خطى التغير الحضارى شديدة السرعة ، عندئذ فقط أمكننا التحدث عن ثورة — أى عن الانتقال من الوحشية إلى المدنية — ولوحظ مثل هذا الارتباط فى مجتمعات أخرى : فى كريت فى العصر المينوى الأوسط ، وفى اليونان الميسينية ، وفى أوربا المعتدلة فى عصر لاتين. وبالطبع فإنه فى غياب أساليب القياس الملائمة ، وفى غياب المعلومات الدقيقة لا يمكن قيام الارتباط المضبوط. وعلى أى حال فإن المعلومات الأركيولوجية المتجمعة تبرر على الأقل التأكيد بأن التغير التقدمى يزداد سرعة بالتفاعل مع المجتمعات ذات التكيفات المخالفة والتنظيمات المختلفة.

وعلى أى حال فإن الأدلة التى أوردناها لا تدع مجالا للشك فى أن التفاعل قد حدث بين مناطق جغرافية متنوعة ، وذلك حيث أمكننا الحصول على التتابعات الحضارية الكاملة نسبياً خلال الفترة التى سادت فيها البربرية فى كل منها وهذا التفاعل يساعد على تفسير الالتقاءات الملاحظة فى بيئات طبيعية جد مختلفة ، وتبين كذلك لماذا فشلنا فى كافة المناطق فى أن نعين مراحل متشابهة متوسطة بين البربرية والمدنية ، لأن عمليات التغير كانت سريعة جداً بحيث لا تسمح بتجميع كلى للمجتمعات المتأثرة بالانتشار فى صيغ أو وحدات ثابتة جديدة ، ومن ناحية أخرى فإن السلاسل المعددة التى درسناها ليست فى الحقيقة مستقلة تماماً عن بعضها البعض بحيث تكون « نماذج » متميزة يمكن أن نستخلص منها استنتاجات شرعية.

وقد ظهرت هذه النتيجة الأخيرة فوراً وبوضوح فى تخطيطنا لنمو الاقتصاد الريفى فى عدة مناطق ، فيبدو أن الأركيولوجيا لا تكشف عن المكتشفات مستقلة والتحسينات فى أساليب الزراعة وتربية الماشية ، بل عن تكيف نفس المجموعة من المكتشفات لمختلف البيئات . ومن هنا فإنه حتى فى هذا المجال الضيق لا يمكننا أن نقول عن اقتناع أى مجتمع من مجتمعات مزارعى العصر الحجرى الحديث أو البرونز فى بوهيميا أو بريطانيا كان فى نفس المرحلة من التتابع التطورى مع أى مجتمع مثله فى كريت أو مصر أو فى الباسفيكى أو أفريقيا اليوم .

وربما كان الوضع مختلفاً فى مرحلة الوحشية ، على الأقل فى حدود العصر الحجرى القديم والأوسط ، فمجموع سكان الأرض فى عصر البليستوسين وسكان شمال غرب أوربا فى الهولوسية المبكر (وهكذا يصبح العصر الحجرى الأوسط عند الأركيولوجيين محدوداً فى زمانه ومكانه) كان صغيراً جداً ومبعثراً حتى أن التفاعل بين الجماعات والمناطق كان شيئاً غير عادى . كذلك فإنه داخل هذه الحدود الزمنية لا تزال المعلومات الأركيولوجية قليلة وغامضة حتى إنه لا يمكن الاطمئنان إلى أى تعميمات اجتماعية ، وحتى تمدنا المصادر بوثائق أكثر ثراء فإن إمكانية الانتشار لا يمكن استبعادها . فالدليل على الاتصال بين البحر الأبيض والدوردونى قائم منذ الميوليثيك (الفترة العليا من العصر الحجرى القديم) وعلى الاتصال بين الأورال والبلطيق منذ العصر الحجرى الأوسط . وهكذا فإن صيادى الأسماك والحيوانات على بحيرة أونيجا الذين كانت مدافنهم تشير إلى نوع من الزعامة كانوا معاصرين لمجتمعات مزارعى العصر الحجرى الحديث الذين كانوا يعيشون حول السواحل الجنوبية الغربية للبلطيق فى جنوب وربما فى وسط روسيا كذلك ، وربما تأثرت منظماتهم الاجتماعية « الوحشية » بمنظمات جيرانهم من البرابرة . إذ أن جماعات من نفس المجتمع — أى فى نفس الحضارة — كانت لديهم علاقات « تجارية » واضحة بمثل هؤلاء المزارعين .

وفى سيبريا كذلك فى مرحلة جلازكوفو ثبت بوضوح وجود اتصال مع حضارات عصر البرونز فى الجنوب عن طريق المصنوعات المستوردة . وفى المرحلة التالية « كيتوى » التى ظهرت لنا فيها أولى لمحات الزعامة و « السائق » كانت « التجارة » قد بلغت حداً من الاتساع يسمح بوجود فرص للتفاعل على نطاق مساحة واسعة وبالتالى إمكانية الانتشار من المراكز الأكثر تقدماً .

وفى النهاية ، تنهار المشابهة بين التطور الحضارى والتطور العضوى . ولكن الاعتراف بذلك لا يعنى إنكار التطور الحضارى ، ولا يعنى إنكار أن التغير الحضارى هو عملية منظمة معقولة يمكن للعقل الإنسانى فهمها دون الاستعانة بأى معجزات وعوامل ضرورية لا تدخل فى الحسبان . بل على العكس يمكن وصفها فى معادلات عامة مفهومة . وفى الحقيقة فإنه بإدخال بعض التعديل على المعادلة الدارونية « التنوع ، والوراثة ، والتكيف والانتقاء » يمكن نقلها من مجال التطور العضوى إلى مجال التصور الاجتماعى ، بل وتصبح فى هذا الميدان الأخير أكثر قابلية للفهم .

ففى حالة التنوع يصبح ميكانيزم التغير الحضارى ، الاختراع ، أكثر قابلية للفهم من مقابلة وهى الطفرة . فالمرء يجهل سبب التعديل الذى يحدث فى الأجزاء الميكروسكوبية من الكروموسوم التى تحدث الطفرة ، كما لا يستطيع أحد أن يتنبأ متى تحدث ولا فى أى اتجاه تحدث . ومن المستحيل حالياً أن نصف بدقة كيف تتغير المورثات وكيف يؤثر هذا التغيير على الكائن الكلى الناتج . ولكن الاختراع شىء يفعله كل إنسان كل يوم ، مثل إيجاد بديل للمفتاح الذى تلف أو تأليف جملة جديدة فعلا فى موضوع .

أما ميكانيزم الوراثة الاجتماعية كما سبق شرحه فهو يختلف عن الوراثة البيولوجية وأسرع منها بكثير . وهو كذلك عملية معتادة ، مفهومة ويمكن التحكم فيها بدرجة ما . وهو يحدث بضرب المثل ، وبالفهم والتعلم والإعلان والدعاية . وهذه العملية أكثر سرعة كما قلنا عن ميكانيزم التكاثر الجنسى البيولوجى .

والتكيف للبيئة شرط لبقاء المجتمعات مثلما هو شرط لبقاء الكائنات . ويمكن توضيح هذه العملية فى الأركيولوجيا كما سبق أن رأينا فى مناقشة الاقتصاد الريفى . ولكن فى التكيف الحضارى تصبح البيئة الاجتماعية الداخلية أكثر أهمية نسبياً مما هى عليه فى البيولوجى . ولقد سبق لنا إيراد أمثلة توضح كيف أن اختراعاً جديداً ، مهما كان «كفئاً» من وجهة نظرنا ، لا يمكن أن يستخدمه المجتمع إلا إذا كان يشبع حاجة مقبولة اجتماعياً ويلائم النمط الحضارى الكلى . إلا أن العملية يمكن أن تكون أكثر سرعة فى حالة التاريخ الإنسانى عن التاريخ الطبيعى بسبب وجود أساليب مختلفة للانتقال . فالتكيف الحادث مثلا فى عضلات لاعب الأكروبات لا يمكنه نقله لأولاده عن طريق الوراثة البيولوجية . ولكنه قد يعلم أبناءه وأناساً آخرين لا توجد علاقة نسب بينه وبينهم ، الحركات والتمرينات التى أدت به إلى الحصول على هذه العضلات.

وفى نفس الوقت فإن البيئة التى يتم التكيف معها تشمل عدة مجتمعات . فأى اختراع أو نظام مهما كان حسن تكيفه لحاجات مجتمع معين وبيئته الفيزيقية لا تصبح فائدته دائمة إلا إذا كان يساعد ذلك المجتمع على التكيف مع جيرانه . والبيئة الاجتماعية أكثر تغيراً من المادية لأن الحضارة تتغير بسرعة أكبر من المناخ أو النبات ولأن الحضارات تنتشر إما بالهجرة ، وإما بأى شكل آخر من أشكال الانتشار .. لذلك فالمجتمع ، مثله مثل أى نوع من الحيوان يمكن أن يصبح متخصصاً أكثر من اللازم ، أى حسن التكيف مع بيئة معينة حتى أن حضارته لا تستطيع أن تتوائق مع التغير المفاجىء فى بيئته أو لا تستطيع حتى أن تتمثل المستحدثات النافعة التى تقدمها البيئة الاجتماعية الخارجية . والنوع الأول من العجز سبق أن رأيناه فى حالة حضارة المجدلانيين فى أوربا فى نهاية عصر الجليد ، وتكررت الحالة فى التاريخ عندما واجهت قبائل بربرية غنية نسبياً ، أو حتى شعوباً متمدينة كالأزتيك وألانكا المدنية الأوربية ، والنوع الثانى هو ما ذكرناه منذ برهة عن مصر فى نهاية عصر البرونز .

أما اصطلاح « الانتقاء » فيمكن تطبيقه على ميكانيزم التطور الحضارى بمعنى خاص فقط ، وذلك بسبب الاختلافات التى أشرنا إليها آنفاً . ففى خلال الخمسمائة ألف عام التى عاشتها البشرية لابد وأن عدداً لا نهائياً من التجديدات فقد اقترح أو تمت بشأنه محاولات . ونتيجة لعملية صارمة من الانتقاء لم يتم الاحتفاظ إلا بجزء صغير هو الذى ثبت نفعه على المدى الطويل . وإلى هذا الحد يصبح التشابه مع انتقاء الطفرات صالحاً ، أما ميكانيزم الانتقاء نفسه فمختلف .

وفى حالة « بقاء الأصلح » نجد أولا أن أعضاء المجتمع الذين يحملون الطفرة هم الذين ينمون ويتكاثرون « على حساب » الأفراد الذين لا يحملونها ثم ينتشر النوع الجديد الذى نشأ بهذا الشكل عن طريق « استبعاد » الأنواع الأخرى . وتعمل ميكانيزمات انتقائية مشابهة داخل المجتمعات وبينها وبين بعضها البعض . ولقد شاهدنا الميكانيزم الثانى على الأقل يقوم بدوره فيما قبل التاريخ وفى التاريخ كذلك . ولكن هذين الميكانيزمين وسيلتان أقرب إلى التبذير . فالأولى قد تقتل أفراداً يمتلكون معلومات مفيدة وصفات نافعة وما زالت فعالة لمجرد أنه ينقصهم تكنيك ما ، أو لأنهم لا يتوافقون مع عادة صالحة اجتماعياً فى لحظة معينة . واستبعادهم فى الحقيقة أمر غير ضرورى طالما يمكن تدريبهم على التكنيك المطلوب أو تعليمهم مراعاة العادة المعنية ، فالخضوع للتطعيم قد يصبح عادة مقررة فى بريطانيا بعد سلسلة من الأوبئة التى تقتل كل من لم يطعم ، ولكن هذه العادة استقرت بسرعة أكبر ، وبشكل أوفر عن طريق الدعاية والتشريع .

ومن ناحية أخرى ، فإن أى حضارة لكى تبقى يجب أن تتكيف بشكل حسن مع بيئتها المعينة ، فإذا كان يجب إزالتها لتفسح الطريق لحضارة أحسن تكيفاً ، فإن الاكتشافات والاختراعات التى مكنت لهذه الحضارة أن تتكيف ستكون عرضة للضياع تماماً . وفى الواقع نادراً ما يحدث هذا ، فحتى فيما قبل التاريخ عندما كان تغير الحضارة فى منطقة ما ، مفاجئاً وعنيفاً بحيث

كنا نتحدث عن حلول حضارة محل أخرى ونستنتج من ذلك غزو المنطقة بواسطة مجتمع غريب ، فإن معظم الإنجازات السابقة تبقى لتندمج في الحضارة الجديدة . ففي اليونان في العصر الميلادى الأوسط ، بينما جدت طقوس الدفن وأشكال الآنية الخزفية ، ورسوم المنازل وغيرها من العناصر ، فقد بقيت عادة تجميع المنازل في مدن ، وصناعة المعادن ، وركوب البحر ، وغير ذلك من الأساليب ، والارتباطات التجارية ، والاقتصاد الريفى من الحضارة الميلادية المبكرة السالفة . ولقد أضاف القادمون الجدد للعتاد المادى الموجود من قبل الخيل والعربات ذات العجلات . ولكنهم ألغوا الدفن الجماعى ليفسحوا الطريق أمام الطقس الجديد ، ولا شك أنهم أجروا تغييرات فى المؤسسات السياسية والدينية ، كما احتفظوا بالكثير منها كما هو . ويلاحظ نفس النوع من الاستمرار عبر المسافة الواسعة التى تفصل بين العصر الميسينى والهندسى . ويوضح لنا التاريخ الحضارى لليونان فى الحقيقة الانتقاء عن طريق الاستبعاد ولكنه يكشف لنا بوضوح كذلك عن التراكم أو التجمع ، وهذا هو ما يميز التطور الحضارى .

وفى نفس الوقت فإن انتشار المخترعات — كما سبق أن أوضحنا — لا يتم دائماً ولا حتى عادة عن طريق التنافس بين المجتمعات أو الحضارات واستبعاد واحد أو أكثر من المتنافسين باعتبارهم كليات مستقلة . فالانتشار يعنى عادة استخدام مجتمع مستقل للتجديدات التى أحدثها مجتمع آخر . ولكن هذه العملية بدورها عملية تراكمية . فاستخدام المحراث أو العربة ذات العجلات فى أوربا المعتدلة لم يعن استبعاد الفئوس القديمة أو الزحافات التى ظلت فى الحقيقة تؤدى وظائف نافعة ، ولو أنها أصبحت ثانوية . وظلت الحضارات التى استخدمتها كما هى فيما عدا التعديلات التى كان لابد من استحداثها لتتفق مع الأساليب الجديدة فى الزراعة والنقل .

وهكذا نجد أن نتيجة هذا الفحص المجهد للمعلومات الأركيولوجية ، ليست سلبية ، كما كان الاحتمال فى أول الأمر . فلقد تحقق مفهوم التطور

الاجتماعى بوصفه عملية عقلية مفهومة . بينما ما زالت أسباب ظهور الاختراعات — أى الظروف التى تثير التجديد فى الأدوات والمعتقدات والمؤسسات أو فى الأساليب — وتقبلها اجتماعياً فى حاجة إلى بيان ، فلا حاجة إلى افتراض تدخلات فوق طبيعية . وزيادة على ذلك فقد نقينا المفهوم باستبعاد المشابهات الزائفة التى كانت تعقد بينه وبين عمليات التطور العضوى .

رقم الايداع ٢٢٢٣ لسنة ١٩٨٤

مطــابع سجل العرب


Bibliotheca Alexandrina
0417210